الاتجاه الروحي

في شعر
السيد محمد حسين فضل الله

علي رفعت مهدي

دار الملاك

حقوق الطبع للمؤلف

الطبعة الأولى
١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م

دار الملاك للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت ـ لبنان ـ حارة حريك ـ قرب مستشفى الساحل ـ هاتف: ٠٣/٧٥٥٢٠٠ ـ تلفاكس ٠١/٤٥٠٧٦٩
ص.ب. ٢٥/١٥٨ الغبيري

الاتجاه الروحي

في شعر

السيد محمد حسين فضل الله

بقلم

علي رفعت مهدي

دار الملاك

الإهداء

إلى الأمل الآتي. . .

من بحرِ المشاعرِ. . .

يقودُ ركبَ الحياةِ،

ويهدي البصائرَ. . .

سماحة آية الله العظمى العلامة المرجع

السيد محمد حسين فضل الله «دام ظله»

وأبويّ الكريمين. . . وروح الحبيب حسين محسن مهدي. . .

مع محبّتي واحترامي وتقديري.

علي رفعت مهدي ٢٧/ ٩/ ١٩٩٦

نيسان ٢٠٠٤م

تقديم

بقلم :
الدكتور علي مهدي زيتون[١]

«أن أتحدَّث عن علي مهدي يعني أن أتحدَّث عن إبنٍ عزيزٍ أدرجته علاقتُهُ بي على مدى سنوات عديدة في عِدادِ أولادي. وما كان هذا ليحدث لأنه طالبٌ من طلابي، ولكن لأنه كان خلال تلك المدة الطالب الخلوق، الصادق القول والفعل. يحمله تواضعه على إصاخةِ السمع الى صوت الآخر باستمرار. ولقد أكسبه هذا التواضع روحية علمية جعلته يعيد القول الى صاحبه، ويكون محتاطاً عندما تتفرق به السبل.

وعمله، وإنْ مرَّ عليه حينٌ من الدهر، لأسباب عديدة، هو إشارة واضحةٌ إلى جملة من الصفات يتمتع بها:

أولها: أنه أديبٌ وأديبٌ خَبِرَ الكلمة وسعى في بحارها سعي المهرةِ من السَّابحين.

وثانيها: أنه يملكُ استعداداً غير عاديٍّ للنماءِ والتطور وهو يعد الدراسات بعمل مرموقٍ في مستقبل أيّامِهِ.

(١) دكتوراه دولة في اللغة العربية وآدابها، عضو الهيئة الإدارية في اتحاد الكتاب اللبنانيين. عضو حركة الريف الثقافية.

وثالثُها: أنه ماهر في اختيار موضوعه. فسماحة السيد المرجع فضل الله واحدٌ من قلائل كبار مفكري الأمة. وهو وإن لم يعط الشعر ما اعطاه غيره لاسباب نعرفها، إلا أنَّ هذه المساحة القليلة التي خصَّ بها الشعر من حياته كانت كافيةً لتومىء الى شاعر واقفٍ بجدارة في الصفوفِ الأولى من صفوف شعرائنا المعاصرين. كيف لا؟ والشاعر لكي يكون كبيراً يجب أن يكون مثقفاً كبيراً فما بالك إذا كان مفكراً كبيراً ومسؤولاً حاملاً لهموم الأُمة كلها كالسيد فضل الله.

وعليٌّ الطالب، قد دخل رحاب بحثه من خلال منهج واضح ومحدد إعتمد الاسلوبية وعلم الأسلوب أداةً لمعالجةِ ما عالج من نصوص السيد، واختيار المنهج حقٌّ من حقوق الطّالب المقدّسة ولا يُحاسبُ طالبٌ على اختيار منهجِهِ يحاسب في تطبيق هذا المنهج والذي أراه أنه - أي عليّ - قد أجاد التطبيق إذا أخذنا بعين الاعتبار أن هذا البحث يعود الى سنواتٍ ماضية كان القلَّةُ القليلة من الناس هنا في لبنان يعرفون ما المناهجُ النقدية؟ ويعرفون التعامل معها.

والله الموفِّق

مقدمة

«الاتجاه الروحي في شعر السيد محمد حسين فضل الله»(١)

هو عنوان البحث الذي أردت أن يكون نتاجاً يُضاف إلى ما في المكتبة العربية عموماً، والإسلامية على وجه الخصوص. وأقول الإسلامية لأن المبحوث فيه هنا هو السيد محمد حسين فضل الله، العالم والمرجع الدينيّ، الفقيه، الإسلامي الحركة، العربي الانتماء، صاحب الباع الطويل في الشعر التقليدي، والمواكب لحركة الحداثة الشعرية التي شهد انطلاقة شراراتها على يد السياب والملائكة...

«أما لماذا الاتجاه الروحي في شعر السيد»؟

فلإن صلة السيد بالعقيدة الإسلامية صلة وثيقة منذ نعومة أظفاره، فهو من أسرة دين وعلم وأدب. فالسيد محمد حسين فضل الله وليد العراق في النجف الأشرف، بيئة الثقافة والعلم والشعر، حاضرة الأدب على مدى سنين طويلة وذات الحساسية الشعرية العالية، والمناسبات الدينية التي يغلب عليها الاهتمام بإثارة الوعي الديني. هذا الوعي الذي تبلور في السنوات الأولى من العقد الخمسيني وبداية الستينات، وهي الفترة السوية الخصبة عند السيد

(١) البحث عبارة عن رسالة أعدت لنيل شهادة دراسة الماجستير في اللغة العربية.

فضل الله. . . تلك الفترة هي المساحة الذهبية للشعراء الرّواد من أمثال بدر شاكر السياب، والجواهري، والأخطل الصغير، وعمر أبي ريشة، ومحمد الفيتوري، وصلاح عبد الصبور وغيرهم.

إن كلّ شاعر من هؤلاء الشعراء يحمل أيديولوجيا معينة لها مشارب غربية في معظمها. . . وكلُّ واحد من هؤلاء يُقدم أبطاله من الأساطير والتاريخ. . . فالأساطير خروج جريء على المعتقدات، وهي كذلك شك في قُدرة المبادىء السائدة على إيجاد الحلول لمشاكل تلك الفترة، والتاريخ قد كُتب بأهواء كاتبيه.

لهذا وجد «السيد» في الدين الإسلامي إطاره الثقافي المتجذر فيه، والذي يجب أن يقف صامداً قبالة الدخيل الوافد من كل جهة. . . ولهذا اتخذت علاقته مع الله تعالى منحىً إسلامياً، يستوحي من الدين صفاءه، وطهارته، ودعاءه، ورحمته، ومغفرته، وإيمانه بالإنسان. . . هذه العلاقة وجهت السيد في اتجاه أدبيّ روحيّ، حمل من خلاله همّ «الجماعة» حيث استطاع السيد فضل الله توظيف لغة الشعر الوجداني/ الروحي، وصوره لخدمة أغراضه وهمومه الإسلامية. ولذلك لا تقعُ في شعره على ذاتية خاصة، فقد بنى خطابه الشعري على ضمير الجماعة «نا» كأنه يتكلمُ بلسانهم، وهذا هو ضمير المسؤولية.

فالسيد فضل الله عالم دين مسلم وشاعر يعيش الواقع الديني والسياسي، كما يعيشه شعبه المسلم المكتوي بنار الدُخلاء، فمن حق هذا الشعب على السيد وأمثاله من الشعراء أن يُخاطَب بما هو كامن في أعماقه من مشاعر إنسانية، لا يفجرها إلّا خطاب الإيمان، ينطلق في روحية خالصة لله تعالى ورسوله. . .

لهذه الأسباب وغيرها، آثرت أن تكون دراستي قائمة على تحليل بعض النماذج الشعرية، والتي حرّكها السيد في واقع النفس والحياة، وسعى لتكون حافزاً على الوصول لما فيه رضى الدنيا والآخرة.

إن هذا الاختيار قد يثير بعض المشاكل التي تعترض أي بحث، أو نتاجٍ لا سيما أن جميع الدراسات قد تناولت الجوانب الفقهية، والدينية، والسياسية، والأصولية، والعقائدية، في فكر السيد، ولكنها لم تتناول السيد فضل الله شاعراً، ولعله في الفترة التي كنتُ قد أعددت بها هذه الدراسة لم يكتب في موضوع شعرية السيد إلا بعض المقالات والتحليلات التي وردت على صفحات الجرائد والمجلاّت السياسيّة والثقافيّة متناولةً شعر سماحة السِّيد فضل الله. ولأن دراستي تتناول جانب «الاتجاه الروحي» فقد حاولت إثارة بعض النقاط التي يمكن أن تخدم بحثي دون أن تكون صورة مستنسخة عن الدراسات الأخرى، ولعل أهم هذه النقاط هي:

١ ـ شرح مصطلح الروح فلسفياً، لغوياً، دينياً، أدبياً وشعرياً.

٢ ـ السيد فضل الله والشعر.

٣ ـ الله تعالى في شعر السيد فضل الله.

٤ ـ شخصية النبي محمد(ص) في شعر السيد.

٥ ـ سيرة الرسول(ص) الرسالية وواقع العصر...

٦ ـ لغة السيد فضل الله الشعرية.

٧ ـ نموذج عن الإيقاع الموسيقي عند السيّد.

وأما الخطة التي آليت أن أعالج رسالتي من خلالها، فقد ركزت على تمهيد ومقدمة يليها بابان:

الباب الأول: يتناول فصلين. الفصل الأول: السيد فضل الله والشعر تناولت فيه الطفولة الشاعرة، البيئة الشعرية، نظمه للشعر، تجربته الشعرية، مفهومه للشعر، الثابت والمتحرك في شعر السيد، الرؤية الشعرية ودورها، اللغة النثرية واللغة الشعرية، الغموض والوضوح في الشعر، الرمز الشعري، ومشاكل الشعر العربي.

الفصل الثاني: درست فيه علاقة السيد فضل الله كشاعر بالله تعالى، مركزاً على: الله تعالى في نظر الشاعر، محبة الله سبحانه، الخضوع والخشوع لله تعالى، الله تعالى سِرّ الكون وعلّته، شوق الشاعر إلى لقاء المحبوب، القلق والحيرة عند الشاعر، الخالق أنيس الوحدة، الدعاء سلاح الشاعر في طلب المغفرة والرضوان من الله تعالى.

وأما الباب الثاني: فقد أفردت فيه ثلاثة فصول، الأول: شخصية النبي محمد(ص) في شعر السيد، رسول السلام، رسول الأخلاق، الرسول الرحمة، الرسول القدوة، الرسول الإنسان، رسول الحياة.

وأما الفصل الثاني فقد عرضت فيه لسيرة الرسول الأعظم(ص) وواقع العصر، وفيه حُرية الإسلام، الأمة الأسيرة، نظرة الأمة لرسولها، معارك الرسول وأثرها في واقع الأمة، أخوة الأنبياء، الرسالة القدوة. . .

وأما الفصل الثالث: فقد خُصِّص لدراسة اللغة الشعرية عند السيد فضل الله، والموسيقى في شعر السيد، متناولاً نموذجاً عن الإيقاع في قصيدته.

لأخلص بعد ذلك إلى الخاتمة التي شكّلت خُلاصة البحث، ونتائج عناوينه، مضيفاً ملحقاً يتناول أهم قصائد السيد في الاتجاه الروحي.

كل هذه الفصول شكّلت العناوين الأساسية في اتجاه السيد الروحي،

أو ما عرف بالأدب الروحي في شعره. هذا الأدب الذي جعل السيد يستثمر الرمز الموضوعي. وهو الذي يستثير التراث بما فيه من طاقات تفجر الوعي لدى الجمهور المسلم.

فما الإنسان الذي يحمل همّه الشاعر الإنسان المسلم، الذي تريد القوى التي تسيطر على العالم اليوم، أن تسحقه مادياً وتسلب روحه وفكره وحضارته إلّا إنسانه.

وأما سبب الترتيب فلأنَّ الشاعر قد مهد في ديوان قصائد للإسلام والحياة لهذه الأفكار، خصوصاً أن ديوانه المذكور يبدأ بمحور عنوانه «مع الله» ويليه محور آخر تحت عنوان «في رحاب رسول الله».

وبالنسبة للمنهج المتبع، فقد لجأنا إلى المنهج الأسلوبي القائم على دراسة البيت الشعري، ودراسة تركيبه وحقوله الدلالية، فالعمل الأدبيّ قبل أن يكون إنتاجاً أو تعبيراً هو بالنسبة إلى الذات المبدعة وسيلة للكشف عن الذات.

لقد انطلقت من خلال دراسة النص وفق المنهج، دراسة من الداخل بمعزل عن العوامل الخارجية، فالنص بلغته له وجوده الموضوعي المستقل، ويُقرأ هذا النص على أساس علاقته الداخلية، علاقة الكلمات بعضها وما تنتجه من دلالات وفق مستويات عدة، وهو ما حاولت أن أخلص إليه من دراستي لنصوص السيد الشعرية. وهناك الكثير من المصادر التي أمدتني بالفهم العميق للدراسة، وهي تقسم إلى قسمين:

١ ـ ما له علاقة بالموضوع مباشرة، كدواوين الشاعر الأساس وهي «قصائد للإسلام والحياة» والذي طُبع طبعة إولى من خلال المؤسسة الجامعية للدّراسات والنشر والتوزيع، بيروت ـ الحمراء، سنة ١٩٨٤م/ ١٤٠٤هـ.

وأعيد طبعه بعد نفاذه من خلال «دار الملاك» بيروت ـ حارة حريك، سنة ٢٠٠١م/ ١٤٢١هـ طبعة ثانية ملحقة بدراسة عروضيّة للقصائد ومقدِّمة شعريّة.

وديوان «يا ظلال الإسلام» الصادر عن دار التعارف للمطبوعات، طبعة أولى، وعن «دار الملاك» بيروت، طبعة ثانية. وفي الديوان أهم القصائد المتعلقة بالاتجاه الروحي عند السيد محمد حسين فضل الله.

وأما القسم الثاني من المراجع والكتب والمصادر فقد تضمن الدراسات المرتبطة بالبحث. مَنْهجاً وأسلوباً وتحليلاً ومنها: كتاب «الموضوعية البنوية» لعبد الكريم حسن، و«الصورة الشعرية» و«السياب شاعراً» و«لغة محمد علي شمس الدين الشعرية» للدكتور علي مهدي زيتون، إلى غيرها من الكتب المساعدة في هذا الميدان.

وأما الصعوبات التي واجهتني في بحثي فمنها قلّة الأبحاث في هذا الجانب من حياة السيد، حيث عمدت إلى الرجوع للكثير من المقابلات الأدبية والشعرية، التي كانت قد أجريت في وقت سابق مع السيد، ومنها غزارة القصائد التي تشكل أساساً في البحث والتي لا يمكن الإحاطة بها جميعاً نظراً لما هو مطلوب ومعالج، خصوصاً أَنَّ للسيد قصائد في مختلف الاتجاهات السياسية، والاجتماعية، والوجدانية، والدينية، والوطنية، والإخوانية... وقد كنتُ أعود في بعض الأحيان إلى الشاعر نفسه للقائه وفهم نظرتِهِ للأمور والقضايا المتعلقة بالموضوع.

وختاماً يهمني أن أذكر أن كل الصعوبات تتلاشى حين يبصر العمل النور، ويقدم إلى القارىء الذي لم يحب السيد أن يتدخل في وعيه للتجربة الشعرية، «فللشعر حركته في الإحساس، وفي الفكر من خلال طبيعة الشكل

والمضمون، وللقارىء حريته في طريقة انفعاله الشعوري به[١].

ويبقى أن عملي هذا، وبحث دراستي، يُقَدِّمُ لمعرفةِ ما في وجدان الأمة وضميرها من أعمال أدبية شعرية راقية.

والله ولي التوفيق، وبه نستعين...

(١) محمد حسين فضل الله، مقدمة ديوان على شاطىء الوجدان، ص ٧.

مدخل

لا نقصد بالاتجاه الروحي، أو الجانب الروحي في شخصية الإنسان المسلم، كثرة الصلاة والصيام والتعبّد... وإن كان لكثرة التعبد والتنفل صلة وثيقة بالاتجاه الروحي في الشخصية الإسلامية، سواء الشاعر منها أو غيره.

ولا نقصد بالاتجاه الروحي كذلك حسن التعامل مع الناس والأخلاق الحسنة: كالشجاعة، والعفّة، والكره، والحكمة، والإحسان، وما شاكل ذلك وإن كان للأخلاق صلة وثيقة بالجانب الروحي. وإنما نقصد في الاتجاه الروحي في شخصية المسلم وأقول المسلم لأن السيد عالم دين وفقيه ومجتهد نذر حياته لإسلامه منافحاً عنه في العقيدة والسياسة، والأدب والشعر، الجانب الذي يعتبر جوهر الشخصية ومضمونها، أي الصلة الداخلية للمؤمن بالله تعالى وإنشداده النفسي والعاطفي به تعالى، من حيث الإيمان والحب والإخلاص، وما يرافق هذه المعاني الثلاثة الرئيسية من خوف، ورجاء، وتواضع، ودعاء، وأمل بالله سبحانه.

إن المضمون الداخلي المرتبط بالله تعالى هو الجانب والاتجاه الروحي، وهو الذي يشكل الأساس الذي يُقوِّمُ صرح الشخصية الإسلامية بالكامل، وتصدر عنه عناصرها الأخرى، وسماتها، وخصائصها المميزة عن

الناس وعلاقة الإيمان بالله، وخوفه، ورجائه والتواضع له، والإخلاص لدينه.. بالعبادة الخارجية من صلاة وصيام، وأذكار علامة تأثير متبادل يؤثر المضمون الداخلي للمؤمن، فينتج عبادة، وتنفلاً وصياماً وقياماً، وتؤثر العبادة الخارجية فتزيد في الإيمان، والحب، والإخلاص، والخوف، والرجاء، وكذلك الحال في الأخلاق والتربية الروحية، هي بالنتيجة بناء هذه العلاقة الداخلية للمؤمن بالله، وتنميتها وتحصينها والحفاظ عليها.

وإذا تحدّدت لدينا هذه الصورة المجملة عن المراد بالاتجاه الروحي في الشخصية الإسلامية، والتربية الروحية التي تشدّد على عِظَمِ زادها، وانطلاقاً من ارتباط الاتجاه الإنساني بالروح، كان لا بدّ أن نطرح السؤال التالي:

ما هي الروح؟

الروح لغةً:

جاء في لسان العرب لابن منظور، مادة روح: «الروح، النفس، يُذكّرُ ويؤنّث، والجمع الأرواح».

التهذيب: قال أبو بكر بن الأنباري: الروح والنفس واحد غير أن الروح مذكر والنفس مؤنثة عند العرب. وفي التنزيل: ﴿**ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي**﴾؛ وتأويل الروح أنه ما به من حياة النفس. وروى الأزهري بسنده عن ابن عباس في قوله (ويسألونك عن الروح)؛ قال: إن الروح قد نزل في القرآن بمنازل، ولكن قولوا كما قال الله عز وجل: ﴿**قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلّا قليلاً**﴾.

وروي عن النبي(ص)، أن اليهود سألوه عن الروح فأنزل الله تعالى هذه

الآية وروي عن الفراء أنه قال في قوله (قل الروح من أمر ربي)؛ قال: من علم ربي أي أنكم لا تعلمونه؛ قال الفراء: والروح هو الذي يعيش به الإنسان، لم يخبر الله تعالى به أحداً من خلقه ولم يُعط علمه العباد قال: وقوله عز وجل (ونفخت فيه من روحي)؛ فهذا الذي نفخه في آدم وفينا لم يعط علمه أحداً من عباده؛ قال: وسمعت أبا الهيثم يقول وهو جار في جميع الجسد، فإذا خرج لم يتنفس بعد خروجه فإذا تتامّ خروجه بقي بصره شاخصاً نحوه حتى يغمض وهو بالفارسية «جان» وقوله تعالى في قصة مريم، عليها السلام: ﴿فأرسلنا إليها روحنا فتمثّل لها بشراً سوياً﴾؛ قال أضاف الروح المرسل إلى مريم نفسه كما تقول: أرض الله وسماؤه، قال وهكذا قوله تعالى للملائكة ﴿فإذا سويته ونفخت فيه من روحي﴾؛ ومثله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه؛ والروح في هذا كله خلق من خلق الله لم يعط علمه أحداً؛ وقوله تعالى ﴿يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده﴾؛ قال الزجاج: جاء في التفسير أن الروح الوحي أو أمر النبوة، ويسمى القرآن روحاً ابن الأعرابي: الروح الفرح والروح القرآن، والروح الأمر، والروح النفس. قال أبو العباس: وقوله عز وجل: ﴿يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده وينزل الملائكة بالروح من أمره﴾؛ قال أبو العباس: هذا كله معناه الوحي، سُمي روحاً لأنه حياة من موت الكفر، فصار بحياته للناس كالروح الذي يحيا به جسدُ الإنسان؛ قال ابن الأثير: وقد تكرر ذكر الروح في الحديث كما تكرر في القرآن ووردت فيه على معان، والغالب منها أن المراد بالروح الذي يقوم به الجسد وتكون به الحياة، وقد أطلق على القرآن والوحي والرحمة، وعلى جبريل في قوله: الروحُ الأمين؛ قال وروح القدس يُذكّر ويؤنّث. وفي الحديث: تحابوا بذكر الله وروحه؛ أراد ما يحيا به الخلق ويهتدون فيكون حياة لكم، وقيل: أراد أمر النبوة، وقيل: هو القرآن.

وقوله تعالى: ﴿**يوم يقوم الروح والملائكة صفاً**﴾ قال الزجاج: الروح خلق كالإنس وليس هو بالإنس، وقال ابن عباس: هو ملك في السماء السابعة، وجهه على صورة الإنسان وجسده على صورة الملائكة؛ وجاء في التفسير: أن الروح ههنا جبريل، وروح الله: حكمه وأمره. والروح: جبريل عليه السلام وروى الأزهري عن أبي العباس أحمد بن يحيى أنه قال في قوله تعالى: ﴿**وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا**﴾؛ قال: هو ما نزل به جبريل من الدين فصار تحيا به الناس أي يعيش به الناس؛ قال: وكل ما كان في القرآن فَعلْنَا، فهو أمره بأعوانه، أمر جبريل وميكائيل وملائكته، وما كان فَعلْتُ فهو ما تفرد به؛ وأما قوله: وأيدناه بروح القدس، فهو جبريل عليه السلام. والروح: عيسى عليه السلام. والروح حفظة على الملائكة الحفظة على بني آدم، ويروى أن وجوههم مثل وجوه الإنس. وقوله (تنزل الملائكة والروح) يعني أولئك(١).

الروح دينياً:

قال تعالى: ﴿**ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلّا قليلاً**﴾(٢).

اختلف المفسرون المسلمون في المراد بالروح في هذه الآية الكريمة، فقد ذكر السهيلي الخلاف بين العلماء، في أن الروح هي النفس أو غيرها، وقرر أنّها ذات لطيفة كالهواء، سارية في الجسد كسريان الماء في عروق الشجر، وقرر أن الروح التي ينفخها الملك في الجنين هي النفس بشرط

---

(١) لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، ج٢، مادة روح، ص ٤٦٢ و٤٦٣.
(٢) الإسراء/ ٨٥.

اتصالها بالبدن. واكتسابها بسببه صفات مدح أو ذمّ، فهي إما نفس مطمئنة أو أمّارة بالسوء، قال: كما أن الماء هو حياة الشجر ثم يكسب بسبب اختلاطه معها اسماً خاصاً، فإذا اتصل بالعنبة وعُصر منها صار مصطاراً أو خمراً، ولا يقال له ماء حينئذٍ إلّا على سبيل المجاز، وكذا لا يُقال للنفس روحٌ إلّا على هذا النحو وكذا لا يقال للروح نفسٌ إلّا باعتبار ما تؤول إليه، فحاصل ما نقول: إن الروح هي أصل النفس ومادتها، والنفس مركبة منها ومن اتصالها بالبدن، فهي من وجه لا من كل وجه، وهذا معنى حسن، والله أعلم، قلت: وقد تكلم الناس في ماهية الروح وأحكامها، وصنفوا في ذلك كتباً، ومن أحسن من تكلم على ذلك الحافظ بن مندة في كتاب سمعناه في الروح(١).

إن هذه الآية التي نحن بصددها، يمكن أن يكون السؤال فيها عما تردد من الحديث عن الروح في أكثر من آية، مما جاء بشكل مبهم لا تحديد فيه، الأمر الذي أثار علامة استفهام لدى الناس. وربما كانت المسألة معرفة ما يُرادُ من هذه الكلمة في جميع مواقع استعمالها، لأنها لا تُمثل لديهم أية صورة تفصيلية، باعتبارها من الكلمات الغامضة لديهم وبهذا كان الجواب أنها من أمر الله الذي لا يملكُ معرفته إلّا هو، لأنه من الأمور البعيدة عن عالم الحواس الذي يمكن أن يُطل الإنسان ـ من خلاله ـ على مفردات المعرفة الحسية، ولكنه لا يملك أي وسيلة للإحاطة بالأمور التجريدية.

وقد يكون من البعيد أن يكون المراد بالروح هنا القرآن ـ كما جاء في بعض التفاسير ـ لأنه ليس أمراً غامضاً لديهم حتى يسألوا عنه كما أن إطلاقه عليه كان على سبيل الاستعارة، لا الحقيقة.

---

(١) تفسير القرآن العظيم، إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، المتوفّى سنة ٧٧٤هـ، ج٤، ص ٣٤٧.

وقد ذكر بعضهم أن المراد به الروح الإنساني، لأنه المتبادر من إطلاق الكلام، ولهذا كان الجواب بالنهي عن التوغل في فهم حقيقته، لأنه مما استأثر الله بعلمه. وقد يكون هذا الوجه قريباً، باعتبار أنه الأقرب إلى أفكارهم بحسب مضمون الكلمة عندهم، ولا يلتفت إلى قول من قال، بأن التبادر ممنوع في كلام الله تعالى، لأن المسألة هنا، هي مسألة سؤالهم عن الكلمة في ما يدور الحديث عنها، وما يتصورونه منها، فهي من كلامهم لا من كلام الله. وقد جاءت الآية لتنقل حديثهم مع الرسول(ص). وإذا كان الكلام من الله، بقطع النظر عن هذه الملاحظة، فإن كلامه ككلام غيره، في ما يتبادر منه، لأنه يجري كلامه على حسب ما لدى الناس من مصطلحات وإطلاقات، لأنه يخاطب عباده بما يفهمون.

ولكن هناك ملاحظتين أمام هذا الوجه:

الأولى: إن الظاهر هو أن المسؤول عنه، هو الكلمة، في مواقعها في القرآن ولم يرد ـ فيه ـ استعمالها بمعنى الروح الإنساني.

الثانية: أن المسلمين، أو العرب، في صدر الدعوة، لم ينقل عنهم أنهم كانوا يتعمقون في فهم المعاني، بحسب بعدها الفلسفي، لتتحرك علامات الاستفهام لديهم من موقع الغموض الذي يلفها، فإنهم إذا أطلقوا كلمة الروح، فإنما يطلقونها باعتبار ما تُعبر عنه من معنى الحياة أو الذات أو ما يقارب ذلك، لا باعتبار المعنى المقابل للمادة ليكون السؤال عن هذه الطبيعة التجريدية الخفية التي تكوّن سِرَّ الحياة.

ولكن لا مانع من أن يكون السؤال منطلقاً بلحاظ سرّ الحياة الذي لا يملكون الوضوح في معرفته، لا بلحاظ المعنى المقابل للمادة، بالنظرة الفلسفية. وقد حاول صاحب تفسير الميزان أن يجعل الجواب؛ بما مرّ أن

الأمر هو كلمة الإيجاد، وهو فعله تعالى الخاص به، الذي لا يتوسط فيه الأسباب الكونية بتأثيراتها التدريجية، وهو الوجود الأرفع من نشأة المادة وظرف الزمان، وأن الروح بحسب وجوده من سنح الأمر من الملكوت. . . »[١].

ولكن المتبادر من الجواب، أن الله لم يرد أن يعرّفهم طبيعتها باعتبارها من أمره لأن ذلك لم يوضح أي شيء عندهم، في ما هو حقيقة المعنى، لأن كلمة الإيجاد تُمثل مصدر الوجود لا حقيقته، كما أنه من الأمور المعروفة لديهم، في ما يعتقدونه من تعلق الإرادة الإلهية بوجود الأشياء، بشكل مباشر أو غير مباشر. ولهذا فإننا نستقرب أن يكون الجواب وارداً لبيان أنها من الأمور التي استأثر الله بها مما لا يستطيعون الإحاطة به، لأنه ليس من الأمور التي تقع في دائرة الحس ليملكوا الوسائل إلى معرفتها، لأن التعرف على الأشياء لا يتم إلّا بالوسائل التي يملكها الإنسان في فكره ووجدانه وعلى هذا الأساس، تنسجم الفقرة التالية مع صدرها ﴿**وما أوتيتم من العلم إلّا قليلاً**﴾ كإشارة إلى أنهم لا يملكون الكثير من العلم، لأن مصادر المعرفة محدودة لديهم، في ما يتصورونه أو يتعرفون عليه من خلال الحس، والله العالم[٢].

إن الروح من الأشياء التي يوجدها الله بأمره، وهو قوله للشيء «كن فيكون» وبتعبير أوضح أن الأشياء على نوعين: النوع الأول يوجده الله تعالى عن طريق أسبابه الطبيعية كجسم الإنسان وغيره من الماديات. والنوع الثاني يوجده الله بمجرد الأمر، وهو كلمة كن والروح من هذا النوع، والآية صريحة في ذلك، لأن كلمة الأمر في قوله تعالى ﴿**قل الروح من أمر ربي**﴾ إشارة إلى

(١) تفسير الميزان، ج١٣، ص ٢١٠.

(٢) محمد حسين فضل الله، تفسير من وحي القرآن، ج١٤، ص ٣٣٣، ط٢، دار الملاك، ت ١٤١٩هـ.

الأمر الذي في قوله تعالى: ﴿**إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون**﴾ وقد أثبتت التجارب هذه الحقيقة وآمن بها الذين تخصصوا وتفرغوا السنوات الطوال للبحث عن أصل الحياة، آمنوا بهذه الحقيقة بعد أن تبين لهم أن السبب المباشر للحياة لا يمت إلى المادة بصلة، ولو كان من نوع المادة لاستطاعوا أن يصنعوا الحياة في مصانعهم ومختبراتهم وقد حاولوا فأخفقوا (وما أوتيتم من العلم إلّا قليلاً) أي مهما أخرجت مصانعكم من عجائب المخترعات فإنها ليست بشيء إذا نُسبت إلى خلايا الذبابة فضلاً عن الذبابة نفسها «يا أيها الناس ضُرب مثلٌ فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب»[(١)].

الروح أدبياً وشعرياً:

إن الإنسان قبضة من طين ونفخةٌ من روح الله، يعيش في مجتمع قد تسوده قيم الحق والخير والعدل، وقد تستبد به الآفات والشرور والأهواء والمطامع. ولأن روح الإنسان تبقى مشدودة إلى عالمها وكينونتها وماهيتها فهي تحن دائماً وتشتاق عدل الله تعالى والملائك حيث لا ظلم ولا حقد ولا ضغينة.

لقد آثر الشعراء والأدباء أن تكون الروحُ مثال التقوى والطهارة والصلاح ولهذا ينطق الحمد الإنساني لله تعالى في نطاق إحساس الإنسان بالعزة أمام الكون كله، والإنسان كله، لأن الله سبحانه لم يجعله محتاجاً إلى أي شيء من أشياء الموجودات، فهي في ذاتها تختزن معنى الحاجة إليه

(١) محمد جواد مغنية، التفسير الكاشف، مج٥، دار العلم للملايين، بيروت، ص ٧٩.

تعالى، بل جعله محتاجاً إليه وحده، لأن كل شيء يُمثل أداة للخالق في إيصال نعمه إلى عباده، فليس لهم دور مستقل في ذلك كله، لأنهم لا يملكون الاستقلال في وجودهم وفي كل مفرداته الصغيرة والكبيرة.

وتلك نعمة تتصل بالسموّ الروحي في معنى الحرية في المضمون المتصل بالتحرر من الحاجة إلى الغير وبالسر الوجودي في الافتقار إلى الله سبحانه، والحاجة إليه في المضمون المتصل بتوحيد العبودية لله.

وتلك هي من مجموع هذه النعم والآلاء الكبرى ـ مواقع الحمد ومواضع الشكر للخالق العظيم، فكيف غذّى الأدب والشعر الذي يُمثل الإنسان، النفس والروح التائقة إلى عالم الملكوت؟.

يقول حليم دمّوس(١):

(مجزوء الكامل)

روحي تحنُّ إلى ظلالِكْ ... وفمي يُحدِّث عن جلالِكْ
سُبحانَك اللّهُم في كونٍ ... يدلُّ على كمالِكْ
الملكُ ملكُك في السما ... واتِ العُلى وهنَا كذلِكْ

(١) حليم دمّوس ١٣٠٥ ـ ١٣٧٧هـ/ ١٨٨٨ ـ ١٩٥٧م.
حليم بن ابراهيم بن جرجس دموس: متأدب، له نظم كثير، في بعضه إجادة. ولد ونشأ في زحلة (بلبنان) وسافر إلى البرازيل، وعاد إلى بلده فشارك في تحرير جريدة «المهذب» واستوطن دمشق بعد الحرب العامة الأولى إلى آخر حياته. وتوفي في مشفى الجامعة الأميركية في بيروت ودفن في جونية (بلبنان) كان مهذب الطبع دمث الخلق... له «ديوان حليم ـ ط» و «المثالث والمثاني ـ ط» من نظمه و «الأغاني الوطنية ـ ط» رسالة و «زبدة الآراء في الشعر والشعراء ـ ط» كراسة، و «قاموس العوام ـ ط» أحصيت فيه أغلاط كثيرة و «رباعيات وتأملات ـ ط» متعدد، و «يقظة الروح ـ ط». خير الدين الزركلي، الأعلام، مج٢، ص ٢٧٠، دار العلم للملايين، ط١١، أيار ١٩٩٥.

أيـنَ السعـادة فـي الـدُّنـى والمـرءُ فـي دنيـاهُ هـالِـكْ
شـوقـي إلـى عـدل المـلائِـكِ لا إلـى ظُلـمِ المـمَـالِـكْ
فـاجعـل حيـاتـي فـي يـديـكَ فكلُّهـا مـن بعـض مـالِـكْ
أنـا مـن أنـا يـا ربّ إنْ قـارنـت قـولـي فـي فعـالِـكْ
أنـا نسمـة مـرّت علـى هـذي الـربـى وعلـى جبـالِـكْ
أنـا مـن ضبـابـك قطعـةٌ بيضـاءُ تـرقـد فـي تـلالِـكْ
أنـا مـوجـةٌ مـن بحـر جـو دك تـرتجـي صـافـي نـوالِـكْ
أنـا نجمـةٌ لمعَـتْ وغـا بَـتْ فجـأةً والليـلُ حـالِـكْ
أنـا رملـةٌ صغـرى تقلِّبُهـا الـرِّيـاحُ علـى رمـالِـكْ
أنـا دمعـةٌ سـالَـتْ علـى خـدِّ الطبيعـةِ مـن زلالِـكْ
أنـا ظـلُّ طيـفٍ عـابـرٍ فـي مهمَـهٍ وعـرِ المسـالِـكْ
يجتـازُ فـي وادي الحيـاة ولا يـرى إلّا المهـالِـكْ
ويخـوضُ فـي بحـرِ المنـى متمسكـاً بعـرى حبـالِـكْ
يـا ربِّ أنقـذنـي سـريعـاً إن أكُـن أهـلاً لـذلِـكْ
إنـي تعبـتُ مـن الحيـاة فهـل أرى بـاهـي خيـالِـكْ
وإذا النُّفُـوسُ تطهَّـرَتْ حنَّـتْ إلـى مـرأى جمـالِـكْ
أنـا أكتفـي سَكَنـاً بقـربِـكَ بيـن شمسِـكَ أو هِـلالِـكْ
يـا حبَّـذا الأرواحُ تُصْبِـحُ فـي الأعـالـي مـن عِيـالِـكْ
هـي حـول عـرشِـكَ كـالمـلائِـكِ عـن يمينِـكَ أو شِمَـالِـكْ
نـورٌ علـى نـورٍ تـدفَّـقَ بيـنَ جنَّـاتٍ هنـالِـكْ
أشهـى مُنـاي ظـلالُهـا فـاجعـل نصيبـي فـي ظِلالِـكْ . . .

تمثل هذه القصيدة «رؤية» لمسار الشعر العربي، الذي عاش أدباؤه

وشعراؤه حالة الصراع بين عالمي الأرض/ والسماء، والمادة/ والروح، والظلم/ والعدل، خصوصاً في الزمن الذي سعى الاستعمار الغربيّ المادي لتسليط نزعة العقل المادّي على الروح الإنسانية، التي نافح عنها الشرقُ، عالم القيم، والمبادىء والدِّيانات والأخلاقيات، ولعلّ العودة إلى التراث الأدبي نثراً وشعراً تمنحنا الكثير ممّا واكبهُ وعايشه هؤلاء الشعراء، الأدباء الناطقون بلسان الأمة والجماعة.

إن الروح الإنسانية هي التي فجّرت في كيان الأدباء ـ لا سيما المسلمين ـ منهم طاقة المسؤولية الكبرى، فالحياة لم تكن ولن تكون لهواً وعبثاً وفراغاً واسترخاءً، بل هي المسؤولية العظيمة حتى في الحزن والفرح، واللذة والألم، والتعب والرّاحة، والفقر والغنى، والعُسر واليُسر، ولذلك كانت الرسالات تجربة للإنسان في مضمون إحساسه بالعبودية، وخضوعه للألوهية، وانفتاحه على التوحيد، وحركة من أجل أن يكون للحياة هدف، وللوجود غاية، في العبادة الخالصة لله تعالى، المنطلقة في خطّ عمارة الكون وإغنائه وتنميته وتطويره.

هذه المبادىء هي التي تصقلُ النّفس لتتحرك في الاتجاه الروحي، لتكون العلاقة علاقة تكامل بين الدين والدنيا، ولتكون لحظات الدعاء لله، والحبّ والشغف به تعالى، والإقرار بمشيئته والخضوع له سبحانه، هي المواقع التي يتحرّك فيها الإنسان، شاعراً وناثراً، وغير شاعر وناثر، نحو الحقيقة المطلقة.

يقول السيد فضل الله:

(على وزن الخفيف)

«أنـــا روحٌ ـ تسمـــو وتهفـــو وتحيـــا الحـــبَّ والخيـــر والضُحـــى بـــٱفتِتَـــانِ

حرَّرَتني نجواك من كلِّ قيدٍ قيّدتني به يدُ السجّانِ
وأفاضتْ عليَّ كلَّ شعاعٍ شعَّ كالنيِّرَاتِ في وجداني
فتجرّدت ـ كالنسيم ـ كلمْحِ الفجرِ كالعطرِ في رُبى لبنانِ
لحظة عشتها مع الطهر ـ يا رب ـ ومنك الطُّهر الذي يغشاني
فكأنّي في جنّة الخُلد أحيا ـ عبر نجواك في ربيع الجنانِ
جنّةُ الحبّ، أن أناجي ـ وتلقاني بقلبٍ يفيضُ بالإحسانِ
أنا أدعوك بالرجاء ـ وتوحي لك كل الرجاء يا من دعاني
هل لنا أن نعيشَ في حلمِ ٱلعفو وننسى مرارةَ العصيانِ
إن تعذب فنحنُ أهلٌ لإنا قد غرقنا في لُجة الكفرانِ
غير أنَّا نراكَ في سُبحاتِ العفو أهلَ الإحسان والغفرانِ
كل ما عندنا اعترافُ الخطايا ورجاءٌ لِلفتة الرضوانِ»[1]

بهذا الفيض، وبهذه الروحية تحركت شعرية السيد محمد حسين فضل الله. ففي قصائد «للإسلام والحياة» و«يا ظلال الإسلام» إتجاهٌ شعريّ روحيّ، كان لتأثيرات المجتمع الذي عاش السيد فيه أبعد الأثر في تكوينه وبلورته. فالنجف حاضرة اللغة والأدب والفقه والدُّعاء والتوسل والرجاء بالله تعالى، ففيها استلهم السيد كل معاني الجلال والعظمة والطهارة والقداسة، فإذا بكل المعاني السامية من الرحمة والمحبة، والاعتراف، والابتهال، والصلاة، والمناجاة، والهوى، والحيرة، والأمل، تتلبس هذا الإنسان الفتى الناشىء لتصقل تجربته بإيحاءات الروح الأدبية الشعرية؛

(١) محمد حسين فضل الله، يا ظلال الإسلام، دار التعارف للمطبوعات، ص ١٠٠ و١٠١.

يقولُ السيِّد:

(على وزن الخفيف)

«ربّ - إنّي وفي إنتفاضاتِ آهاتي جراحٌ، وفي حشَاي نُصولُ
أتلظّى بين الجحيم وفي روحي نداءٌ إليك كيفَ السَّبيلُ؟
تاهَ بي عالمي إلى حيثُ لا أدري فدنيايَ وحشةٌ وذهولُ
ودعاءٌ، في هدأة الليل يستهديك والدرب موحشٌ مجهولُ
كيف أسمو إلى الحقيقة حُراً وكياني مُقيَّدٌ مغلولُ»(١)

ولا زال نداء «السيد» كيف السبيل إلى الله تعالى في زمن نأت فيه القيمُ والمثلُ والتعلّق بالله، والاستمساك بعروته الوثقى؟.

---

(١) محمد حسين فضل الله، قصائد للإسلام والحياة، المؤسسة الجامعية للنشر والتوزيع، بيروت، ط١، ص ١١.

الباب الأول
السيد فضل الله والشعر

«المرحلة الشاعرية»

«إنَّنا نعرف أنَّ أدبَ النجف تركَ تأثيره على الكثير من التجربة الشعريّة في بعض المواقع الأدبيّة الثقافية في لبنان خصوصاً جبل عامل».

أ ـ الطفولة الشاعرة:

لم تكن طفولة السيد محمد حسين فضل الله[١]، مرحلة زمنية عاشها

(١) ولد سماحة آية الله العظمى السيد محمد حسين فضل الله في النجف الأشرف في ١٩ شعبان ١٣٤٥هجرية، الموافق لسنة ١٩٣٥ ميلادية، من عائلة آل فضل الله التي تنتسب إلى الإمام الحسن بن علي بن أبي طالب(عليهما السلام) وترتبط بأشراف مكة الحسنيين، والده المغفور له آية الله السيد عبد الرؤوف فضل الله (رحمه الله).
انفتح على واقع الأمة الإسلامية باكراً، واطلع على الأجواء الأدبية والفكرية والسياسية السائدة عن طريق الصحافة العربية، وشارك في النشاطات الأدبية والشعرية في الأوساط الثقافية في النجف الأشرف، وقد بدأ نظم الشعر وعمره عشر سنوات..
شارك في تأسيس الحركة الإسلامية في العراق، كما وشارك مع مجموعة من العلماء في الإشراف على مجلة «الأضواء» التي كانت تصدرها جماعة العلماء في النجف الأشرف ابتداءاً من عام ١٣٨٠هـ، وكان يكتب افتتاحيتها الثانية تحت عنوان «كلمتنا» فيما كان المفكر الإسلامي الكبير الشهيد السيد محمد باقر الصدر يكتب افتتاحيتها الأولى تحت عنوان «رسالتنا»...
زار سماحته العديد من البلدان الإسلامية والأجنبية محاضراً وداعياً إلى الله، كالولايات المتحدة الأميركية وبريطانيا وفرنسا والهند والجزائر وإيران وغيرها، للمشاركة في المؤتمرات الإسلامية الفكرية.
لسماحته عشرات المؤلفات الإسلامية والفقهية والسياسية والشعرية تربو على المئة، من أبرزها «قضايانا على ضوء الإسلام»، «الحوار في القرآن»، «الإسلام ومنطق القوة»، «خطوات على طريق الإسلام»، «حديث عاشوراء»، «دنيا المرأة»، «الحركة الإسلامية هموم وقضايا»، «في آفاق الحوار الإسلامي المسيحي»، «فقه الحياة»، خطاب الإسلاميين والمستقبل».. بالإضافة إلى ثلاثةِ دواوين شعر: «يا ظلال الإسلام»، «قصائد للإسلام والحياة»، «على شاطىء الوجدان» بالإضافة إلى تفسير =

وفق مفاهيم الأطفال التي يعرفونها، خصوصاً أنه بدأ هذه الطفولة في مدينة النجف الأشرف المقدسة، حيث تحسس منذ بداية حياته للأجواء الدينية، التي كانت تتمثل في المناسبات، والاحتفالات الخاصة كوفيات الأنبياء والأئمة، والأعياد الدينية، التي لا بد وأن تترك تأثيرها على مشاعر الطفل، بشكل أو بآخر.

فطفولته كانت مختلفة عن تصرفات وحياة الأطفال الآخرين. وبما أنه قد اختزل في نفسه الحالة السلبية العنيفة ضد أسلوب التربية والتعليم في النجف الأشرف، خصوصاً عندما أدخل إلى «الكتاتيب» التي كان يشرف عليها بعض الشيوخ الكبار في السن، من أجل تعليم القراءة والكتابة، وتعليم القرآن، ولأن أسلوب التعليم كان اسلوباً عنيفاً يحطم نفسية الطالب الطفل، الذي كان يخطىء خطأً بسيطاً، فيضعه الشيخ في «الفلقة» ويبدأ بضربه تحت عيون رفاقه من الطلاب، فإنه ٱنتقل بسرعة إلى مدرسة أنشأتها جمعية دينية هي «جمعية منتدى النشر» على الطريقة الحديثة، وهذا ما أتاح له الانفتاح على الثقافة، يقول السيد: «لعل الأجواء التي كنت أعيشها، ضغطت على أحلامي بشكل تلقائي، فوجهّتني إلى أن أكون عالماً دينياً في المستقبل، ولكنني كنت أتحسس في نفسي أن لا أكون عالماً دينياً تقليدياً، لأنني انفتحت مبكراً على المجلات المصرية، والمجلات اللبنانية، وعلى الصحف العراقية، وغيرها، حيث أستطيع أن أعتبر أن طفولتي الثقافية، بدأت في سن

= منهجيّ موضوعيّ للقرآن الكريم يحتوى أربعة وعشرين مجلّداً. قد قام بعض أفاضل طلابه بكتابة تقريرات أبحاث سماحته الفقهية كـ«رسالة في الرضاع»، «القرعة والاستخارة»، «كتاب النكاح»، «كتاب الجهاد»، «اليمين والعهد والنذر».. إضافة إلى آراء سماحته الفقهية الواردة في كتابه «المسائل الفقهية» بجزأيها الأول والثاني وأحكام الشريعة و «مناسك الحج».. ورسالته الفقهيّة «فقه الشريعة» بأجزائها الثلاثة والكثير من الكتب التي تناولت سماحته بالدراسة والتّحليل، والبحث...

التاسعة أو العاشرة»[١].

إن التأكيد على أن المرحلة الثقافية قد بدأت مبكرة عند السيد الناشىء، تقودنا إلى أن طفولته فيها الكثير من مراحل الأحلام، والرؤى والتطلعات والأحداث، التي تركت أثرها على الشاعر النابض، يقول السيد: «كنتُ أقرأ في ذلك الوقت مجلة «المصوّر» المصرية، ومجلة «الرسالة» التي كان يصدرها حسن الزيات، وربما أُلمُّ بمجلة «الكاتب المصري» التي كانت تأتي إلى العراق بتنوعات متناقضة تختلف أوضاعها، لأننا لم نكن نقرأ قراءة موجّهة»[٢].

إن القراءة التي انتهجها السيد في بداية طفولته، جعلته يتوق إلى الأدب والشعر، والانفتاح على العالم المعاصر «انفتحت على العالم المعاصر في هذا المجال مبكراً، وهذا هو الذي أوحى إليّ وإلى بعض زملائي إصدار مجلة خطية باسم «الأدب» كنا نحرّرها في سن العاشرة، أو الحادية عشرة في ذلك الوقت، وكنا نكتب عدداً كلما زاد مشترك، وكنا نعيش هذا الهاجس في أنفسنا»[٣].

لم يكتف السيد بإصدار المجلة الخطية، وتحريرها في تلك السن المفاجئة، بل سعى ليكون له مكانة بين الشعراء من خلال تجاربه الشعرية الأولى، فكيف كانت بداية الطفولة الشاعرة؟

لقد كان أول نشاط للسيد فضل الله، إصدار صحيفة خطية، وشارك في النجف الأشرف بالنشاط الثقافي، وانتخب عضواً في المجمع الثقافي

(١) علي سرور، العلامة فضل الله وتحدي الممنوع، ص ٢٧.
(٢) علي سرور، العلامة فضل الله وتحدي الممنوع، ص ٢٨.
(٣) علي سرور، العلامة فضل الله وتحدي الممنوع، ص ٢٨.

«لمنتدى النشر» وحضر الحفلات الأدبية حيث كانت تلقى القصائد التي تتناول القضايا الاجتماعية والسياسية، حتى كان للطفل الناشِىء، الذي بدأ رحلته الثقافية مبكراً، حضوره الشعري، يقول السيد: «إن أول زيارة لي إلى لبنان، كانت سنة ١٩٥٢، حيث وصلت إلى بيروت آنذاك، في أجواء وفاة الشخصية الدينية الشيعية الكبيرة، سماحة العلاّمة السيد محسن الأمين. وقد شاركت في إحياء ذكرى الأربعين له، التي أقيمت في بيروت، وتحديداً في منطقة قصقص، حيث ألقيت قصيدة في هذا الحفل، الذي ضم كبار العلماء والكتّاب والشعراء، لرثاء العلامة الأمين، قالت عنها الصحف اللبنانية آنذاك، أنها أثارت مشاعر الجماهير، لأنها لم تكن قصيدة رثاء تقليدية، بل كانت تعالج كثيراً من القضايا، التي كانت مطروحة في الساحة يومذاك، وكانت تشير إلى الاستعمار الفرنسي، كما كانت تشير إلى الوحدة الإسلامية، وإلى مشاكل الشباب التي كان يعاني منها، وخاصة البطالة والهجرة والأزمات النفسية»[1].

إن قصيدة «دمعة على المحسن الأمين» هي أولى وقفات السيد فضل الله في بداية طفولته الشاعرة ومنها:

(مجزوء الكامل)

مهـــــلاً أبــــا الحســـــنِ الـــــزكــــيّ فقـــــد ظمْئِنَـــــا للــــــورودِ
هـــــذا المعيـــــنُ. وكنـــــت تنهلنـــــا بــــه عــــذب النَّشيـــــدِ
وتبـــــثّ منــــه اليقظـــــةَ الحمـــــراءَ فــــي الجيـــلِ الجـــديـــدِ
وتثيـــــرُ منـــه عـــزائـــمَ الأحـــــرارِ فــــي الـــوطـــنِ الشَّهيـــدِ
يــــا منقـــذاً همـــمَ الشبـــابِ مــــن الجهـــالـــةِ والــــرقـــودِ

(١) علي سرور، العلامة فضل الله وتحدي الممنوع، ص ٥٣.

هــــذا الشبـــــابُ وهـــــل ... يُـرادُ سِـواه لـلأمـر الشَّـديـدِ
ويحطِّــــمُ القيــــدَ الثقيــــل ... ونيــــر محكمــــة القيــــودِ
فـــالمسلمـــون لبعضهـــم ... فـي الـدِّيْـنِ كـالصَّـرْحِ المَشيْـدِ(١)

لكنها ليست أولى تجاربه في نظم الشعر، فقد سبقتها تجربته الشعرية الأولى، «كانت أول تجربة شعرية في سن العاشرة من عمري، وقلت في أول قصيدة:

(على وزن الطويل)

فمـن كـانَ فـي نظـمِ القـريـظ مفـاخـراً ... ففخـري طُـراً بـالعلـى والفضـائـلِ
ولســت بــأبــاء الأبــاةِ مفــاخــراً ... ولسـت بمـن يبكـي لأجـل المنـازلِ
فـإن أكُ فـي نيـل المعـالـي مقصـراً ... فـلا رجعـت بـاسمـي حـداةُ القـوافـلِ
سـأنهـجُ نهـجَ الصـالحيـن وأرتـدي ... رداءَ العلى السَّامي بشتى الوسائل
وأجهــدُ نفســي أن أعيــش معــزَّزاً ... وليـس ابتغـاءُ العـزِ سهـلَ التنـاولِ(٢)

تلـك كـانـت البـدايـة، ولعـل الطفـولـة التـي يحيـاهـا الإنسـان أحـلامـاً وخيالات، ورؤى، شكّلت دائرة الضوء التي لا زال السيد الشاعر يختزنها في عمق وجدانه، خصوصاً أن النجف تعد واحدة من جامعات العالم الإسلامي التي تخرّج الكثيرون منها سواء على الصعيد الفقهي الديني أم الأدبي والشعري والفني.

يقول السيد: «في النجف البلد الذي يقف على كتف الصحراء فأنت، عندما تولد هناك، وقد ولدتُ هناك، تشعر بأنك تعيش في إحساسك ما

(١) محمد حسين فضل الله، قصائد للإسلام والحياة، ص ٢٠٦.
(٢) علي سرور، العلامة فضل الله وتحدي الممنوع، ص ٢٨.

يقرب من اللانهاية وإن كانت الحياة لا تختزن اللانهاية في طبيعتها. وفي الكتف الآخر الذي يقف عليه النجف تجد القبور تمتد مدى البصر، فوادي السلام هو المقبرة التي يصدّر أشخاصها إليها الكثيرون من داخل العراق وخارجها حتى رأينا شاعراً عراقياً كبيراً كالشيخ علي الشرقي[(١)] يقول وهو يتحدث عن بلده:

فـــواردات بلـــدتـــي جنـــائـــزُ وصـــادرات بلـــدتـــي عمـــائـــمُ[(٢)]

فإذا ما كانت ولادة السيد في النجف الأشرف في العراق، فإنه لا بد أن يكون لهذه البيئة التاريخية القديمة، والتي تحتوي مقام الإمام علي بن أبي طالب(ع) حيث يتوجه الناس للصلاة، والدعاء، والزيارة والتبرك، بالقرب من مقام الإمام علي(ع)، الأثر على نفسية الشاعر الناشىء الذي كان يختزن أيضاً هذه الأجواء الروحيّة ويتمثّلها في المناسبات الشعرية والدينية. حتى تحوّلت إلى شعر عكس إلى حد بعيد تطلعات السيد الَّتي أملها وعاشها وتفاعل معها روحياً وإنسانياً.

لقد وعى السيد فضل الله الحالة الشعرية منذ طفولته، حتى أنه نظم الشعر في العاشرة من عمره، شعراً تقليدياً تأثر به من خلال المجالس الأدبية التي كانت تعقد في النجف الأشرف في كل مكان يردد المآثر ويذكر الفضائل، حتى

(١) علي الشرقي، ١٣٠٩ ـ ١٣٨٤هـ، ١٨٩٢ ـ ١٩٦٤م، علي بن جعفر الشرقي، من آل خاقان: قاض عراقي، من الكتاب الشعراء، ولد في «الشطرة» وتعلم في النجف وعُيِّن قاضياً لمحكمة البصرة ١٩٣٣ واختير رئيساً لمجلس التمييز الشرعي الجعفري ١٩٣٤ ـ ١٩٤٧ وأصبح من أعضاء مجلس الأعيان، من كتبه المطبوعة: «الأحلام» خواطر ومذكرات، و «ذكرى السعدون» و «العرب والعراق» و «عواطف وعواصف» ديوان شعره، معجم الأعلام، ص ٢٦٩ ج الرابع.

(٢) جزء من حوار، بدعوة من ملتقى الثلاثاء الثقافي، ١٣/ ١٠/ ١٩٩٣.

يستحوذ على عقول الجالسين ممن كان يتابع هذه المجالس ومنهم السيد الشاعر، يقول: «ثم تمتد وأنت تسمعُ منذُ بدأت تعي الكلمات والناس، ويموتُ عالمٌ كبيرٌ وإذا بالشعر ينطلقُ هنا وهناك فالفواتِحُ ـ وهذا هو التعبيرُ عن مجالس التأبين ـ تحفل بالشعراء الذين يتنوعون بين شعر تقليديّ تشعر بأنك تعيش معه في العصر الجاهلي، وبين شعرٍ مخضرم تشعر أنك تعيش معه العصر العباسي، وبين شعر تجدُ فيه ملامح الجدّة، جدّة شوقي، وخليل مطران وبشارة الخوري. تلك الأسماءُ التي كانت تُتَداولُ وتسمعُ اسم الجواهري والشرقي والشبيبي، وما إلى ذلك من الأسماء التي كانت تحكم الوعي الأدبي هناك، تسمعهم وهم يلقون الأشعار، قد لا تستطيع أن تستوحي الكثير، ولكنك تشعر أن الشعر يدخل في مسام إحساسك، وتشعر أنه يقتحم عليك طفولتك، فتتحسس الشعر في الطفولة، وعند ذلك تنشأ في عمقك طفولة شاعرة، شاعرة في الحالة الجنينية للشعر»[1].

هل دخل الشعر مسام السيد؟ وهل اقتحم عليه طفولته الحالمة، فحوّلها من طفولة لاهية لا مسؤولة؟ إلى طفولة شاعرة، كان للبيئة الأثر الكبير في تنميتها ورفدها بالإيحاءات والتجارب؟ وإذا ما كانت النجف المكان الذي شهد الشاعر النور فيه، وسمع شعره، وحضر مجالسه، وفتح قريحته على الشعر، فهل كان لهذا المكان أثره في تكوين شخصيته الشاعرة؟

ب ـ البيئة الشعرية:

يصرّح السيد محمد حسين فضل الله عن أهمية البيئة التي تركت أثرها في مجال بناء شخصيته الشعرية. ولا يكتفي بإبراز أهمية النشأة في النجف

---

(١) جزء من حوار، بدعوة من ملتقى الثلاثاء الثقافي، ١٣/ ١٠/ ١٩٩٣.

الأشرف، التي تضم الجامعة الدينية الإسلامية التاريخية، التي يتخرج فيها المسلمون الشيعة منذ أكثر من ألف سنة. فلا يخفى أن من خصائص النجف أنها فيما كانت تضم المركز الإسلامي الثقافي الفقهي الفلسفي، كانت في الوقت نفسه تمثل المدينة الشاعرة، التي انطلق منها كبار شعراء العراق، واستلهموا منها التجارب الشعرية المتنوعة كما أنها كانت ذات تأثير في الشعراء غير العراقيين، الذين درسوا الفقه وتخرّجوا من معاهد النجف مراجع وعلماء، ومنهم السيد محمد حسين فضل الله الذي استوحى مما كان يعيشه جواً شاعرياً، وتجربة فرضت نفسها عليه، فتنفسها بعمق. يقول الشاعر السيد: «نستطيع أن نقول ان النجف كانت تتنفس شعراً، وكان الشعر هو العنصر الذي يعبِّر به الناس أو الشعراء عن مختلف أفكارهم في مناسبات الحزن والفرح، وقد كانت التقاليد تفرض أنه لدى وفاة شخص كبير يتسابق الشعراء إلى تأبينه، إضافة إلى أن مناسبات الفرح كان تفسح المجال للإخوانيات لكي تعبّر عن مشاعرها بطريقة شعرية، وهكذا كانت المناسبات الوطنية والمناسبات الدينية تأخذ مجالاً واسعاً في الحركة الشعرية هناك، مما يجعل الإنسان يتنفس شعراً»[١].

إن البيئة التي عاش السيد فيها، كانت تعيش التقاليد التي أوجبت عليه، وعلى الشعراء في المجتمع، أن يتحركوا من خلال الشعر، ليعبروا عما كانوا يتحسسونه من ضرورات: فكرية، وثقافية، وقضايا اجتماعية. فالشعر إذاً كان لغة البيئة اليومية، يقول السيد متابعاً: «وهكذا تسمع فتشعر أن اللحن الشعري على طريقة الخليل أصبح حالة غنائية شعورية في داخلك، وتشعر أن الكلمات تتكرر في وعيك ووجدانك فتلتقطها، تحفظ كلمة هنا تضمها إلى

(١) الموقف العربي، العدد ٤٦٦، ٢٥/٣/١٩٩١.

كلمة هناك، ثم تنطلق وتسمع وتسمع وإذا بك تشعر نفسك في الأجواء الثقافية التي تمثّل عقلك آنذاك إن كان للطفولة عقل، تشعر أنك تتحدث شعراً، كيف ذاك؟ أنت لم تتكلّف كتابة ولم تسوّد صفحات وإنما كانت المسألة شعراً يفرض نفسه عليك تماماً كما لو كنت تتكلم ببساطة»[١].

لم يكن أمام السيد إلّا أن ينظم شعراً يفرض نفسه عليه، فهو لم يملك سبيلاً لمقاومة الإيحاء الشعري، وممارسة التجربة الشعرية، فإذا به يجد في شتى المناسبات فرصة لإظهار ما في النفس من شجون، فجّرتها بيئة النجف الأشرف، وارتباط السيد الشاعر بعائلة شعرية حيث لم يجد نفسه إلا وهو يمارس الشعر، من خلال الرواسب الشعرية، ومن خلال الجوّ الشعري الذي يحيط به.

لقد كانت البيئة هي التي تحرك التجربة، وتحثّ على فتح الآفاق، «فالنجف، كانت هي التي تفتح الآفاق وتحرك التجربة، وكان ذلك يمتد حسب امتداد النجف في كل بلد في العراق، وإذا قرأنا أعداد العرفان في بدايات صدور مجلة العرفان في صيدا فإننا نعرف أن أدب النجف ترك تأثيره على الكثير من التجربة الشعرية في بعض المواقع الأدبية الثقافية في لبنان خصوصاً جبل عامل»[٢].

هكذا عد السيد البيئة صانعة الحالة الشعرية، وفاتحة الآفاق الإنسانية، ومحركة التجربة، وقد تترك هذه البيئة أثرها بمقدار ارتباط الناس بها، لا سيما من يملك قابلية الشعر، فإذا ما كان السيد يملك هذه الأسس، فقد صنعته البيئة بما تشتمل عليه «شاعراً»، وأوحت إليه بما ورثته من تجارب

(١) جزء من حوار، بدعوة من ملتقى الثلاثاء الثقافي، ١٣/ ١٠/ ١٩٩٣.
(٢) جزء من حوار، بدعوة من ملتقى الثلاثاء الثقافي، ١٣/ ١٠/ ١٩٩٣.

الشعراء القدامى والمحدثين، فهو لم يتكلّف الشعر، ولم ينظمه لأنه يريد ذلك وإنما فرض الشعر نفسه بإيحاءاته ودلالاته وتجاربه عليه، حتى أنه كان يكتب القصائد التي قد تزيد على المئة بيت كما لو كان يحفظها.

يقول الشاعر: «لذلك من يملك قابلية الشعر تصنعه النجف شاعراً لأن الشعر يحاصره من بين يديه، ومن خلفه، وعن يمينه وعن شماله. هكذا انطلقت التجربة، وقد كانت تجربتي الشعرية في أغلب مواقعها تنطلق فيما يشبه الإيحاء الذي يختزنه الإنسان في الداخل، لا أذكر أنني عانيت في نظم قصيدة فالشعر لم يكلّفني جهداً كبيراً في كل التجارب الشعرية، أذكر في ديوان «يا ظلال الإسلام» أنني كنت أكتب بعضه وأنا في سفرة الحجّ في الرباعيات التي تتصل بأجواء الحج وربما تزيد على الأربعين أو الخمسين رباعية كنت أكتبها وأنا في السيارة كما لو كنت أحفظ شيئاً أخاف أن يفلت مني»[(١)].

ومن هذه الرباعيات مطولة «من وحي الحج» وفيها لحظات روحيّة خالصة:

(على وزن الخفيف)

... «ربِّي إني هنا، وروحي على وحيكَ تغفو في نشوةِ الأنبياءِ
أنا أهفو إليكَ، من لي بريّاكَ، بنبعِ الحقيقةِ البيضاءِ
أنا أحيا حبَّ البَرِيَّةِ في قلبي، وأحنو على رؤى البأساءِ
غير أني أرنو إليك فهب لي ـ دينك الحقُّ ـ في إنطلاقِ الضياءِ
يا ظلالَ الإسلامِ: أين الرؤى البيض.. رؤى الوحي أينَ وقعُ خطاها

(١) جزء من حوار، بدعوة من ملتقى الثلاثاء الثقافي، ١٣/ ١٠/ ١٩٩٣.

أيـن «جبـريـلُ» يحمـل الـوحـي ريـانـا، فيـروي سهـولنـا وربـاهـا
يا نبيّ الإسلام (إقرأ)... فهذا الوحي يهدي الحياةَ في مسرَاها
إنــه رحمــةُ الإلــهِ. فمــن شــاءَ حيــاةً، فليحتضــن نجــواهــا[1]

ج ـ نظمه للشعر:

لقد مثلت الطفولة الأولى في حياة السيد محمد حسين فضل الله ومضات الشاعرية التي تفتحت مبكراً، وإذا ما أتيحت لهذه الموهبة البيئة المناسبة، فهل عاند السيد هذه الموهبة وأعاقها أم تجاوب مع إلحاحها؟

يقول السيد: «بدأت نظم الشعر في العاشرة من عمري وكانت التجربة ناجحة بحسب طبيعة الأسلوب الشعري المطروح في تلك المرحلة في النجف. ثم انطلقت في ممارسة الشعر في الآفاق الروحية الوجدانية، والاجتماعية والسياسية»[2].

ولقد بقيت ذاكرته تحفظ بعض أبيات صباه الأولى ففي العام ١٩٤٨ نظم قصيدة في فلسطين لا زال يردّد منها بيتين:

(على وزن الرّمل)

دافعــوا عــن حقِّنــا المغتَصَــبِ فــي فلسطيــنَ بحــدّ القُضُــبِ
واذكــروا عَهْــدَ صــلاحٍ حينمــا هــبَّ فيهــا طــارِداً الأجْنَبِــي

وتعــد قصيــدة «دمعــة علــى المحســن الأميــن» الأولــى فــي هــذا المجــال، والتــي نظمهــا فــي ذكــرى رحيــل العــلاّمــة المــرجــع

(١) محمد حسين فضل الله، يا ظلال الإسلام، ط١، ص ٩١.
(٢) مجلة الحسناء، العدد ١٤٥٤ ـ ١٤٥٥، ٨/ ٢/ ١٩٩٠.

«محسن الأمين»(١) حيث أوحى له حفل الأسبوع بقصيدة بلغت الستين بيتاً ألقاها آنذاك في حفل الأربعين ومنها:

(على مجزوء الكامل)

فـــي ذمَّـــةِ القـــدرِ المبيـــدِ ... روحٌ تسيـــرُ مـــع الخلـــودِ
روحٌ كمـــا رف النسيـــم ... أرقُّ مـــن لحـــنِ القصيـــدِ
وألـــذ مـــن روحِ المنـــى ... لطفـــاً علـــى طبـــع الـــوجـــودِ
وأشـــدُّ مـــن صـــم الصفـــاةِ ... صـــلابـــةً، ومـــن الحـــديـــدِ

(١) محسن الأمين: ١٢٨٢ ـ ١٣٧١هـ = ١٨٦٥ ـ ١٩٥٢م، محسن عبد الكريم بن علي بن محمد الأمين الحسيني العاملي ثم الدمشقي: آخر مجتهدي الشيعة الإمامية في بلاد الشام، له شعر واشتغال بالتراجم، ولد في قرية شقراء (من أعمال مرجعيون بجبل عامل) وتعلم بها ثم في النجف (بالعراق) وعاد إلى سورية فاستقر في دمشق (سنة ١٣١٩هـ) وعمل في التدريس والوعظ ثم الإفتاء، وتوفي في دمشق، كان مكثراً من التأليف: يجمع ما تفرق من أثار الإمامية أو سيرهم ويؤلف في فقههم، ويذبّ عنهم، ويناقش وقد يهاجم، من كتبه «أعيان الشيعة ـ ط» نشر منه ٣٥ مجلداً ولم يتم، وطبع منه بعد وفاته إلى السادس والخمسين، و «الحصون المنيعة، ط» رسالة في الرد على صاحب المنار، و «الرحيق المختوم ـ ط» ديوان شعره، مما نظمه قبل سنة ١٣٣١هـ، و «تحفة الأحباب في آداب الطعام والشراب ـ ط» رسالة، و «أبو نواس، الحسن بن هاني ـ ط» و «أبو فراس الحمداني ـ ط» و «دعبل الخزاعي ـ ط» و «كشف الارتياب ـ ط» تحامل فيه على حنابلة نجد، و «معادن الجواهر ـ ط» ثلاثة أجزاء في مباحث مختلفة، و «المجالس السنية في مناقب ومصائب العترة النبوية ـ ط» خمسة أجزاء، و «لواعج الأشجان ـ ط» في مقتل الحسين ومراثيه والأخذ بثأره، و «الدر الثمين ـ ط» في الفقه، و «الدرر المنتقاة ـ ط» سلسلة مدرسية في ستة أجزاء صغيرة و «مفتاح الجنات ـ ط» في الأدعية والصلوات والزيارات، و «نقض الوشيعة في نقض عقائد الشيعة، لموسى جار الله ـ ط» وهو آخر ما نشر من كتبه، وأصدر نجله الأستاذ حسن الأمين سنة ١٣٧٣هـ كتاب «السيد محسن الأمين حياته بقلمه وبأقلام آخرين» وفيه ما يفيد الرجوع إليه في سيرته ومواقفه الوطنية أمام الاستعمار الفرنسي».
معجم الأعلام، الزركلي، ج٥، ص ٢٨٧.

تهفـــو إلـــى الحـــقّ الصـــراح ولا تميـــلُ إلـــى الجمـــودِ
تجـــري علـــى ضـــوءِ الحيـــاةِ مـع القـديـم، مـع الجـديـدِ»...[١]

إن الموضوعات الشعرية كانت في البدء ما فرضتها البيئة النجفية: كالمناسبات الدينية، والإخوانيات، والنكت، والنظم، والمناسبات الاجتماعية، وأما إطلالة الشاعر الناشيء على شعر المناسبات، فكانت تمثّل في تقاليدها جواً شعرياً، عاشه السيّد وتنفّسه الناس، حتى أنّ نظم الشعر في بدايات إطلالة السيد الشعرية، كان يتضمن ما احتوته بيئة النجف من ذكر المجالس الأدبية، وطرق التدريس القديمة.

يقول السيد: «أذكر شاعراً عراقياً ـ ما زال موجوداً حتى الآن ـ وهو الدكتور مصطفى جمال الدين[٢] له قصيدة رائعة في تأبين الشيخ المرجع محمد رضا ياسين، في مجملها كان ينقد فيها الطريقة التي كانت تنقل طريقة التدريس في النجف، أي الطريقة القديمة وما زلت أحفظ منها بعض الأبيات. يقول:

(على وزن البسيط)

فـواقـع الحـال مـرٌّ والفتـى حـذِرٌ منـك وقـد يطلـى مـن كـان يغـرِقُـهُ
فهـل أرى جمعكـم يهتـزّ منـه كمـا في الحقل مرّ الصدى فاهتزَّ أجمعهُ
وهـل تكـونـون مـن مصـر وأزهـرهـا كمـا يكـون مـن السلسـال منبعـهُ
أولا فنحـنُ أنـاسٌ عمـرُنـا سفـهٌ إنْ لـم يكُـن بـأتـى زيـدٌ نضيّعـهُ»[٣]

ولا يقف الأمر عند هذا الحد، فالموضوع الشعري يصبح مجال أخذ

---

(١) محمد حسين فضل الله، قصائد للإسلام والحياة، ص ٢٠٥.
(٢) توفي في دمشق منذ سنوات قليلة.
(٣) صحيفة الديار البيروتية، ٢٥/ ٢/ ١٩٩١.

وردّ وجدل، ونقاش، وموازنة، من قبل الشعراء الآخرين.

كل ذلك دفع السيد إلى وعي مكانه بين الشعراء، فأحس بذاته الشاعرة، وبتلقي الجمهور لشعره إلى جنب الشعراء الكبار، فأكبّ على قراءة الشعر، وسعى إلى معايشة الحالة الشعرية التي كانت سائدة، ووفق الأسلوب الذي كان مطروحاً، وهذا ما حثّ السيد فضل الله على عدّ تجربته الشعرية إيحاءاً تلقاه بكل جوارحه، ووعاه شكلاً ومضموناً. فهل أن الإيحاء الذي ذكره السيد قد ترك أثره المباشر على تنوّع قصيدته في الشكل الشعريّ؟

د ـ التجربة الشعرية:

لقد كانت تجربة السيد محمد حسين فضل الله الشعرية تجربة ناجحة ـ كما عدّها ـ لا سيما أنها لم تتجاوز الأسلوب الذي كان مطروحاً في تلك الفترة على الساحة الأدبية، وعلى رغم انطلاق هذه التجربة من كل الجوّ السائد في منتصف الأربعينيات. وإذا ما تركت النجف تأثيرها على الكثير من التجارب الشعرية، ومنها تجربة السيد التي كانت تنطلق فيما يشبه الإيحاء الذي اختزنه الشاعر السيد في الداخل، فإن بدايات هذه التجربة الشعرية كانت تقليدية، يقول السيد: «لقد عشت التجربة الشعرية بكل انفتاحها، فقد كنت أقرأ الشعر القديم كما كنت أقرأ الشعر الحديث. ثم عندما انطلقت التجربة الشعرية في تطوير شكل الشعر على ما يسمى بالشعر الحر في الخمسينيات...

كنت أتابع التجربة وقد شاركت في عدة تجارب في الشعر الحرّ لأنني لا أؤمن بأن على الشعر أن يتجمّد في الأوزان التي جرّبها الشعراء الأقدمون، لأنهم كانوا ينطلقون في مسألة الوزن من موسيقى معيّنة عاشت في تجربتهم

الشعرية، ويمكن للشعراء الآخرين أن يستحدثوا أوزاناً جديدة، ولكنّي أتصور أن من الضرورة أن تبقى للشعر موسيقاه»(١).

وتعد قصيدة رسالة إلى المريخ إنجازاً إبداعياً، فكرة وأسلوباً في تلك الفترة ومنها: (على وزن الرّمل)

من هنا.. من أرضنا هذي الشقيّةْ
من حياة تتلّوى في عروق الأبديّةْ
وصدى يخنق بالعسف صباحَ الأريحيّةْ
من هنا...
من خافقٍ يهفو ومن روحٍ ترفُّ
وكيان قلق، يطغى به.. جورٌ وعسفُ
والتفاتات غد.. يحتضنُ النور ويهفو
من هنا
من أرضِنا هذي الرسالةْ
لسماءٍ
حمل الحبّ بها خيرَ رسالةْ
لذرى المرّيخ
حيث الوحي يرتادُ ظلالهْ...
حيث صمتُ الرُّوح يرعى بنجواه جلالهْ...(٢)

هذه هي الروح التي ترعى وتحفظ جلال الوحي الذي شكل قمة الإبداع في التجربة فالسؤال: ممّ تنطلق تجربة السيد الشعرية؟

(١) مجلة الدولية، العدد ٣٩، ٢٢/٢/١٩٩١.
(٢) محمد حسين فضل الله، قصائد للإسلام والحياة، ط١، ص ١٢٩.

تنطلق تجربة السيد الشعرية من نقطتين هامتين:

أ ـ الموروث الشعري، الذي اختزنه من خلال الجو الشعري السائد في النجف الأشرف، وقراءاته للشعراء القدامى، حيث انفتح على تجاربهم الشعرية المتنوعة والمختلفة.

ب ـ التجديد الشعري، الذي واكبه من خلال الحداثة وتيارها، حتى أنه لم يكتف بالقراءة والمواكبة، بل شارك في أواخر الخمسينات في تشكيل أسرة للأدب، اسمها «أسرة الأدب اليقظ» التي حاولت أن تجدد شعر النجف، وتطور أساليبه، لأن الشعر تجربة حيّة متحركة لها موسيقاها الخاصة، وهي تجربة عاشها، ومارس كل أشكالها التقليدية والمحدثة.

إن اهتمام السيد بموسيقى الشعر، التي لا بد أن تبقى وإن تم استحداث أوزان جديدة قد جعلته يقارن بين التجارب الشعرية التي واكبها والتجربة الجديدة، يقول الشاعر: «مشكلة التجربة الجديدة التي أصبحت تشمل الشعر العراقي ومنه التجارب الموجودة في النجف، هي أن الشعر فقد موسيقاه، كما فقد الوضوح»[١].

إن حديث الشاعر، عن ضرورة الموسيقى في الشعر التقليدي أو الحر، يقودنا إلى فهم السيد للشعر ونظرته إليه خصوصاً أن نظرته الشعرية لم تختلف خلال مرحلتي الشباب والكهولة.

هـ ـ مفهوم السيد فضل الله للشعر:

إن للشاعر مفهوماً خاصاً للشعر، خصوصاً أن الشعر كان المنفذ الوحيد

(١) صحيفة الديار، مقابلة أجريت مع الشاعر، ٢٥/ ٢/ ١٩٩١.

الذي وجد السيد فضل الله نفسه فيه، بعيداً عما يثار في جامعة النجف من مسائل فقهية ـ دينية وما فرضته تلك البيئة من عادات وتقاليد جعلت السيِّد الشاعر يرى في الشعر إحساساً بالحياة، ودفقة من شعاع تنفث الوعي، وإنساناً ينفتح على وعي نفسه ووعي الكون والحياة.

يقول السيد فضل الله: «إن الشعر يعني لي الإحساس بالحياة بطريقة موسيقية في الكلمة وفي الوزن وفي الاستغراق بجمالات الحياة»[(١)].

لقد عد الشاعر الشعر إحساساً بالحياة، لكنه الإحساس المقترن بالموسيقى، سواء في الكلمة أم في الوزن، ولا شك أن هذا يقودنا إلى ظاهرة «الرمزية» التي يلتقي السيد معها في الموسيقى ويفترق عنها في وعي النفس والحياة. «والشعر هو الإنسان عندما ينفتح على وعي نفسه وعلى وعي الكون والحياة»[(٢)] فهل ينتمي السيد إلى المذهب الرمزي؟ لكنه يبدد لنا هذه المقولة بأنه ينفتح على وعي نفسه، لا بالإيحاء إلى بواطن النفس وإثارته.

ويعد السيد محمد حسين فضل الله، أن الشعر ليس وسيلة فحسب، إنه لا بد أن يرتبط بالواقع الذي يعيشه الإنسان، ليكون الشعر هو المحور الأساس في الحياة، خصوصاً، أن انفتاح الإنسان على الكون والحياة والمجتمع، لا بد أن يكون انفتاح الوعي والعقل، فمضمون الشعر هو مضمون الحياة، يقول الشاعر: «إن الشعر لا بد أن يحمل قضايا العصر، ونحن لا نؤمن بالشعر التقريري الخطابي، فالشعر إذا لم يبن المجتمع، في كل حاجات المجتمع الفنية، والإبداعية والفكرية والسياسية، فإنه يكون بلا

(١) علي سرور، العلامة فضل الله وتحدي الممنوع، ص ١٥٩.
(٢) من حوار في ملتقى الثلاثاء الثقافي، ثانوية المصطفى، بتاريخ ٣/ ١٠/ ١٩٩٣.

مضمون، لأن الشعر إذا ابتعد عن مضمون الحياة، يصبح شيئاً لا معنى له»[١].

يقول في قصيدة ذكرى الوصيّ:

(على وزن البسيط)

مـا قيمـةُ الشِّعـرِ إن لـم يَبْـنِ مجتمعـاً حـراً تسيـرُ علـى منهـاجِـهِ العُصُـرُ[٢]

إن الشّعر الذي يجب أن يحمل قضايا العصر، هل هو شعر ملتزم؟ وإذا ما اقتصر الشعر على بناء المجتمع في كُلِّ حاجاته فهل ينفي السيد المطلق الشعري؟ وهل هناك تجارب إنسانية أو حياتية لا علاقة لها بالشعر؟ انطلاقاً من أن الشاعر أراد من فهمه للشعر فهماً لمضمون الحياة والواقع[٣].

يجيب السيد: «أنا لا أؤمن بمسألة أن تفرض على الشاعر التزاماً، فالشعر مثل الماء والهواء لا تستطيع أن تعلبه»[٤].

إن نفي السيد لمسألة الالتزام، لا تعني معارضة حمل قضايا العصر، وبناء المجتمع، ولكنه نفي لما يُفرض على الشاعر، ممّا يفقده الإبداع والخصوصية والإحساس بالقضايا الإنسانية. فالسيد يؤمن أن للفنّ غاية:

(على وزن الخفيف)

غـايـةُ الفـنِّ أن نمـدَّ خيـوطَ النُّـور فـي أفـق ليلـة ظلمـاءِ

ونحيـلَ الـدرب المعـربَـدَ دنيـا مـن طيـوف عطـريـةِ الأصـداءِ

(١) محمد حسين فضل الله مقدمة ديوان على شاطىء الوجدان، ص ١١ و١٢.
(٢) محمد حسين فضل الله، قصائد للإسلام والحياة (ذكرى الوصي)، ص ٥٤.
(٣) محمد حسين فضل الله، مقدمة ديوان على شاطىء الوجدان، ص ١٠.
(٤) محمد حسين فضل الله، قصائد للإسلام والحياة (غاية الفن)، ص ١٧٠.

تتلاقى على أزاهيرها الخضرِ أغاني الحريةِ السمحاءِ
في ظلالٍ من المحبّة ينهلُّ بأعماقِها نداءُ السماءِ
حيثُ لا لفحةُ الأعاصيرِ تضرى في دمانا... ولا صدى البغضاءِ
غايةُ الفنِّ أن نسيرَ ونستلَّ صدانا من واقع، الأرزاءِ
ونطوف الحياة... بين الرياح الهوجِ والكونُ سابحٌ بالدِّماءِ
نبدعَ اللهفةَ الطروبة، في القلب، ونمحو مرارة البأساءِ
ونصوغَ الحنانَ للجيل تمثالا.. لروحٍ علويَّةِ الأجواءِ
ونغذي حياتَنا بالربيعِ السَّمحِ.. في ظلِّ ربوةٍ خضراءِ
فالربيعُ الربيعُ... ينبوعُ حُبّ يغمرُ الأفقَ بالهوى والرُّواءِ[1]

فللشعر قيمة في بناء المجتمع «إذا نظرنا إلى المجتمع كمحور إنساني يحاول أن يتحرك في الحياة، بشكل يلتقي بها ويخدمها ويحتضنها ويعيش كل إيماءاتها وأوضاعها»[2].

إن الشعر ليس «سقط متاع» ومجرد حالة هامشية عند السيد محمد حسين فضل الله، وليس صنعة كما عند الذين لا يعيشون روح الشاعر، فالشعر الصنعة يمكن أن يصدم الإحساس الأدبي والمعنى الإنساني للحس الشعري، الذي يفيض من العقل والوجدان، خصوصاً حيث تختلف التجربة الشعرية بين نتيجة العيش، ونتيجة الصنعة.

يتساءل السيد ويحدد هوية الشاعر فيما يُمثل توجه الإنسان الروحي والإنساني: «هل يمكن أن تكون شاعراً تعيش الشعر في عمق إنسانيتك ولا تتحسس كل صرخات المشردين والجرحى والمستضعفين، إنك عند ذلك لن

(١) محمد حسين فضل الله، قصائد للإسلام والحياة، ص ١٧٠/ ١٧١.
(٢) محمد حسين فضل الله، مقدمة ديوان على شاطىء الوجدان، ص ١١.

تكون شاعراً إنما تكون إنساناً يرقص على إيقاع الكلمات ولكنه لا يعيش هزة الشعور من خلال الواقع الذي يستطيع أن ينفصل الإنسان عنه، فإن الشاعر يكون شاعراً عندما يملك صفاء إحساسه، ويملك إبداع فهمه لهذا الإحساس»(١).

لقد تحدث السيد عن الهزة الشعرية، وعن دور الشعر والشاعر الذي يمثل إنساناً يعيش واقعه فيتفاعل معه، ويعيش فنه وتجربته، وينفتح على كل آلام الإنسان وأحلامه وتطلعاته، وقضاياه ليجسد المقولة التي أرادها السيد، الشعر هو الإحساس بالحياة، بكل ما في هذه الحياة، وما يحيط بها، فالشعر عنده تجربة إنسانية وجدانية، لا بد أن تحمل مضموناً غنياً، ولا قيمة للشكل في ذلك، لأنه عد المضمون يفرض شكل القصيدة وموسيقاه، والتجربة الشعرية لا بد أن تهز الإنسان، وأن تثير فيه الانفعال يقول السيد: «عندما أقرأ بدر شاكر السياب وحتى صلاح عبد الصبور ومحمد الفيتوري وآخرين من هذا التيار أحسُّ بعمق التجربة الفنيّة وبامتدادها. لكن عندما أقرأ عبد الوهاب البيّاتي الذي تكتب عنه الكتب والمقالات الكثيرة لا أستطيع أن أهتز أو أنفعل أو أشعر بأية حالة تغيير في نفسي»(٢).

وإذا ما كان الشعر تجربة وجدانية، فإن السيّد فضل الله لم يتكلّف الشعر وتجربته، «لقد اختزنت الحالة الوجدانية من خلال الأجواء التي كنت أعيشها، واختزنتها في عمق إحساسي الطفولي، ثم بدأت تتطور بالتأمل والتفكير وبالممارسة لتتحول إلى شعر، وكنت لا أتكلف هذا الشعر، بل إنني في كثير من الحالات أشعر أنه يفرض نفسه عليّ، حيث يكون موقفي أمامه

(١) من حوار في ملتقى الثلاثاء الثقافي، ثانوية المصطفى، بتاريخ ١٣/ ١٠/ ١٩٩٣.
(٢) محمد حسين فضل الله، مقدمة ديوان على شاطىء الوجدان، ص ١٠.

موقف الإنسان الذي يُسرع ليستعجل الكتابة حتى لا تفوته كلمة مما يسمع»[١].

هل يعود بنا السيد إلى وادي عبقر؟ أم أن الشعر دفقة من شعاع الوحي الذي لا إرادة للإنسان به؟ وإذا ما كان الشعر عنده بهذه الرؤية فهل يعني أنه لا بد في الشعر من الصدق؟ صدق التجربة والمعاناة والتعبير؟ وهل شعر بعمق تجربة السياب، وصلاح عبد الصبور، ومحمد الفيتوري انطلاقاً من فهمه للشعر كتجربة وجدانية غنية بالمضمون الفكري؟

يقول من قصيدة له بعنوان: الشاعر (على وزن السَّريع)

عاشَ مع النَّهر.. يغنّي السَّما روائعَ الإبداعِ.. من ربِّه
حيرانَ يرنُو في ظلالِ الأسى إلى ضفافِ الفنِّ في جنبِهِ
تبارَكَ الشَّاعرُ: كم نبعة دفَّق منها الحبُّ في شعبِهِ
طافَ عليها حلمٌ غرَّدت أطياره.. تبحث عن قُربِهِ
ورجّع الأفق صدى روحه فماجت النعماء.. في تربِهِ...[٢]

و ـ الثابت والمتحرك في شعر السيد فضل الله:

إن الشعر ليس وسيلة تعبيرية فحسب، إنه لا بد أن يرتبط بالواقع الذي يعيشه الإنسان ليكون المحور الأساس في الحياة، فالشعر عند السيد يتحرك على أرض الواقع ويحمل قضايا العصر، وإذا ما كان السيد يؤمن بالشعر انفتاحاً على الحياة والكون، فإنه بالمقابل يرفض الشعر التقريري الخطابي،

(١) مقابلة أجريت مع الشاعر، بتاريخ ٢٣/٦/١٩٩٦.
(٢) محمد حسين فضل الله، على شاطىء الوجدان، (الشاعر)، ص ٧١.

وهذا ما يقودنا للحديث عما يؤمن به كثوابت في التجربة الشعرية، وما هو متحرك عنده.

مما هو ثابت عند السيد الشاعر الكلمة الموسيقية الشعرية، فالموسيقى لا بد أن تكون في الشعر والوزن، وقد أولاها أهمية فهي غير محددة بقانون «أنا لا أتعقّد من الوزن ولا أعتبر أن الموسيقى يمكن أن تصدر بمرسوم، موسيقى الحياة مثل خرير الأنهار أو موسيقى الشلال... تفرض نفسها، فلا نستطيع أن نتجمد عند الموسيقى التي عاشها السابقون، المهم أن يقول الشاعر بموسيقى، أما تفاعيله وكيف تكون فهذه تخضع لطبيعة تطور الإحساس الموسيقي»(١).

إن الموسيقى التي يعدها السيد أساساً في الشعر، تتضمن نوعين من الموسيقى الشعرية: موسيقية الفكرة، وموسيقى الأسلوب، ولعل هذه إشارة مبتكرة حديثة، أن يتحدث الشاعر عن الفكرة الشعرية وموسيقاها، لا سيما أن الموسيقى عنده تعد الأساس في تمييز الكتابة الشعرية عن الكتابة النثرية «هناك فرق بين أن تكتب الشعر وبين أن تكتب النثر، فقد نستطيع بالنثر أن نتحدث عن أي شيء من أشياء الفكر، حتى تلك التي لا تملك عنصر الإثارة في الموسيقى التشكيلية في الشعر، لذلك فنحن نستطيع أن نقول إن الموسيقى أساسية في الشعر ولا تكفي الموسيقية الغنيّة للفكرة»(٢).

ولا يخفى على الشاعر أن يضم إلى الثوابت في الشعر مسألة الرمز، الذي يعده أداة تختزن وتشحن ذاتية الشاعر وتفجرها، لأن الرمز أساس في التجربة الشعرية، وفي الفكرة التي يراد للشاعر أن ينطلق فيها «من خلال أن

(١) محمد حسين فضل الله، مقدمة ديوان على شاطىء الوجدان، ص ١٠.
(٢) صحيفة الديار البيروتية، مقابلة أجريت مع الشاعر، بتاريخ ٢٥/ ٢/ ١٩٩١.

الرمز قد يختزن كثيراً من العناصر الذاتية التي يمكن أن تتحرّك في آفاق الإبداع»[١].

ولا بد في التجربة الشعرية من الإيحاء والإشارة والإيماءة السريعة، ولعل قراءات السيد للشعر التقليدي، وتأثره بالمتنبي، والبحتري، صنفته في هذا المذهب «إن الفكرة عندما تكون شاعرة لا بد أن تعيش في النطاق الفني الذي تتحرك فيه اللفتة والإيماءة والإيحاء والموسيقى الفكرية، التي تعبّر عن الإحساس الشعري»[٢]. وهو ما قاده إلى نظم الشعر بشكليه التقليدي والحديث، فمن قصائده الحديثة قصيدته علام الضجيج والتي ردّ فيها على مثيري الغبار أمام الدعاة إلى الله تعالى: (على وزن المتقارب)

علامَ الضجيجُ؟
وماذا فعلنا؟
وأنتم تثيرون أنَّى اتّجهنا
غبارَ الطريقِ علينا
لأنا دعونا إلى اللهِ فيما دعوْنا
وأنَّا أردنا هنا
أن يظلَّ الطريقُ بوحي الهُدى يتغنَّى
ويعلو صوت السماء الحنون
وإن عربَدَ البغي يوماً وجُنّ
علامَ الضجيجُ؟
وماذا فعلنا؟

---

(١) صحيفة الديار البيروتية، مقابلة أجريت مع الشاعر، بتاريخ ٢٥/ ٢/ ١٩٩١.
(٢) صحيفة الديار البيروتية، مقابلة أجريت مع الشاعر، بتاريخ ٢٥/ ٢/ ١٩٩١.

لأنَّا انطلقنا
إلى الدِّينِ
نحضن آياتهِ بأرواحنِا كالسَّنا
وابتدأنا
طريقَ الكفاحِ وكنَّا علْمِنَا
بأنّ قوى الليل في دربنا
سينهشنا حقدُها أين سِرْنا
ولكننا لم يُرْعنَا الظّلام
ولا الحقدُ، مهمَا قسا أو تجنى
فإن بإيمانِنَا شعلةً
تضيءُ لنا الدربَ أنّى اتجهنا. . . (١)

إن الثوابت في شعر السيد وفي التجربة الشعرية عنده من موسيقى، ورمز وإيحاء وإشارة وإيماءة سريعة، قابلها ما هو متحرك في شعره الذي عده انفتاحاً على الحياة، واستغراقاً في جمالاتها.

فما هو المتحرك في شعره؟

ليس هناك قداسة في حديث السيد الشاعر عن الشعر، وأشكال تجربته، لأن التجربة الشعرية كانت خاضعة للتجريب، الذي أراده السيد في الشكل، وليس في المضمون، لأن المضمون عنده حالة استكشافية دائمة بواسطة العقل، والتفكير والتأمل والتدبير، كل ذلك معتمداً على مفاهيمه الثابتة فهو فقيه وعالم ملتزم بثوابت معينة، يقول السيد فضل الله «عندما

(١) محمد حسين فضل الله، قصائد للإسلام والحياة، ط١، ص ٨٦ و٨٧.

نتحدث عن الشعر فإننا لا نشعر بأية قداسة لأي شكل من أشكال التجربة الشعرية، فنحن نعتبر أن التجربة الشعرية كانت حالة عفوية وجدانية، انطلق بها شاعر من خلال ما كان يختزنه في داخل نفسه في هذه الموسيقى المتنوعة في حركة عمود الشعر»[١].

إذاً لا مقدسات في أشكال التجربة الشعرية، التي لا شك في أنها تجربة إنسانية، تحمل قضايا المجتمع، وتعيش همومه، وإذا ما كان للأقدمين تجربتهم، وتطلعاتهم وقضاياهم وهمومهم، فكذلك للشعراء المحدثين. ولعل هذا ما يبرر تجربة الشاعر التقليدية في بداياته، ومواكبته للشعر الحر والحركة التي قادها السيّاب، ونازك الملائكة، وهو ما يجعلنا نستنتج أهمية الحالة الشعرية عند السيد الشاعر، ونقده لما آلت إليه تجارب الشعراء المحدثين وهو ما يوجهنا لطرح السؤال التالي: إذا كان السيد لا يولي قداسة لأشكال التجربة الشعرية، فما هي وجهة نظره النقدية لتجارب الشعراء، على ضوء حركة الحداثة؟ خصوصاً أن قراءاته قد أسهمت بِرُؤْيتِهِ إضافة إلى رعاية البيئة النجفية له، والعائلية، وهو الذي عد الموسيقى الشعرية أساسية في مسألة الشعر يقول الشاعر: «إن التجارب الشعرية الأخيرة في الأسلوب الجديد الذي ينطلق فيه الشعراء قد تحمل الكثير من الإبداع في الصورة وفي التعبير، ولكنها تمثّل حالة من الغموض الذي يمنع القارىء الذي يحمل ثقافة متوسطة من أن يتفهم مضمون الفكرة الشعرية، إن الشعر الحديث الذي يعيش الشعراء تجربته الآن قد ابتعد عن الوضوح»[٢].

لا بد في التجربة الشعرية القديمة والمحدثة من الإبداع سواء في

(١) صحيفة الديار البيروتية، مقابلة أجريت مع الشاعر، بتاريخ ٢٥/ ٢/ ١٩٩١.
(٢) محمد حسين فضل الله، مجلة الدولية، العدد ٣٩، ٢٢/ ٢/ ١٩٩١.

الصورة الشعرية وإيحاءاتها ودلالاتها، وفي التعبير عن هذه التجربة والصورة، ويحدد الشاعر أن للثقافة دوراً في فهم التجربة الشعرية، وعمقها وامتدادها، وإذا ما أعطى السيد أهمية للوجدان، فهل يقلل من دور الثقافة في الشعرية؟ وأية ثقافة يريدها السيد؟ وما هو الوضوح الذي يدعو الشعراء إليه في تجاربهم؟

يقول الشاعر: «الشرط أن يبقى الوضوح في الشعر، لا أقصد الوضوح هنا للإنسان العادي، الذي لا يملك ثقافة أدبية، لكن أقول الوضوح للإنسان المثقّف الأديب الذي يفهم الإيحاء والإيماء واللفتة الفنية»(١).

فهو قد عارض قصيدة نزار قبّاني «خبز وحشيش وقمر» حين صدورها، قائلاً: (على وزن الرّمل)

... فيقولون
مضى الشرقُ...
وماتْ
في ضبابِ الأغنياتْ
غير أن الشرقَ لن ينسى شجونَهْ
إنه لن يتركَ الخائن يَقْتَادُ شؤونهْ
لن يعود الشرقُ تاريخاً
يُغنَّى ويُكرَّرْ
وحديثاً عن لياليه عن العرشِ المزوَّرْ
وعن الأفيون والدخان والحلم المنوَّرْ

---

(١) صحيفة الديار البيروتية، مقابلة أجريت مع الشاعر، بتاريخ ٢٥/ ٢/ ١٩٩١.

أنظروه
حدّقوا في الوعي . . . في كل مكانْ
بدأ الدربَ وفي آفاقه
ألفُ كيان
فمضى يختصرُ الدربَ، ويقتادُ الزمانْ
فإذا الوحدة في كل ضميرٍ ولسانْ
حلم العاملِ والفلاّحِ والفكرِ المهانْ
إنه تاريخنا يُصنعُ في أرضِ العروبَهْ
فانظروه في الغدِ الريَّانِ والأرضِ الخصيبَهْ
في بلادي حيث يحيا الجرحُ في وعي وطيبَهْ
ولقد ماتت مع الأمسِ التواريخ الغريبَهْ(١)

لقد قدم لنا السيد محمد حسين فضل الله مفهوماً عن الثقافة العربية، وطلب تطويرها شرط بقاء الوضوح، لأن الثقافة هي التي تغذي رؤية الشاعر المتحركة إلى العالم، وبواسطتها يقرأ الظواهر، التي تتحرك في الواقع. وشرطه بقاء الوضوح، حتى لا يتحول الشعر إلى شعر النخبة التي تعيش في أبراجها العاجية، متناسيةً الواقع والقضايا والهموم وهو ما يشكل الهدف من الشعر وفي مقدّمته الروحي منه، وهو ما يرفضه الشاعر، ويمايز من خلاله بين نوعين من الشعراء. مما دعاه إلى طلب إعادة قراءة الشعر العربي من جديد «إن الشعر العربي في التجارب الشعرية الأخيرة ابتعد عن أن يكون شعراً عربياً، فكثير من الشعراء العرب الذين يملكون عمق الإحساس وعمق الفكرة وروعة اللفتة الفنية والإيحائية . . لا تشعر بأنهم يجسّدون إنساننا، لا بل تشعر

(١) محمد حسين فضل الله، قصائد للإسلام والحياة، ط١، ص ١٤٢ و١٤٣.

وكأنهم يقرأون تجارب الآخرين، ففي تصوري أن هذا الشعر ليس شعراً عربياً في ما يعبّر عن الإنسان العربي، كما أنه لا يستطيع أن يخدم هذا الإنسان لأنه أصبح شعر النخبة التي تعيش في أبراج عاجية عالية ومسوّرة.. لذلك أصبحت النخبة تتحدث مع بعضها كما لو كانت لها لغة خاصة»(١).

إن تجربة الشاعر هي تجربة الإنسان، ولا بد أن تحمل هذه التجربة قضايا إنسانها وأحلامها، لأن الشعر تجربة غنية بالمضمون الفكري، تواصل في كل آن ومكان، وإذا ما عدّ السيد أن قطع المسافات للوصول إلى مقصد الشاعر هو قمة الغموض، ولا بد في الشعر من الوضوح، فإنه كان مع قراءة السيّاب وصلاح عبد الصبور، وغيرهم لأن تجاربهم الشعرية غنية بهذا المضمون الروحي: «في تصوّري أن قيمة تجربة السياب وتجارب الكثيرين الذين عاشوا في مرحلته، مثل تجربة صلاح عبد الصبور، وتجربة الفيتوري وتجارب كثيرة تحتفظ للشعر بعمق المضمون الروحي والفكري بالإضافة إلى الموسيقى الشعرية، ولا تبتعد كثيراً عن مجالات الفهم الفني للمضمون الشعري، لأننا نلتقي في المدة الأخيرة بمشكلة في التجارب الشعرية التي نحترم الكثير منها، ولكننا نشعر أن هناك مسافة واسعة بين الكلمة في مضمونها وبين المعنى الذي يراد للكلمة أن تتحمّله، مما يسمى في علم البلاغة باللوازم البعيدة التي لا تستطيع من خلالها أن تفهم المعنى من الكلمة إلا إذا عشت إيحاءات واسعة في آفاق هذه الكلمة وأجوائها»(٢).

إن قيمة التجارب الإنسانية للشعراء، الذين عدهم السيد يصدرون عن معين واحد، تتمثل في أنهم عاشوا التجربة الإنسانية بعمقها، فأحسوا بصراخ

---

(١) محمد حسين فضل الله، مقدمة ديوان على شاطىء الوجدان، ص ٩.
(٢) صحيفة الديار البيروتية، مقابلة أجريت مع الشاعر، بتاريخ ٢٥/ ٢/ ١٩٩١.

الناس وآلامهم، وعاشوا الحياة في الشعر، الذي يشكل بنظر الشاعر انفتاحاً على الحياة وإحساساً بها، وهذا ما يمثل المحور الأساس في تجربة السيد الشعرية، مما يدلنا على أن الشاعر كان يعايش تجارب هؤلاء الشعراء من مجلة الآداب، ومن درسه لتاريخ النجف الذي يحوي جيلاً كبيراً من الشعراء، لأن النجف كانت تقرأ وتنشر كل فكر وأدب سواء للنثر أو للشعر، في مصر ولبنان. فهل كان السيد متأثراً إلى حد بعيد بكل هذا الجو الشعري الذي كان مطروحاً على الساحة الأدبية؟ وهذه الأساليب التي تنوّعت بين التقليد والحداثة؟ أم أن السيد ينفي هذا التأثر ويسعى إلى فرادة بين هؤلاء الشعراء؟ ويمايز بين تجربته وتجاربهم؟

مما لا شك فيه أن قراءاته قد كونت أفقاً شعرياً له، خصوصاً أن النجف كما صرح كانت تتنفس شعراً، وقد رعت تجارب أسهمت في إدخاله منتدى الشعر، على رغم أنه كان يتلقى ما يوحى إليه وكأنه فرض عليه فرضاً كما لو كان يحفظه، يقول السيد: «عشت في النجف التي ولدت فيها وأنا أسمع قصائد محمد سعيد الحبوبي، وقصائد محمد مهدي الجواهري، وعلي الشرقي، وكنت أطل آنذاك على ما يصل إلينا من قصائد الشعراء اللبنانيين، كبشارة الخوري الذي تأثرت به كثيراً والياس أبي شبكة، وأحمد شوقي، وكنت أقرأ الشعر النثر لجبران خليل جبران الذي تأثرت به كثيراً»(١) و«لقد تأثرت بذلك الجو الذي كان سائداً في مصر والعراق ولبنان»(٢).

إن تأثّر السيد محمد حسين فضل الله بهذا الرعيل من جيل الشعراء، لا يعني المطلق في هذا التأثير، فهو إذا قرأهم قراءة التجربة الإنسانية فقد تفرد

---

(١) صحيفة الديار البيروتية، مقابلة أجريت مع الشاعر، ١٧/٦/١٩٩٠.
(٢) محمد حسين فضل الله، مقدمة ديوان على شاطىء الوجدان، ص ١١.

عنهم، ورفض أن يكون متأثراً بطريقة شاعر ممن قرأهم، لأن رؤيته التي كونتها ثقافته النجفية كان لها طابعها الخاص، فمصادر ثقافة السيد تختلف عن مصادر غيره من الشعراء، وتحركه في الواقع كان إسلامياً حركياً روحيّاً، وهو ما تشير إليه عناوين دواوينه وقصائده التي تدلنا على المناخ الذي يعيشه وجدان السيد، كديوان «قصائد للإسلام والحياة» و«يا ظلال الإسلام» و«على شاطىء الوجدان» وكقصائد «مع الله» و«في رحاب رسول الله» و«في رحاب آل البيت» و«يوميات إسلامية» يقول:

(على وزن الخفيف)

ربِّ هبني معنى الصلاة لأحيا في صلاتي معناك في عمق رُوحي
حيث توحي «الله أكبر» سرّ المجدِ للهِ في الذُرى والسفوحِ
هو «لا غيره» الحقيقةُ، هل تسمعُ إلّا آياته في المديحِ
أنا حسبي «يا ربّ» إن عاشَ جُرحي في حياتي عمق الكيانِ الجريحِ
أنني ألتقيك في سُبحات القرب، ترعى باللُّطفِ مِنْكَ جروحي[(١)]

فلماذا يرفض السيد الشاعر فكرة التقليد والتأثر، وهو قد اختزن بعض التأثرات الشعرية في داخله؟ يجيب السيد: «إن من يقلّد لا يستطيع أن يكون حراً، إنه يحاكي الحركة والكلمة والتفكير، إنك تفقد شخصيتك عندما تقلّد لذلك أنا أرفض التقليد»[(٢)].

من هنا ندرك أن تقليل أهمية الثقافة عند السيد ليست الثقافة كما نعرفها، لعله يقصد عدم طغيان الفكر على المفهوم الشعري كالمنطق، والتقسيمات، والاستنتاجات وغيرها؟

---

(١) محمد حسين فضل الله، مقدمة ديوان على شاطىء الوجدان، ص ١٠.
(٢) مقابلة أجريتها مع الشاعر، بتاريخ ٢٣/٧/١٩٩٦.

ز ـ الشكل والمضمون عند السيد فضل الله:

يولي السيد فضل الله المضمون أهمية أكثر من الشكل الشعري، فالمضمون يعطي الشاعر انطلاقة جديدة، ويفرض تجارب الشعراء على الزمن، لا سيما أنه عدّ النقلة الحضارية النوعية في التجربة الشعرية قد قامت على أساس المضمون لا الشكل، يقول السيد: «إن القضية هي قضية المضمون الذي يعيش في داخل شخصية الشاعر، فهو الذي يعطي للكلمة والشكل حيويتهما وإبداعيتهما[١].

هنا يتعارض السيد مع الشكليين، مبتعداً عن آلية الحياة وحتمية التاريخ، إذ يولي أهمية لدور الإنسان وتجاربه في تغيير وجه الواقع، فالشاعر يختزن مضمون التجربة الشعرية التي يعيشها، ويتأثر بها وينفعل وينهزّ لها.

إن المضمون يفرض الشكل، وهو ما تحدث به «هيجل»، حتى يمكن أن نستوحي الشكل الشعري من شكل الموسيقى، فإذا ما كانت الشكلية التقليدية حالة ليست مقدسة، فأين النقلة الحضارية في التجربة الشعرية؟ وقد أكد الشاعر السيد على أن الموسيقى أساسية في الشعر، حتى الموسيقى الفكرية التي تعبر عن الإحساس الشعري والتي تجمع بين موسيقى الشكل وموسيقى المضمون.

يقول الشاعر: «عشنا كلّ التاريخ الثقافي في العالم الذي يمثّل الحضارة الثقافية، ولم يكن الشكل هو العنصر الذي تتمثل فيه النقلة الحضارية النوعية في التجربة الشعرية، بل كان المضمون يمثل نسبة كبيرة في هذا المجال»[٢].

---

(١) جزء من مقابلة، مجلة الموقف العربي، العدد ٤٦٦، ٢٥/٣/١٩٩١.

(٢) جزء من مقابلة، مجلة الموقف العربي، العدد ٤٦٦، ٢٥/٣/١٩٩١.

إن حديث الشاعر عن النقلة الحضارية في التجربة الشعرية، تقودنا إلى الاستنتاج الذي خلص إليه الشاعر لما لم يكن تطويره في هذه التجربة، من وسائل التعبير، ومن استيحاء الشكل الشعري في الشكل الموسيقي «إذا كانت التجربة الشعرية تحمل عنصر الإبداع، فنحن نؤمن أننا نستطيع أن نطور الشكل الشعري في تجارب متعددة على مستوى حركة التفعيلة، بشرط أن نحافِظَ على جانب الموسيقى. إننا نقول إنه من الممكن أن نستوحي الشكل الشعري من شكل الموسيقى، أن ننطلق إلى كل التراث الموسيقي أي التفعيلات الموسيقية ونحوّلها إلى تفعيلات شعرية»(١).

إن الموسيقى أساس التجربة الشعرية، وإذا كان بالإمكان تطوير الشكل الشعري فلا بد من الموسيقى. فالشعر يمثل شكلاً موسقاً من أشكال التعبير. ويميز السيد بين نوعين من الموسيقى: موسيقى الشكل، وموسيقى المضمون. فهل يقصد ما عناه النقاد القدماء: بأن يأخذ البيت بعنق أخيه، لا أن يكون تباعداً بين معنى البيت الشعري والبيت الذي يليه؟ هل يعني الانسجام الذي قال به بعض النقّاد، والذي يؤدي إلى وحدة الموضوع، ويحدد جمالية النص؟ هل يعني السيد بموسيقى المضمون ما عند الباقلاني والجاحظ من النظر إلى تناغم السياق في النص ككل؟ أن ننظر إلى النص كوحدة؟ وإذا كان الشاعر يمكنه أن يستوحي الشكل الشعري من شكل الموسيقى، فما هي التفعيلات الموسيقية التي يريد السيد تحويلها إلى تفعيلات شعرية؟ هل هي المقاطع الصوتية التي يعتمدها الموسيقيون من قصير متوسط وأقصر وطويل؟ هل هي الأسباب والأوتاد والفواصل التي اعتمدها الخليل في دوائره لتشكيل بحوره الشعرية؟ وهل يكون السيد قد سبق

---

(١) جزء من مقابلة، مجلة الموقف العربي، العدد ٤٦٦، ٢٥/٣/١٩٩١.

الناقد كمال أبو ديب في طرحه اعتماد المقاطع الصوتية، وتداخلها لإنشاء موسيقى القصيدة؟

إذا كان المضمون هو الذي يفرض الشكل، وهو يعيش داخل شخصية الشاعر فإن السيد يلمح بذلك إلى ضرورة الصدق في التجربة الشعرية، واختيار الكلمات لتعبر بأمانة عن الإحساس الداخلي. (الطويل)

يقول:

حياتي إحساسٌ وفيضُ عواطف بقلبي كالطوفان يطغى ويهدُرُ
ودنياي آفاقٌ، كأنّ سماءها غيومٌ بأحداق الضُحى تتبعثرُ
وماذا لدى الإنسان، إن أطبق الدُّجى على روحه فيما يقول ويضمرُ
إذا لم تفتح للصفاء بروحه عيونٌ تريه الحق كيف يصور(١)

والشاعر الذي أراد تطوير الشكل الشعري على مستوى حركة التفعيلة، توقف عند الجدة والتغيير في وسائل التعبير. لا سيما أنه أولى المضمون هذه الأهمية. فما الذي يمكنه تطويره في أسلوب التعبير عن مضمون التجربة الشعرية؟

يقول السيد: «يمكن أن نطور أسلوب التعبير في المضمون الشعري، بالطريقة التي تأخذ من تطور الفن في وسائل التعبير. نأخذ منه الأساليب الحديثة في طبيعة اختزان الكلمة للفكرة، من خلال تطوير الاستعارة والكناية والمجاز»(٢).

في مسألة الشكل والمضمون يطرح السيد الإتباعية التي لا تمنع

(١) محمد حسين فضل الله، قصائد للإسلام والحياة، ط١، ص ٢٤٦.
(٢) صحيفة الديار البيروتية، مقابلة أجريت مع الشاعر، بتاريخ ٢٥/ ٢/ ١٩٩٦.

الإبداع، ويعد أن التجارب الشعرية حتى المبدعة منها، لم ينطلق شعراؤها من التمرد على الشكل بل كانوا اتباعيين في الشكل. «لأن مسألة الشكل ليست هي المسألة التي تمثل التطور المطلق للقصيدة. التجربة الفنية في الشكل تخضع لضوابط تجعل تجاوز الحدود يعطي نقلة نوعية»[١].

لقد نفى السيد فضل الله عن الاتباعية حجزها للإبداع، لذلك قد يمارس الإنسان التجربة التي مارسها الآخرون في الشكل، لأنه لا يشعر بأنها تختلف عن حركة الإبداع الفني. فهل الإبداع هو الخلق الجديد على مستوى التجربة الشعرية؟

يقول الشاعر: «عندما تكون شاعراً فأنت تختار الكلمة من خلال إيحاءاتها، وما تستطيع أن تحمّلها من الفكر، وتختار الشكل والموسيقى التي يمكن أن تبعث الاهتزاز في الكلمة لتتكامل مع الاهتزاز الذي تثيره الإيحاءات من خلال طبيعة الفكرة والأحاسيس التي تثيرها الموسيقى الشعرية في هذا المجال، والشكل لن يتدخل في عملية الإبداع في العمق، إلا من خلال أنه يمثّل نقلة تتجاوز المألوف في ما يتمثّله الإنسان من الجدة في وسائل التعبير»[٢].

ما معنى الهزة الشعرية، التي يريدها السيد من خلال ما تثيره الموسيقى والإيحاءات وطبيعة الفكرة والأحاسيس؟ إن الشعر لا يجب أن يعيش على هامش الحياة، إنه لا بد أن يهز ويفعل فعله في النفس. وهل لذلك عد السيد المتنبي شاعراً خالداً ترك أثره ولا يزال شعره يهزنا وننفعل به. يقول الشاعر: «لقد قال المتنبي شعراً، ولا نزال ندرس شعر المتنبي في الجامعات، ولا

(١) جزء من مقابلة، مجلة الموقف العربي، العدد ٤٦٦، ٢٥/٣/١٩٩١.
(٢) جزء من مقابلة، مجلة الموقف العربي، العدد ٤٦٦، ٢٥/٣/١٩٩١.

نزال نتمثّل بشعره في المجالات الشعرية، ويبقى شعر المتنبي في درجته الرفيعة التي استطاعت أن تحتفظ للمثقفين بكثير من الفنّ والإبداع، حيث يستطيعون أن يكتبوا فيها مجلّدات، وإنني أستحضر بيتاً من الشعر يقول صاحبه:

إذا الشِّعرُ لم يهزُزْكَ عند سماعه فليس جديراً أن يُقالَ له شعرُ»[١]

إن الهزة الشعرية نتاج الشعر الذي يُعَدُّ تجربة إنسانيةً، لها امتدادُها في العمق، من خلال الالتزام بالقضايا التي تتحرك في واقع المجتمع، لأن الشعرَ لا بد أن يبني المجتمع في كل شؤونه.

يقول في قصيدة بعنوان كم نغنّي:

عيدُنا موعدُ الحياةِ إذا ثار بأعماقِنَا كيانٌ قتيلُ
وصدى الوثبةِ التي يَثِبُ التاريخُ فيها على المدى... ويصولُ
عندما يشرق النّضالُ، بمسرانا وتهتزُّ للكفاحِ النصولُ
وتعودُ الحقولُ تنثرُ زهرَ النصرِ فينا كأنَّهُ الإكليلُ
عندما نستعيدُ أضواءَ ماضينا ليسمو هذا الشعاع الضئيلُ
ويثورُ الفجر المرنَّحُ يجري من سناهُ الضُّحى ويزهو الأصيْلُ
عيدُنا مهبطُ الغدِ الحرِّ إذ ينداحُ عنّا هذا الضَّبابُ الثقيلُ[٢]

ح ـ الالتزام الشعري في رأي السيد:

رأى السيد محمد حسين فضل الله أن على الشاعر أن يلبي حاجات

---

(١) صحيفة الديار البيروتية، مقابلة أجريت مع الشاعر، بتاريخ ٢٥/ ٢/ ١٩٩٦.
(٢) محمد حسين فضل الله، قصائد للإسلام والحياة، (كم نغنّي)، ص ١٧٤ و١٧٥.

المجتمع الفنية والإبداعية والفكرية والسياسية، فالشعر هو الإنسان، والتجربة الشعرية تجربة إنسانية، فهل يعني ذلك التزاماً في الشعر؟ أم إلزاماً للشاعر بما لا يريد؟

يقول الشاعر: «إن الشاعر الشاعر هو الذي ينفتح على كل آلام الناس، وكل أحلامهم، وكل تطلعاتهم، وكل قضاياهم، لينفعل بها. أنا لا أتحدث عن الالتزام في الشعر، ليقول الناس: إن الشاعر ليس مصلحاً ولكنه إنسان يعيش فنّه فيتفاعل معه لذلك لا تستطيع أن تفرض على الشاعر الموضوعات التي يحرّك فيها تجربته، لأن الشاعر يكون شاعراً عندما يملك صفاء إحساسه، ويملك إبداع فهمه لهذا الإحساس»(١).

إن السيد ينفي الالتزام كخط يتبناه الشاعر ليحرك شعره باتجاهه، لأن الشعر مثل الماء والهواء لا يمكن للشاعر أن يعلّبه. «فالفكرة الشعرية تفرض نفسها على الشاعر، وتعبّر عن ذاته»(٢).

إذا ما كان السيد يرفض الالتزام، أو إلزام الشاعر بالفكرة الشعرية، فإنه مع الالتزام كحالة وجدانية عفوية في الإنسان بعيدة عن التكلف، لا سيما أنه يؤمن بالعفوية الشعرية والفنيّة في التجرية الشعرية.

لقد أثار السيد فكرة الشاعر الملتزم المتعهد لقضايا مجتمعه وأمته، مع عدم إيمانه بفرض الالتزام على الشاعر. لكن هذا النفي لفكرة الالتزام الشعري ليس كاملاً، وإنما يخفي الدعوة إلى الالتزام إنما كيف؟ بإسقاط فكرة «الفرض» لصالح فكرة «الاختيار» فالشاعر لم يقل أنه لا يؤمن بفكرة أن يكون الشاعر ملتزماً، وإنما هو لا يؤمن أن يفرض الالتزام على الشاعر

---

(١) من حوار في ملتقى الثلاثاء الثقافي، ثانوية المصطفى، ١٣/ ١٠/ ١٩٩٣.
(٢) مقابلة أجريتها مع الشاعر، بتاريخ ٢٣/٧/١٩٩٦.

فرضاً، وبالتالي أن يطلع هذا الالتزام كحالة عفوية لا تكلف فيها، وكحالة وجدانية إنسانية تثري التجربة الشعرية وتتحقق على نحو تلقائي كثمرة لاختيار حر.

إن دعوة السيد فضل الله إلى أن يكون الشعر لبناء المجتمع في كل حاجاته تعميق لفكرة الالتزام، وتعبير عن إحساس الشاعر بالحياة والكون. وهو ما يظهر في قصائده المنظومة في دووانيه، ففي قصيدة حدثيني يا أرض، تبدو نزعة السيد في التزام قضايا الأمة، وفي التوجه الروحي الأساسي الإنساني لا سيما أن لجوءه إلى ضمير «نا» المتكلمين يظهر أنه كان ينطق بلسان قومه ومجتمعه: (على وزن الخفيف)

حدثيني يا أرضُ ـ عن منجل الفلاّحِ... هل مسَّهُ العنا فتحطمْ
أتـراهُ التـوى ـ علـى قسـوةِ اليـأسِ، وثـار الشقـا بـه فتثلَّـمْ
يا لهول الطغيان، حتى الصخور الصم من عسفِه تئن وتسأمْ
إنها قصةُ السيادة ما زالت... على أنةِ المساكين تحلُمْ
طوتِ الدَّهرَ... ثم أهوَتْ على الزرع تعبُ الحياةُ منه لتنعَمْ
والعيـونُ التـي رعتـهُ ظمـاءٌ تلعـقُ النَّبـت فـي مجـاليـه علقـمْ
حـدثينـي يـا أرض إن حـديـث الأمّ عـذبٌ يلـذ لـلأرواحِ
نحنُ نجري في البحرِ... والموجُ ما زال... يهزُّ السفينَ بين الرِّياحِ
فمتـى يفصـحُ الصبـاحُ... عـن المـرفـأ... والشهـبُ آذنـت بـالـرواحِ
علّنـا نبـدأ الحيـاةَ بـروحٍ تتلظّـى علـى نـداءِ الكفـاحِ[1]

إنَّ رجاء الشاعر يوحي بحسِّه الروحي/ الجمعي الذي يحمِلُ إيحاءات

(١) محمد حسين فضل الله، قصائد للإسلام والحياة، ط١، ص ١٦٨ و١٦٩.

الثورة/ الحياة، والأمل بتغيير الواقع الذي ينوءُ المجتمع بأثقالِهِ. ولقد بنى الشاعر خطابه كعادته على ضمير الجماعة (نحن، نجري، علَّنا، نبدأ...) مِمّا يُبشِّرُ بروحٍ إنسانيّة آمنت بالإنسان وقضاياه.

ط ـ الرؤية الشعرية ودورها:

ليس غريباً أن تكون الرؤية الشعرية عند السيد محمد حسين فضل الله، منطلقة من حالتين:

أ ـ صورة الواقع وما فيه من هموم وقضايا تشكل مادة للتجربة الشعرية، وهو ما يعد الرؤية/ الخارجية عنده.

ب ـ الرؤية/ الداخلية التي تمثل الموقف من خلال الصورة الشعرية وتفاعل الخارج والداخل.

فهو يشترط الرؤية/ الواقع، قبل البدء بالقصيدة، ثم يأتي وعي الشاعر في اختيار الكلمة والأسلوب والموسيقى، التي يمكن أن تجسد الرؤية، مما يثير صراعاً بين سلطة الرؤية ووعي الشاعر.

يقول السيد فضل الله: «الرؤية الشعرية هي صورة الواقع، واقع الإنسان في داخله، في المعاناة التي يحسّها أمام تمثّله الأشياء أو تفاعله معها، وبهذا فإن الصورة الداخلية والصورة الخارجية تتفاعلان في عالم الرؤية»(١).

إن تزاوج الصورة الداخلية الرؤيا/ والخارجية الرؤية/ الواقع يشكل الصورة الشعرية التي تستدعي موقفاً من الشاعر، الذي كلما ازداد عمقاً في تحريك معاناته الداخلية، ووعي إحساسه والواقع من حوله استطاع تعميق

(١) مقابلة أجريتها مع الشاعر، بتاريخ ١٩٩٦/٧/٢٣.

هذه الصورة الشعرية المرتبطة بالواقع/ الرؤية، لتكون تجربة شعره غنية بالمضمون، ومتصلة بالعمق في الوقت الذي تطل فيه على السطح.

إن إطلالة التجربة الشعرية على السطح، لا بد أن تجسدها الأداة التعبيرية، فعندما يعيش الشاعر الأحاسيس والمشاعر والأفكار، فإنه يلجأ إلى اللغة ويعمل على اختيار الكلمات، والأساليب والموسيقى التي يمكن أن تجسد رؤية الشاعر/ الواقع وتجربته.

إن اختيار الكلمات والأساليب والموسيقى لمضمون الرؤية/ الواقع، دفعت الشاعر إلى التطابق بين الفكرة والوسيلة التعبيرية عنها، وهنا لا بد من التساؤل حول هوية الفكرة التي يريدها الشاعر؟ هل هي الفكرة المختزنة في الرؤية الشعرية؟ إذا كان كذلك، تضيق مساحة الاختيار عند الشاعر لتفسح في المجال للرؤية كي ترسم نفسها على مساحة القصيدة، لذا نرى شاعراً تنثال الكلمات عليه بسهولة إذا كانت الرؤية/ الواقع لديه واضحة ومكتملة، بينما لا نرى ذلك عند نقيضه.

يثير الشاعر إذاً مسألة قوة الطبع، التي تشكل قوة الحركة في الواقع، مما يدفع إلى التفاعل الحي بين الشاعر وحياته، فهل يريدنا السيد أن نصل إلى ما رآه في الشعر؟

وأين السّمة الخاصة بالشاعر في الكلمة المترفة عندما تكون الكلمة تاريخية وهو يعمل على اختيار الكلمات؟

يقول السيد: «قد نحتاج في المسألة العاطفية إلى أن نبحث عن الكلمات المترفة التي تحمل إيحاءات شعورية وإحساسية من خلال حركة الكلمات في تاريخ الإنسان، وربما نحتاج في المسألة إلى أن تنطلق من حالة

عقلية لأن تكون الكلمات أقرب إلى الإيحاءات الفكرية منها إلى الإيحاءات العاطفية»[١].

هل يوحي السيد أن الوجدان هو وسيلة تفاهم بين البشر على قاعدة الود والرحمة؟ لا سيما أنه يخلص من خلال المسألة العاطفية إلى الكلمة المترفة التي تتمثّل تجربة إنسانية. وهل يجب على الشاعر أن يضع الكلمة في سياق شعوره هو؟ وهل لكل شاعر علاماته وعصره وإيحاءاته؟

وما الناتج الذي يصل الشاعر إليه عندما تندمج العاطفة مع الفكر؟

إن هذا الاندماج يخلق نوعاً من التأمل الروحي، من خلال عاطفة تنحو منحى الفكر، وفكر ينحو منحى العاطفة، انطلاقاً من وحدة شخصية العاطفة والفكر في الإنسان.

يقول الشاعر: «إن للكلمة في موسيقاها وإيحاءاتها وما تحمله من معان تتصل بالإحساس والشعور دورها في إغناء التجربة الشعرية في التعبير عن عمق الرؤية/ الواقع، وامتدادها ورحابتها»[٢].

قد يحتاج الشاعر إلى الرمز الذي يمكن أن يعطي الإحساس بالكلمة بطريقة أكثر عمقاً ودقة من الكلمات الصريحة، فالسيد فضل الله ضد المباشرة في التجربة الشعرية وتجسيدها. وعلى المتلقي أن يعيش إيحاءات الشعر، وهذا ما يجعل الكلمة تتخلى عن هويتها الموضوعية، إلى الهوية الفنيّة/ المجاز، فالرمز يطل على الفكرة من خلال تجربة تحمل إيحاءات الرؤية بطريقة أفضل مما لو واجهها المتلقي بشكل مباشر.

---

(١) مقابلة أجريتها مع الشاعر، بتاريخ ٢٣/٧/١٩٩٦.
(٢) مقابلة أجريتها مع الشاعر، بتاريخ ٢٣/٧/١٩٩٦.

يقول السيد فضل الله: «نحن نلجأ إلى الرمز لحاجة التجربة الشعرية في إيحاءاتها إليه، ولأن الظروف تجعل التصريح بالفكرة/ الرمز أفضل من ذكرها المباشر»[١] «فالرمز يختزن كثيراً من العناصر الذاتية التي يمكن للشاعر أن يحرّكها في آفاق الإبداع»[٢]. وهل لذلك كان الشاعر يوقع باسم «رشدي ناجي»[٣] حين انطلق لنشر شعره الحر؟ وبتوقيع «الفرزدق الصغير»[٤] في بعض الشعر السياسي أيام نوري السعيد في العراق؟

يقول في قصيدة حُبّي لاجئاً للرّمز:

(وزن السريع)

وعاد حُبّي... في عروق الضحى منطلقاً ـ يحيا بقلبٍ كبيرْ
يهفو إلى الفجر... يثير السنا الريّان... في أهدابِ جفنٍ كسيرْ
ويحضنُ الوجود... في روحِهِ عاطفةً تسمو وفكراً يُنيرْ
ليلاهُ ما في الكونِ من فتنةٍ غرقى بأمواجِ الصباحِ النَّضيرْ[٥]

ي ـ اللغة النثريّة واللغة الشعرية:

عدّ الشاعر السيِّد محمد حسين فضل الله الموسيقى أساساً في الشعر، الذي رآه شكلاً مموسقاً من أشكال التعبير. وإذا ما كان يرفض قداسة أي شكل من أشكال التجربة الشعرية، فليس معنى ذلك أنه مع التجارب

(١) مقابلة أجريتها مع الشاعر، بتاريخ ٢٣/ ٧/ ١٩٩٦.
(٢) صحيفة الديار البيروتية، ٢٥/ ٢/ ١٩٩١.
(٣) جزء من مقابلة بدعوة من ملتقى الثلاثاء الثقافي، ٣/ ١٠/ ١٩٩٣.
(٤) جزء من مقابلة بدعوة من ملتقى الثلاثاء الثقافي، ٣/ ١٠/ ١٩٩٣.
(٥) محمد حسين فضل الله، على شاطىء الوجدان، (حبي) ص ٢٧.

جميعها، فهناك فرق، بنظره، بين أن تكتب النثر الذي يمكّن من كتابة أي شيء من أشياء الفكر، وبين الشعر.

يقول الشاعر: «إن اللغة الشعرية تمتاز عن لغة النثر بالموسيقى التي تحصل من خلال التفعيلات المتنوعة[١] وإذا ما اشترط السيِّد فضل الله الموسيقى في الشعر، فإنه يرفض قصيدة النثر، لا بكونها كتابة أدبية بل بكونها في حقل الشعر، ولأنه يطلب الموسيقى الداخلية في النثر والشعر معاً ولا سيما أن موسيقى القصيدة التقليدية رتيبة، وموسيقى القصيدة الحرة متحركة. «نحن لا نفهم معنى للشعر المنثور الذي بدأ بعض الكتّاب يمارسون التجربة الشعرية من خلالها، لأن الفرق بين الشعر والنثر ليس في الموسيقى الداخلية، فالموسيقى الداخلية مطلوبة في التجربة الأدبية نثراً كان أو شعراً. ولكن الفرق بين الشعر والنثر هو في الموسيقى، التي يتحملها الوزن والتعبير، سواء كانت من الشعر العامودي التي تمثل موسيقى رتيبة، أو الشعر الحر الذي يمثل موسيقى متحركة»[٢].

إن الموسيقى/ الداخلية، وليس الموسيقى/ الوزن، قد عدّها الشاعر أساساً في التجربة الشعرية، فالكلمة الموسيقية، أو موسيقية الكلمة تمثل عمق المعنى الذاتي لكلمة شعر، فهل لذلك عدّ جبران الناثر شاعراً؟ وأسقط هوية الشعر عن البياتي الذي لم يستطع أن يهزه أو يجعله ينفعل وإن توفرت الموسيقى في قصائده؟

يقول في قصيدة ذكرى لقاء:

فتلمّسْ يا شاعري... وحيَ دنيايَ ونضِّرْ بالأريحيّاتِ ذكرَهْ

---

(١) مقابلة أجريتها مع الشاعر، بتاريخ ٢٣/٦/١٩٩٦.
(٢) مقابلة أجريتها مع الشاعر، بتاريخ ٢٣/٦/١٩٩٦.

علّمني أستعيدُ... في كبرياءِ الجرحِ... حلمَ اللّقا بأرخمِ نبرَهْ
وتغنّيتُ... ثم نضرتُ قلبي بالرياحين وٱحتضنتُ الجراحَا
أصبهرُ الذكرياتِ ديوانَ شعر يبدعُ الوحي من صداهُ الصباحا
حول ترنيمةٍ تصاعدُ من قلبي... حياةً ولهفةً ومراحا
حملَتْها روحي... صلاة لعينيكِ... فهل تخرسُ الصلاةَ النواحا؟
ومضينا هناك أول مرة نتملّى الهوى ونرشفُ عطرَهْ
وادعاً يبعثُ التسابيح للفنِّ حياةً... تمرّدت حول نظرَهْ...[1]

ك ـ الغموض والوضوح في الشعر:

شكّل اعتبار السيد فضل الله للشعر بأنه دفقة من شعاع تنفث الوعي، وانفتاح على وعي النفس، والكون والحياة، تجربة لمضمون الحالة العفوية الوجدانية، التي ينطلق الشاعر من خلالها، وإذا ما رفض قداسة أي شكل من أشكال التجربة الشعرية، فإنه عدّ الشعر حالة إيحائية وليست خطابية، هذا الإيحاء الذي كان سائداً لدى شعراء العربية: كالبحتري والمتنبي، وغيرهم من أصحاب الطبع.

إن الإيحاء الشعري يكون في اسعمال المجاز اللغوي (استعارة وكناية وتشبيه) وهو ما يعد حدود الغموض عند السيد، وتفسيراً لرفضه المباشرة والخطابية، فلا بد في الشعر من الوضوح للإنسان المثقف الأديب، الذي يفهم الإيحاء والإيماء واللفتة الفنية، يقول السيد فضل الله: «لا بد أن يعيش الشعر لوناً من ألوان الغموض الذي يعطي المعنى الشعري نوعاً من الضبابية على السطح، لكن لا بد أن يكون هذا الغموض قريباً من الحالة الوجدانية

(١) محمد حسين فضل الله، على شاطىء الوجدان، ط١، ص ٦٢.

للإنسان القارىء والمستمع للشعر»[١].

إن مسألة الغموض والوضوح أساسية في التجربة الشعرية التقليدية والحديثة، والشاعر إذ يأخذ على تجربة الحداثة غموضها، فهل نتج هذا الغموض عن الثقافة، التي فرضها الجهل، الذي سببه الاستعمار الطويل؟ لا سيما أن هناك هوة بين الشعر الحديث والجمهور، وقد نشأت هذه الهوة على مستويات:

أ ـ مستوى حداثة الحركة، فالجمهور غير معتاد عليها، وهو قد عاش الثقافة التي فُرضتْ عليه، مما كوّن مسافة طويلة بين المعنى الذي تختزنه الكلمات وبين المعنى الذي يقصده الشاعر، وهو ما كان يمثّل عند علماء البلاغة التعقيد المعنوي.

ب ـ مستوى الثقافة خصوصاً أن الشاعر عدّ الوضوح، أساساً للإنسان المثقف الذي يملك رؤية، وفهماً للإيحاء والإيماء واللفتة الفنية.

ج ـ إن الشعر الحديث قد لا يعيش حياة الناس، ولذلك هناك الكثير من الشعراء المحدثين الذين يعيشون في برجهم العاجي، ويبتعدون عن التجربة الإنسانية وقضايا المجتمع.

يقول الشاعر: «إن مشكلتنا في كثير من التجارب الشعرية الحديثة هي أن على الإنسان أن يعتصر كل فكره ليتعرّف بكل ما يملكه من ثروة أدبية، ويعبر إلى الجسر الذي يربط بين المعنى اللغوي، وبين الفكرة التي يفكر بها الشاعر»[٢].

---

(١) مقابلة أجريتها مع الشاعر، بتاريخ ٢٣/ ٦/ ١٩٩٦.
(٢) صحيفة الديار البيروتية، ٢٥/ ٢/ ١٩٩١.

إن السيد يميز بين الفكرة الشعرية العميقة والتعبير المعقّد عنها، لأن الشاعر عندما يريد أن يطرح فكرة يجب عليه أن يعيشها قبل طرحها، ليتعرف على حركته في الواقع، ثم يبثها بصورة جلية للجمهور. فالوجدان عند السيد لا يطرح القبول بل الرفض كذلك، وبهذه الحالة يتخلّى الشاعر عن الغموض المعقّد: التعقيد المعنوي، لأن وضوح الرؤية/ المعاشة لديه تفرض وضوحاً في الأسلوب التعبيري، مع الحفاظ على عمق الفكرة (الذاتية).

إن الفكرة العميقة بأسلوب ركيك تشوش القارىء أو السامع، والفكرة البسيطة بأسلوب معقّد تؤدي إلى الغموض والإبهام، بينما الفكرة العميقة بأسلوب بسيط وباللغة التي يفهمها الناس هو الوضوح الذي يريده الشاعر للإنسان العادي أو المثقف.

يقول الشاعر: «إن التعقيد في التعبير عن الفكرة ليس إنسانياً، فنحن نعرف أن اللغة إنما وجدت للتفاهم».

إن الشاعر إذ يأخذ على الكتابة الشعرية العربية الحديثة، أنها كتابة لا تجسد إنساناً عربياً جديداً، يصفها بأنها كتابة ابتعدت عن أن تكون شعراً عربياً على الرغم من أنه لا ينزع عنها «عمق الإحساس وعمق الرؤيا وروعة اللفتة الفنية والإيحائية».

والسيد يعلن اختلافه الحاد مع هذه الكتابة الشعرية، ويرى بالتالي أنها تعاني من أزمة هوية، ونتساءل هل يستفاد من هذا الحكم أن السيد يبديه انطلاقاً من اختلافه مع الأشكال الفنية للكتابة الحديثة؟ أم نتيجة الغموض المهيمن على هذه الكتابة؟

إن الشاعر يختلف مع الذهنية التي تعدّ أن بمقدار ما تكون معقداً أكثر

تكون مبدعاً أكثر. يقول في قصيدة شاعر الريف:

(الرّمل)

شاعرَ الريفِ كم تقاسي وكم تلقى بدنياكَ، من عذابٍ وسجنِ
لوّعتني طيوفُ روحِكَ... فاهتزّ كياني على صداها ولحنِي
فتهالكتُ استحثُّ نجاواك فأبكي بوحيها... وأغني
عشتُ في عالم تواثب فيه نافرات الصَّدى على كلّ فنٍّ
لا يُحسُّ الحياة يبدعها الشاعر... في روعة الضحى المطمئنِ[1]

ل ـ مشاكل الشعر العربي:

تثير مقدمة ديوان على شاطىء الوجدان للسيد محمد حسين فضل الله، بعضاً من القضايا الأساسية المتعلقة بالشعر العربي الحديث، بصفتها ميزات أو مشكلات يعاني منها.

فالشعر هو الإنسان عندما ينفتح على وعي نفسه، وعلى وعي الكون والحياة، وقيمة الشعر هو في التعبير عن العمق الإنساني، وقضايا المجتمع، وبنائه في كل حاجاته الفنية والإبداعية والفكرية والسياسية، لأن الشعر إذا ابتعد عن مضمون الحياة يصبح بلا معنى.

لقد عدّ السيد أن الشعر العربي الحديث يمر بمرحلة دقيقة، وإن نظرة الشاعر السيد فضل الله إلى الشعر العربي اليوم، تنطلق من خلال اتجاهين:

أ ـ شعر النخبة الذي يتمتع بعمق الإحساس والفكرة، ولكنه يقول بتجارب الآخرين وهذا الاتجاه يعارضه السيد.

(١) محمد حسين فضل الله، على شاطىء الوجدان، ط١، ص ٦٩.

ب ـ الشعر الذي يقول بتجارب إنساننا ويحمل قضاياه، وهذا الاتجاه يتبناه السيد لأنه يشكل مضمون الحياة ومادتها الإساسية.

فماذا يعني السيد بإنساننا؟ أليس الإنسان الذي يعيش واقعنا في جميع مشكلاته الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والروحية، لا سيما آلام الإنسان العربي المسلم؟

إن الشاعر لا يتعقد من النخبة، شرط أن تعيش الذهنية الإنسانية التي تستطيع أن تتحرك من الإنسان وتجاربه لتفهمه ولتأخذ منه وتعطيه.

يقول الشاعر: «لم أقرأ حتى الآن أي شيء يمكن أن يعبر عن العمق الإنساني في المحنة»[١].

لقد عدّ السيّد فضل الله الموسيقى أساسية في الشعر، والتجربة الغنية بالمضمون الفكري، وعدّ الإبداع الذي يفتح الآفاق على التجارب الشعرية، لأن الإبداع هو تعبير عن الذات وإغنائها وحركيتها، فهل لذلك كانت فرادته التي حاول إثباتها؟ وهل في فهمه للشعر ما دفعه لرفض التأثر بأي شاعر من الشعراء الذين قرأهم؟ أو المذاهب الشعريّة التي لم ينطلق من دراسات لها ليتبنى بعضها في مواجهة البعض الآخر؟

«أنا لا أنفي تأثّري بالشعراء الآخرين ربما تأثرت بهم في التجربة الشعرية على مستوى التعبير الشعري، ولكن بالنسبة إلى التجربة الشعرية في المضمون كنت أعيش نفسي ولا أعيش الآخر»[٢].

كما وتثير مقدمة ديوان «قصائد للإسلام والحياة» والتي تمثل توجه

---

(١) مقدمة ديوان على شاطىء الوجدان، ط١، ص ١٠.

(٢) مقابلة أجريتها مع الشاعر، بتاريخ ٢٣/ ٦/ ١٩٩٧.

الشاعر الروحي جملة من المسائل:

١ ـ هناك فاصل زمني في موضوع كتابتها، وكأنها جاءت تعبيراً عن الأحداث الجسام التي واكبها السيّد، وعايشها.

٢ ـ اتصالها بالجانب الإسلامي، لأنَّ السيد وعى الحياة في عائلة دينية عريقة في الفقه والاجتهاد. لهذا مثّلت قصائده قيم الإسلام وعقائده وسماحَه وآفاقَه. . .

٣ ـ اتصالها بالجانب السياسي، حيث نشأ السيد في الزمن العصيب، زمن الاستعمار والتخلّف والظلم والاستبداد، فأثرت النكبات السياسية التي عصفت بالأمة الإسلامية والعربية في ذاته المرهفة، وعاطفته الجياشة، فإذا به يطل على الشعر الوطني الملتزم بقضايا الأمة والجماعة.

٤ ـ اتصالها بالجانب الروحي، لا سيما أن السيد داعية إسلاميٌّ، شُغف بالدعاء، وخلق جنّة أحلامه من خلال علاقته بالله تعالى ورسله، مما جعل شعره يفيض بالصدق والشفافية والطهر.

٥ ـ اختلاف الاتجاهات الفكرية، والأحاسيس الذاتية الخاصة، والتي جعلت تجربة السيد تنضج نضجاً تاماً، بالنسبة للماضي والحاضر والمستقبل.

٦ ـ إن قصائد للإسلام والحياة، تمثل فترة عمر، عاشه السيد آملاً، محباً، عاشقاً، داعية، سياسياً، حركياً، راثياً، قدوة. . .

وتمثل تجربة حياة، وهل العمر سوى تجارب يتعلم منها الإنسان أسمى دروس المعرفة، ويقتبس من خلالها إدراكاً واعياً وزبدة وخلاصة إنسانية؟ لا سيما أنه تحرّك وغرّد خارج السرب الديني التقليدي.

٧ ـ معاناة فكر، أطلّ من خلاله السيد على ما غزا المسلمين من فكر مضاد، كان لا بد من التحرك إزاءه، للمناقشة والتحليل والتعليل، لأن الإسلام دين الحوار.

٨ ـ إن القصائد التي سنطل عليها من نافذة هذا المدخل مثّلت وجهاً من وجوه مرحلة تاريخية من مراحل نمو الحركة الإسلامية وتطورها في نتاج أحد العاملين فيها منذ البداية. لأن السيد أراد منذ انطلاقته في النجف الأشرف العمل على إدخال الإسلام إلى واقع الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والإنسانية. ولم يجعله يحلّق في رحاب المثالية والأحلام، أو يقوقعه في زنزانة التاريخ، فهو مسلم حركي عامل في قلب الحركة الإسلامية التي فهم همومها ووعى قضاياها، وسن لها المبادىء ونظّر لفكرها الأصيل، مما أوحى إليه أنها كانت انطلاقة واعية مسؤولة وجديداً على صعيد ما ألفه الناس واعتادوه. . .

٩ ـ رصد القصائد المنظومة في ديوان قصائد للإسلام والحياة للإيجابيات والسلبيات من مراحل العمل الإسلامي، ليستلهم العاملون من الضعف قوة، فالهزيمة مثلاً ليست نهاية المطاف وإنما علينا أن نتخذ منها سبيلاً للنصر. والدين ليس أفيوناً يشلّ حركة الشعوب بل هو فكر تحرريّ، ونظام حق، ومحبة سامية، وعدالة موحية، ولنثابر على نقاط القوة لنخلق من وحيها إبداعاً وابتكاراً، وعملاً خلّاقاً يواكب الأجيال في سيرها الحثيث إلى الحرية والرقي والتقدم.

من هذا المعين سالت إيحاءات الشعرية، وفاض الشعر نهراً تدفق يروي عطش الظامئين إلى الحكمة والبيان والمعرفة.

هذه العناوين المستوحاة من مقدمة السيد في ديوان «قصائد للإسلام والحياة» هي المثال على التوجه الروحي/ الحركي الذي سعى الشاعر ليُغذي واقعه به، إخراجاً لهذا الواقع من تبعيّته وهمومه ومشاكله وقضاياه.

* * *

الفصل الثاني

علاقة السيد فضل الله الشعرية بالله تعالى

«إنّني أُعدُّ القرآن كتاب المعرفة، بحسب مدلولاته الثقافيّة الحركيّة والروحيّة».

أ ـ الخطوط العامة في منهج السيد فضل الله في معرفة الله:

يمتاز نهج السيد فضل الله في المعرفة الروحية بالخصائص التالية:

١ ـ الإيمان بأن القرآن هو مصدر المعرفة الأول ﴿**ذلك الكتاب لا ريب فيه هدىً للمتقين**﴾[١] وفي ذلك يقول السيد فضل الله: «إنني أعدّ القرآن كتاب المعرفة، بحسب مدلولاته الثقافية التي تتحرك بها ظواهره التي يفهمها الإنسان العادي بعقله وقلبه وإحساساه وشعوره بعيداً عن كل التكلفات الفلسفية في هذا المجال»[٢].

فالقرآن خاطب الناس جميعاً، بكل شرائحهم الاجتماعية والإنسانية، حتى أن الإنسان العادي البسيط الذي لا يسبر غور المعاني الكامنة في الآيات يقرأ القرآن، ويفهمه انطلاقاً من العقل والقلب، دون إلمامه بقضايا الفلسفة ومسائلها الغامضة. مع العلم أن الله قد تحدى الثقلين قائلاً: ﴿**قل لئن اجتمعت الإنسُ والجنُّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً**﴾[٣] يقول الشاعر:

---

(١) سورة البقرة، ٢/ ٢.

(٢) من مقابلة أجريتها مع الشاعر، بتاريخ ٢٣/ ٧/ ١٩٩٦.

(٣) سورة الذاريات، ٥١/ ٥٦.

(على وزن الكامل)

حسبي إذا القرآنُ عاشَ بخاطري فكرٌ رحيبٌ في المدى جوَّالُ
ومواقف للحق تحتضن الهدى في دربِها، وتحوطُها الآمَالُ
الصِّدقُ موعدِها إذا اهتَز السُرى في وحيه واشتَّدتِ الأهوالُ
والخيرُ موردها إذا ما استسلمت للشرِّ في خطواتِها الأجيالُ
والله مقصدها، ففي آياته تتعانق الأقوالُ والأفعالُ

٢ ـ المعرفة هي حركة روحية عملية مع الله: لأن المعرفة برأيه ليست بعداً عن الواقع واستغراقاً في التجريد فحسب، إنما هو ما «يُمثّل العلاقة الشعورية القلبية بالله، من خلال انفتاح إحساس الإنسان على الله، بما يعيشه ولا يملك التعبير عنه والحركية الروحية في عالم الممارسة العملية مع الله»[١] على الشاعر الإنسان أن يعيش الواقع، ويتحرك من خلال الواقع وهو ما حثّ الله تعالى عليه ﴿**الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيما كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض، قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها**﴾[٢] وهذا ما يمثل عمق العلاقة بين المخلوق وخالقه والكون، فيمارس العمل مع الله سبحانه والناس من حوله، وإذا انفتح إحساس الإنسان على الله تعالى أدرك سر وجوده وحياته يقول الشاعر:

فكرتي في مدايَ أن يخطو الإسلام في الكون، في الذّرى الشمَّاءِ
في إنطلاقِ الوجدانِ، في الفكرِ، في الحسِّ المندَّى بالحبِّ والنَّعماءِ[٣]

---

(١) من مقابلة أجريتها مع الشاعر، بتاريخ ٢٣/٧/١٩٩٦م.
(٢) سورة النساء، ٤/ ٩٧.
(٣) محمد حسين فضل الله، قصائد للإسلام والحياة، ط١، ص ٢٤٠.

٣ ـ الدعاء وسيلة للتقرب من الله تعالى: من خلال واقع العلاقة بين العبد وربّه، يشعر الإنسان بالحاجة إلى التقرب من الله أكثر وذلك «في ابتهالات الإنسان في صلاته ودعائه وتأملاته واعترافاته وعيشه الدائم مع الله، وطاعته لله في كل أموره»(١).

فالدعاء صلاة روحية بين العبد والمعبود، والعارفون هم الداعون والدعاة إلى الله يتضرعون إليه في البأساء والضراء: تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون(٢). وهو يمثل السلاح بين يدي الداعي ﴿**قل ما يعبأ بكم ربي لولا دعاؤكم**﴾(٣) يقول الشاعر:

(على وزن الخفيف)

أنا ـ يا ربّ ـ غارقٌ في بحارِ الوهمِ أحياهُ في الخيالاتِ شِعْرا
أعطني اللطفَ والطمأنينةَ الخضراءَ حتى أحولَ الشوكَ زهْرَا
أنتَ ربّي، من لي سِوَاك، فهبني نعمةَ الحقِّ في نجاواكَ ذِكْرا(٤)

٤ ـ حقيقة الإنسان العارف: وهو المتميز في علاقته وفي معرفته بالله، فـ «العارف/ الشاعر هو الإنسان الذي يعيش مع الله تعالى حتى وهو يعيش لذاته وشهواته، حتى وهو يفكر، وهو يتنفس وهو يعيش، لأن الله تعالى هو سر وجوده وسعادته»(٥). فالله لم يحرم طيبات للناس، ﴿**قل من حرم زينة الله**

(١) من مقابلة أجريتها مع الشاعر، بتاريخ ٢٣/ ٧/ ١٩٩٦م.
(٢) سورة السجدة، ٣٢/ ١٦.
(٣) الفرقان، ٢٥/ ٧٧.
(٤) محمد حسين فضل الله، قصائد للإسلام والحياة، ط١، ص ٢٥٠.
(٥) من مقابلة أجريتها مع الشاعر، بتاريخ ٢٣/ ٧/ ١٩٩٦م.

التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق﴾[١]. لكن علينا أن نعلم أن كل ما نعيشه ونلتذ به هو من فيوضات الله علينا ﴿**هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون﴾**[٢]. فالله أقرب إلينا من دمنا الساري في عروقنا ولا يغيب عنا لحظة واحدة ﴿**ونعلم ما توسوس له نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾**[٣].

(الخفيف)

في صلاتي لمحتُ معناك يا ربِّ امتداداً للنورِ في الآفاقِ
وتأملتُ... نحنُ إبداعُ كفّيك، مدانا مطالِعُ الإشراقِ[٤]

٥ ـ معرفة الله هي الحضور الدائم مع الله سبحانه وتعالى: تذكّر الله تعالى طمأنينة للإنسان لأن التذكر هو تواصل بين العبد والخالق ﴿**الذين تطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾**[٥]. فالمعرفة إذاً، حضور الله في النفس وهي «حضورك الدائم مع الله الذي ينمّي تجربتك في الحياة، ويجعلك أكثر تحملاً لمسؤولياتها، لا الذي يعزلك عن الحياة والإنسان»[٦]. إن هذا الحضور يمنح الإنسان الحركة الحيوية، ليكون خليفة الله في أرضه، تُلقى على عاتقه المسؤوليات الجسام، فيعمل ويجدّ ويثابر وهو يذكر الله تعالى.

---

(١) سورة الأعراف، ٧/ ٣٢.
(٢) سورة الملك، ٦٧/ ٢٣.
(٣) ق، ٥٠/ ١٦.
(٤) محمد حسين فضل الله، قصائد للإسلام والحياة، ط١، ص ٢٤٩.
(٥) سورة الرعد، ١٣/ ٢٨.
(٦) من مقابلة أجريتها مع الشاعر، بتاريخ ٢٣/ ٧/ ١٩٩٦م.

يقول الشاعر:

(على وزن الخفيف)

إننـا مسلمـونَ. . . كـلُّ تحـايـانـا سـلامٌ ودعـوةٌ للِّقـاءِ
لحياةٍ تهفو، لقلبٍ يرفّ الحبُّ فيه، في أغنياتِ الإخاءِ
وكيـانٍ يشـدُّهُ الحـقُّ بـالقـوةِ والعـزمِ فـي طـريـقِ السّمـاءِ
إنّنا مسلمونَ، ولتشهد الدُّنيا بأنّا في موكِبِ الأنبيَاءِ[1]

٦ ـ معرفة الله هي حضور الواقع في الذات: وهذا ما تمثله سيرة الأنبياء والأئمة، الذين عاشوا الواقع بكل تفصيلاته ولم يبتعدوا عنه قيد أنملة، بل سعوا لتغييره. ويضرب القرآن الكريم في ذلك العديد من الأمثلة: ﴿**ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين * إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون * قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين * قال لقد كنتم وآباؤكم في ضلال مبين**﴾[2].

إن هذا الحوار بين إبراهيم(ع) وأبيه وقومه دلالة واضحة على أن الأنبياء كانوا يعيشون في قلب الواقع ولهذا «نجد الأنبياء وهم الذين يعيشون قمة المعرفة الإلهية، كانوا أكثر ارتباطاً بالحياة وبمسؤولياتهم على الإنسان، لأن الحياة هي خلق الله ولان الإنسان هو عيال الله، ولذلك فلا بد لنا عندما نتحرك مع الله، أن لا نغيب عن الواقع، بل نكون أكثر استغراقاً في الواقع»[3]. الحياة نعمة من الله، والإنسان أفضل خلقه، وأقرب الناس إلى الله تعالى أنفعهم لمن حوله. ولذلك على الإنسان معايشة واقعه.

---

(١) محمد حسين فضل الله، يا ظلال الإسلام، ط١، ص ٦٦.
(٢) سورة الأنبياء، ٢١/ ٥٤، ٥٣، ٥٢، ٥١.
(٣) مقابلة أجريت مع الشاعر، بتاريخ ١٩٩٦/٧/٢٣م.

يقول السّيد:

(على وزن الخفيف)

إننا مسلمون، نؤمِنُ بالإنسانِ.. نحياهُ فكرةً وشعورًا
نلتقي في مداهُ بالخيرِ يبني لحياةِ الهدَى كياناً كبيرًا
نحملُ الحبَّ، نزرعُ الأرض بالألطافِ خيراً ورحمةً وسرورا
ويعيشُ السلامُ أحلامَهُ الخُضْر بأعماقِنا حياةً ونوَرا[١]

إن هذه الخطوط العامة في منهج السيد فضل الله في معرفة الله تعالى، جسدها في شعره لأنه يعدّ «أن الشعر هو مرآة الواقع للإنسان في حياته»[٢] وبما أن معرفة الله عنده تحمل هذه الدلالات والتي تلتقي مع توجهه الروحي في سيره وسلوكه وحياته. يقول: «لقد التقيت بالمعرفة بهذا المعنى الروحي البسيط منذ طفولتي»[٣]. حيث رأى في لحظات المناجاة والتوسل والدعاء، قمة العلاقة الروحية التي شكلت رؤى جسدها السيد فضل الله شعراً، يقول:

(على وزن الخفيف)

تلكَ دنياكَ تمنحُ الفرحَ الروحيَّ، تعطيك أمنياتِ الفؤادِ
فاحفظِ الخطَو، لا تخدِّرك أشواقُ الغدِ الحلو عن طريق الرّشاد
لا تدع فرحة الحياة تغشيك، فتعمى عن الشُّعاع الهادي
إنها سنة الوجود منى تزهو وأخرى تموت في الأصفاد[٤]

(١) محمد حسين فضل الله، يا ظلال الإسلام، ط١، ص ٦٦.
(٢) مقابلة أجريتها مع الشاعر، بتاريخ ٢٣/٧/١٩٩٦م.
(٣) مقابلة أجريتها مع الشاعر، بتاريخ ٢٣/٧/١٩٩٦م.
(٤) محمد حسين فضل الله، قصائد للإسلام والحياة، ط١، ص ٥٦.

ب ـ القضايا الروحية في شعر السيد

أ ـ الله تعالى في نظر الشاعر:

لا بد أن تكون نظرة الشاعر لله سبحانه وتعالى نظرة خاصة تحوي عمق ما كان يشعر به، ويعيشه، ويتحسسه ويراه في الخالق العظيم، فالله ليس إله العبادة فحسب، إنه بديع السماوات والأرض، الخالق على غير مثال الملك المتفرد بالعلو. فإذا بالشاعر يعيش مع الله تعالى حتى والناس من حوله، ليأخذ منه لحظة طمأنينة وسعادة، وإذا به ينظر إليه بعين اليقين، على أنه العلاء العظيم، والمهيمن على كل شيء. يقول: السّيد الشاعر:

(على وزن الخفيف)

أنا يا ربِّ في طريق أَحثُّ الخطوَ نحو العُلا وأنت العلاءُ
فاهدني الدرب، إنَّ خطوي حيرانُ ودنيايَ حيرة وشقاءُ
أنا إمَّا جلست في اللَّيل ألقاكَ بقلب يموجُ فيه الصّفاءُ
كصباحٍ تنوّرُ الشمسُ جفنيه وتزهو بجانحيه السماءُ
وإذا لفني النهار مع النَّاس، وحنّت لرجسها الأهواءُ
فأنا تائه فقد يجمح الخطو، وقد يحجب الضياء بلاء
سرعة في اللسان، قد يحجب التفكير فيها مع الضجيج هراءُ
واضطرابٌ في فكرة لست أدري كيف غشّى نجوى هداها الغِشاءُ
وإذا بي وقد حملت ذنوبي فوق ظهري ـ يقودني الإعياءُ

ويعـودُ المسـاءُ فـالقلـبُ فـي نجـواكَ حـرٌّ وفـي الشِّفـاهِ نـداءُ
وإذا بـالحيـاءِ يلجـمُ نجـواي فهـل شـافـعٌ لـديـكَ الحيـاءُ(١)

نلاحظ في تركيب النص، الحضور القوي لذات الشاعر، وذلك من خلال الضمير المنفصل «أنا» و «ياء المتكلم» في (طريقي، فاهدني، خطوي، لفني، أنا، أدري، بي، ذنوبي، ظهري، يقودني، نجواي) والضمير المستتر وجوباً في الفعل أحث. هذا الحضور للذات يسخره الشاعر نحو هدف واحد، يسعى إليه بكل ما أوتي من قوة، وهو الوصول إلى العلاء المطلق/ الله تعالى. وإن دل هذا التركيب الخبري على شيء، فإنما يدل على أن العلاقة بين الشاعر والله سبحانه ليست علاقة عادية، وأن نظرة الشاعر إلى الله تعالى، هي نظرة من يدرك دونيّته، مقابل ترفع الباري في رحاب الملكوت الأعلى، والعلاء الذي تفرّد به الله وحده.

﴿سبح إسم ربك الأعلى﴾(٢). ﴿فتعالى الله الملك الحق﴾(٣).

وبالإنتقال إلى التراكيب، يطالعنا الضمير «أنا» مبتدأ مقابلاً بجملة معترضة ـ «يا رب» ـ وهي جملة إنشائية أسلوبها النداء، ويحمل هذا الأسلوب هوية المناجاة والدعاء، وكأن الشاعر بعد ذكره «للأنا» المختصة حقيقة بالباري تعالى، كونها من أسمائه الحسنى، «إنني أنا الله لا إله إلا أنا»(٤). ينتبه من غفلته ليعترض «أنا» المعبّرة عن ذاته بأسلوب النداء الذي توجه به إلى الله، ليؤدي هذا النداء وظيفة تعبّر عن تنبه الشاعر مما وقع فيه.

(١) محمد حسين فضل الله، قصائد للإسلام والحياة، ص ١٣.
(٢) سورة الأعلى، ١/٨٧.
(٣) سورة طه، ٢٠/ ١١٤.
(٤) سورة طه، ٢٠/ ١٤.

ويأتي تركيب الجار والمجرور «في طريقي» ليعطيا بُعداً مكانياً لتحرك الشاعر في سيره وسلوكه.

هذا السير الذي وظفه الشاعر ليدل من خلاله على أنه في هذه الحياة وفي طريقها الذي يسلكه يسعى، وسعيه ليس سعياً وراء الجاه والعظمة والمكانة المرموقة. فإذا ما قال «أحثُّ» تبادر إلى الأذهان فعل الحركة في هذا الفعل الذي يدل على السرعة والحيوية. ليخرجه من دلالته الحقيقية، حيث أسنده للخطو، فهو يحاول أن يحث الخطو على الإسراع، ليعبر عن مدى شوقه وتوقه لنيل العلا والسمو بذاته نحو العلاء، فإذا بالعلاء الله للمتفرِّد بالملك والسمو والعظمة.

فالضمير «أنت» المنفصل أورده الشاعر على سبيل الإبتداء ليستدرك الخبر «العلاء» وجهته وتحديد سيره وسلوكه، الذي بدأ من قبل الشاعر بفعل عمل إرادي، وانتهى بالله تعالى، /«العلاء»/ والترفع، تاركاً بين شفتي الشاعر لهجة النداء والدعاء والإعتراف بالعجز والسعي الحثيث للوصول إلى موقع العلاء، حيث رضى الله، والانفتاح على رحابه.

والله ليس علاء فقط، إنه في نظر الشاعر حقيقة مطلقة، رآها في كل شيء، لأنه أراد أن يعيش الله في كل تحركاته وسكناته، يقول:

(على وزن الخفيف)

«ربِّ أنتَ الحقيقةُ الحقُّ، من لي أن أناجيك في خشوعِ الحنينِ...
كلَّما امتدَّ بي إليك وجودي باحثاً خلفَ سرِّك المكنونِ
وتسلَّقت كُلَّ آياتك الكبرى إلى وحيك الحبيب الحنونِ
كلما لاح لي الشُّعاعُ وأيقنت بأني حطَّمتُ كلَّ سجوني

ردَّني عالمي فأوشكتُ أن أهويَ في التّيهِ في غمِار الظُّنُونِ»[١]

نلاحظ في هذا التركيب أيضاً حضور أسلوب النداء، ولعل واقع العلاقة بين المخلوق والخالق، القائم على المناجاة والدعاء، يستدعي حضور مثل هذا الأسلوب فهذا الحضور ليس مستغرباً في حالة إنسانية وجدانية، تقوم على المناجاة والدعاء، فقد يعد الشاعر أن طريقة الحديث مع الله تعالى يقوم على هذا الأساس، فهو يمثل عمق الصلة الروحية بين العبد وخالقه، الذي يمثل في نظر الشاعر «الحقيقة الحق التي يبحث عنها الضالون والتائهون، ويتوق لمعرفة كنهها كل الراغبين بالمعرفة. وفي إسناد «الحقيقة» للضمير المنفصل «أنت» العائد لله تعالى صفة اسم من أسماء الله الحسنى، فهو الملك، الحق والكبير المتعال. وهذا المعنى الذي يلتقي فيه الشاعر مع المفهوم القرآني، لم يقدمه لنا مباشرة وإنما من خلال الإسناد الذي قام بين الضمير «أنت» المبتدأ والخبر الحقيقة، والصفة الحق.

ويأتي أسلوب الاستفهام بواسطة «من» ليعبّر الشاعر عن أنَّهُ لا يأمَلُ استجابة مناجاته إلَّا من الله، وأن لا جود خارج الله الذي وهب الحياة للكون وهي نعمته الكبرى، ﴿الّذي خَلَقَ الموتَ والحياةَ لِيبْلُوكُمْ أيُّكُم أحْسَنُ عَمَلاً﴾[٢].

وإذا ما أسند الشاعر الحياة للفعل المضارع «تخضر» خرجت هذه الحياة عن نسقها الموضوعي ليمنحها الشاعر هويّة نباتيّة، أو يجعلها تصبح ربيعاً أخضر، وكأن الشاعر كان يعيش حالة الموت والتلاشي في أعماقه، وإذا بالحياة التي خرجت من الله «تخضرّ» «في روحه» وبذلك اتخذت هذه

---

(١) محمد حسين فضل الله، قصائد للإسلام والحياة، ص ٣١.
(٢) سورة الملك، ٢/٦٧.

الحياة بعداً آخر هو الشّباب الذي يمثل العنفوان والزّهو في الذات. فالإخضرار في روح الشاعر يعني بعث القوّة والنشاط في كيانه، ﴿**أو من كان ميتاً فأحييناه**﴾(١). لكن نبات الشاعر الذي نما في روحه وأعماقه، ليس جنات أو حبّاً فحسب، بل هو الحياة كلها، هذه الحياة التي يمنحها الشاعر هويّة جديدة تضيء الهوية الأولى، وهي الحال «زهوا» في ما يمثل الزّهو من فرح وسعادة، فالحياة النباتيّة المخضرّة في روح الشاعر تزهو وتختال، وكأن الماء الذي نزل على أرضها أنبت الفلّ والياسمين الذي خرجت الحياة به لتختال مزهوّة فرحة. وإذا بالفلّ والياسمين يرتبطان إرتباطاً وثيقاً بسياق الحديث عن الحياة التي منحها الله للشاعر حيوية ونضارة وزهواً وإشراقة ورد تعطر برائحتها الزكية أعماقه، وتمنحه الأمل والضياء.

لقد نظر الشاعر إلى الله تعالى نظرة خاصة، وكان لهذه النظرة أبعد الأثر في نفسه، لأنه شكل حركة الحب النابعة من قلبه، والتي غمرت كل كيانه، لذلك عد المعرفة الحضور الدائم مع الله وهي تغني تجربة الإنسان الروحية، والله تعالى هو سر وجود الإنسان وسعادته، فالحياة «هي خلق الله والإنسان هو عيال الله»(٢).

والشاعر كبقية المسلمين يعتقد بقدرة الله وعظيم ما يمنحه للإنسان، يقول في قصيدة من الشعر الحر:

(الرَّجز)

«فنحنُ مسلمُونَ

نؤمن باللهِ. . .

الذي فجّر في الإنسانِ. . .

---

(١) سورة الأنعام، ٦/ ١٢٢.

(٢) مقابلة أجريتها مع الشاعر، بتاريخ ٢٣/ ٧/ ١٩٩٦م.

طاقاتِ فكرٍ... يَصْنَعُ الحياةَ كالجنانْ
ويلتقي بالأرضِ، والفضاءِ والزَّمَانْ
ليكشف السرّ الذي تحضنهُ الأكوَانْ»[١]

ينطلق الشاعر في بداية قصيدته من فكرة خبرية، تفيد الإقرار والخضوع والإنتماء إلى الدين الإسلامي الحنيف، الذي يؤمن به ويعتقده إسلاماً ينطلق من الإيمان بالله، عملاً بقوله تعالى: ﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله﴾[٢]. وهذا ما دفعه إلى الإعتقاد والإيمان بالله إلهاً واحداً لا شريك له، وكل ما في الوجود فيض عن الباري، الذي فجر في الإنسان طاقات فكر، يصنع الحياة كالجنان، والله هو الذي «فجر الأرض عيوناً» يفجر في ذات الإنسان كل قدرة على الإبداع والعطاء، فإذا ما جعل الله من الماء كل شيء حي، وخلق من الماء جنات من نخيل وأعناب، تبهج العين والقلب، كذلك فجر طاقات الإنسان لتصبح جنائن غناء خضراء مليئة بالحيوية، فإذا بها تخرج عن وضعها الطبيعي، فيها الخير والمحبة وحب العطاء، وهذا الفكر الذي فجره الله يلتقي بالأرض التي أَسَالَ الله الماء عليها، فاستحالت إلى رياض جميلة، ولا يكتفي الفكر بلقاء الأرض، بل يمتد لقاؤه ليطال الفضاء، هذا الفضاء الذي أنزل الله منه المطر فسال أودية وينابيع في الأرض، تطاول الكائنات في كل آن ومكان. وإذا ما طاول الفكر الفضاء والزمان، وكما أن الماء الذي يفجر في الأرض، يكشف فيها الزرع والنبات والعشب والجمال، فإن الفكر يكشف السر الذي تحتضنه الأرض ويضمه الفضاء، ويخفيه الزَّمان.

(١) محمد حسين فضل الله، قصائد للإسلام والحياة، ص ٩٦.
(٢) سورة البقرة، ٢/ ٢٨٥.

إن الله تعالى في نظر الشاعر واحد أحدٌ تنزَّه عن مجانسة مخلوقاته، فكل ما في الدنيا فيض من رشح عطائه، وكل كائن مصيره الفناء ولا خالد إلا الله. يقول الشاعر:

(على وزن الخفيف)

«أحدٌ أنت يا إلهي من النَّاس، وما الكونُ؟ أنتَ أنتَ الحقيقةْ
كلُّنا في الظلال نخطو وفي الشّمس تزولُ الظلالُ وهي مشوقَةْ
لكَ حبّي في روعةِ الليلِ في هدَأةِ أحلامِهِ العذَابِ الرقيقةْ
وعلى موعد الضّياءِ، تلفتُ لأرعَى على هُدَاكَ شروقَهْ
وأنَا هاهُنَا تنهّدُ روحٍ بعثرَتْ فتنةُ الضَّلالِ طريقَهْ»[1]

قدم الشاعر الخبر «أحد» لإظهار أهمية الوحدانية، التي تمثل جوهر المعرفة بالله، فالله تعالى إله واحد لا شريك له، ففكرة الألوهية تختلف بمفهومها عند البشر، والله تعالى قد عبر عن هذه الفكرة في أكثر من مكان وموضع في القرآن الكريم، حيث ذكر تعالى: ﴿**قل هو الله أحد* الله الصمد* لم يلد ولم يولد**﴾[2]. وفي آية أخرى ﴿**قل إنما يوحى إليّ أنّما إلهكم إله واحد**﴾[3]. هكذا رأى الشاعر الله، واحداً لا شريك له ولا نظير، ناجاه بواسطة حرف النداء «يا» متلذذاً في ذكره، وشاعراً بالطمأنينة بهذا الذكر، لأن به تطمئن القلوب، وتهدأ النفوس. ويأتي أسلوب الاستفهام «من الناس، وما الكون؟» ليفيد الشاعر من خلال هذا الاستفهام بأن لا وجود للحقيقة خارج الله سبحانه الذي خلق الكون على غير مثال، خلق الإنسان، والسماوات،

---

(١) محمد حسين فضل الله، قصائد للإسلام والحياة، ص ٢٣٩.
(٢) سورة الإخلاص، ١١٤/ ١، ٢، ٣.
(٣) سورة الكهف، ١٨/ ١١٠.

والأرض والجبال والبحار والأنهار، والليل والنهار. فحقيقة الناس والكون مستمدة من حقيقة الله تعالى، الذي طلب من الإنسان أن يتساءل عن عظمة خلقه وحكمة خالقه: ﴿**سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق**﴾[١]. فالاستفهام الذي أورده الشاعر دلالة على مدى صغر الناس والكون أمام عملية الخلق العظيمة، التي تبرهن على عظم الخالق، الذي يعود الشاعر لمناجاته «أنت أنت الحقيقة» منتقلاً إلى توكيد الضمير المبتدأ «أنت» الأول بالضمير «أنت» الثاني، لأنه لا حقيقة إلا الله، ولا وجود لكل ما خلق تعالى خارج ذاته القدسية، فحضور الضمير (أنت) ثلاث مرات في الشطر الأول والثاني لقاء بين فكرة الوحدانية والألوهية التي تتمثل بالله تعالى، وفكرة الحقيقة المطلقة التي لا تصوّر لها ولا وجود أو واقع خارج الذات الإلهية. ولا حقيقة غير الله والتأكيد على أن كل شيءٍ فانٍ ومصيره الزوال، وتبقى هذه الحقيقة الخالدة. وفي هذا يلتقي الشاعر مع مفاهيم الآيات التي يتحرك شعره في أجوائها، وعبر رحابها ﴿**كل من عليها فانٍ ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام**﴾[٢]. ومن للعاقل، وهي التي ذكرها الشاعر في معرض تساؤله (من الناس؟؟)، و ﴿**كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون**﴾[٣]. والشيء هنا لغير العاقل يستدعي وجود ما الدّالة على غير العاقل في تساؤل الشاعر (ما الكون؟؟) خارج الحقيقة الإلهية، وبعيداً عن الله الذي خلق على غير مثال، وهو قادر أن يخلق مثلهم ساعة يشاء.

فإذا ما كان الله تعالى هو الحقيقة التي لا وجود لشيء بدونها، كان

(١) سورة فصلت، ٤١/٥٣.
(٢) سورة الرحمن، ٥٥/٢٦ و٢٧.
(٣) سورة القصص، ٢٨/٨٨.

التحرك خارجها، تحركاً في الظلال، لا في النور، لأن الله نور السماوات والأرض، يهدي لنوره من يشاء. ولذا نرى الشاعر ينتقل في التركيب الثاني إلى صورة السعي، والخطو في الظلال، التي تمثل ظلمات الحياة، وما يعترض الإنسان من مشاكل ومخاطر، لا يجرؤ على مقاومتها أو صدّها إلا بالتزود من شمس الحقيقة ونور اليقين. والمبتدأ «كل» المضاف إلى ضمير المتكلمين «نا» تأكيد من الشاعر أن البشر جميعهم على حد سواء يخطون في الظلال، وفي إسناد الفعل نخطو للشاعر وغيره إسناد حقيقي فيه دلالة على السير والسّعي في هذا الوجود. لكن السؤال: هو أين خطو الشاعر وغيره؟ هل هو في طريق الهدى والنور؟

و ﴿**الله وليّ الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور * والذين كفروا أولیائهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات**﴾[1]. إنّ خطو الشاعر، وباقي الناس في الظلال التي لا تتضح فيها السبل حقيقة أمام الشاعر وغيره. فالظلال كناية عن الأفياء التي تحمل دلالة الظلام/ مقابل نور الهدى، والإيمان والرشاد الذي اختص به الله تعالى، الذي آمن به الشاعر أحداً، حقيقة، لا وجود خارجه، ثم بيّن أن السلوك والسّير خارج هذه الحقيقة هو خروج عن النهج الواضح المنير، إلى دنيا الجهل والظلام. وتأتي «واو» الحال لتساهم في إغناء هذه الصورة التي رسمها الشاعر، فالشمس إذا ما ظهرت بدّدت ظلمة الليل والظلال، وأوضحت معالم الأشياء، كما أوضح الله تعالى سبيل السالكين في دربه ونهجه. فالشمس هي نور الله، الذي يزيل ظلام الجهل والانحراف، وينطلق بالإنسان في رحاب السحر، والجمال والرؤية اليقينية التي لا ضباب يحجبها عن عيون المهتدين، وإذا ما خطرت

---

(١) سورة البقرة، ٢/ ٢٥٧.

شمس الإيمان، وانبلج نور الله زالت هذه الظلال و «هي مشوقة» وواو الحال هنا أيضاً تصوير من قبل الشاعر للظلال التي أخرجها عن نسقها الموضوعي، ليمنحها هوية جديدة إنسانية، من خلال لفظة «مشوقة»، وكأن الظلال التي يخطو فيها الشاعر مع غيره، تشتاق هي الأخرى نور الحقيقة واليقين ليشرق على الجميع، فيعيش الناس والكون بأجمعه نور الحقّ اليقين، ومشكاة الأنوار ﴿**مثل نوره كمشكوة فيها مصباح**﴾(١).

هكذا نجد نظرة الشاعر إلى الله تعالى، نظرة مختلفة عن نظرة الناس، هذه النظرة عاشها الشاعر في معظم قصائده، التي انفتح بها على الله سبحانه، وعاش كل مشاعره وأحاسيسه من خلالها مع الله تعالى. لذلك نجد أن هذا الجو فرض على الشاعر حالة خاصة، تحمل الكثير من الشفافية والروحانية. وهذا ما أكده الشاعر: «أنا عشت في كل تجربتي مع الله، عشت مع الله في آلامي وفي أحلامي وفي علاقتي بالحياة وبالناس في كل التفاصيل التي تمر بالحياة»(٢).

ولعلّ ما أظهر الشاعر في شعره عن مدى هذه التجربة التي فتح من خلالها كلّ كيانه على الله تعالى، وعمقها خير شاهد على ما ذكره من ربط كلّ التفاصيل التي تمرّ في حياته بالله تعالى.

فالتجربة الشعرية التي هي أصدق تعبير عن حياة الإنسان، وواقعه، دلالة واضحة على أن الشاعر، عاش مع الله في أدق تفاصيل حياته، حتى أنه كان يتهيأ الفرصة المناسبة لأخذ لحظة عرفانية يعيشها مع الله تعالى.

---

(١) سورة النور، ٢٤/ ٣٥.

(٢) مقابلة أجريتها مع الشاعر، بتاريخ ٢٣/ ٧/ ١٩٩٦.

خلاصة عامّة:

هنا يطرح السؤال التالي: «هل أدت النصوص المختلفة للشاعر النتائج المطلوبة؟».

إنّ العودة السريعة، إلى مختلف النصوص التي عالج فيها الشاعر نظرته إلى الله، أصدق دليل على حال التكامل التي أبرزها من خلال نماذج قصائده المتعددة، فقد بدأ بحث الخطو نحو علا الله سبحانه، ليصل إلى الإيمان المطلق أن الله هو الحقيقة الحق وما من شيء خارج هذه الحقيقة، فالحياة والكون من مصدر واحد، وجوهر لا يتبدّل ولا يتغيّر وهو الله تعالى.

فلئن كان الشاعر يسعى إلى غذاء روحه الذي لم يفصله لحظة عن العلاقة بالخالق العظيم، فإن الله سبحانه كان بالنسبة إليه الرب، والملجأ، والملاذ، وموضع الشكوى، فإذا بشعره يصور واقع الحاجة إلى هذا الغذاء الروحي، ما دفع الشاعر إلى إفراد الكثير من القصائد المتعلقة بالدعاء والتوسل وطلب المغفرة والرضوان، وحتى إفراد الفصول المطولة تحت عنوان «مع الله» الخالق الذي دعاه الشاعر بلسانه ولسان الجماعة التي حمل همومها وآلامها.

لم يترك «السيد» مناسبة إلا وأكد على أن الروح التي يحملها الإنسان المسلم، هي روح القيم والمبادئ، التي آمن بها المسلمون هُدىً وصلاحاً وتقوىً وعبادة، يقول الشاعر: (على وزن مجزوء الكامل)

يا ربِّ هبْ لي فكرة بيضاء تشرق في حياتي
تستلُّ من قلبي الشكوك على جناحِ الأمسياتِ
وتهيبُ بي أن أستعيد بلطفِ روحِك أمنياتي

وأرشَ دربـــي بـــالــربيــعِ الحلــو فـــي آفـــاقِ ذاتـــي
وأراك فـــي وجـــدان تـــاريخـــي شـــروقـــاً فـــي صـــلاتـــي
حســـبُ الحيـــاة، رســـالـــةٌ تهـــدي إلـــى سبـــلِ النجـــاةِ
فعلـــى انطـــلاقِ الـــدَّرْبِ وحـــيُ الفتـــح فـــي خطـــوِ الهـــداة
وعلـــى شـــروق الفجـــر لمـــحٌ مـــن تبـــاشيـــر الأبـــاة
هـــب لـــي هـــدى الإســـلام يـــا رب امتـــداداً للثبـــات
أسلمْـــتُ كـــلَّ العمـــر فـــي جفنـــي لـــربِّ الكـــائنـــاتِ[1]

بهذه الروحية يسلم الشاعر عمره لله تعالى، باعثاً في هذه الروح الإنسانية ألطاف الروح الربانية الإلهية، ليحيل الحياة ربيعاً لا يعرف غير العطاء والحيوية، ولتبقى الرسالة في كيانه امتداداً لتربية كتاب الله تعالى.

هذه النظرة ليست غريبة عن الشاعر، فهو إلى جانب شعريته عالمٌ إسلامي آمن بروحية الإسلام، وعظيم سماحه، وأمل أن يحكم الإسلام الكون والمجتمع والحياة:

يقول على:

(وزن الخفيف)

غيرَ أني وقد زحفتُ إلى الخمسين، ما زلتُ أحمِلُ الآلامَا
ربِّ هَبْ لي أن أستريحَ إلى العمر جهاداً يحطُم الأصنامَا
فتعـود الحيـاةُ تَشْرِقَ بـالـدعـوةِ حبـاً ويقظـةً وسـلامَـا
حول فجر يؤَذِنُ النور فيه أيها النَّاسَ حكِّموا الإسلاما»[2]

---

(١) محمد حسين فضل الله، قصائد للإسلام والحياة، ص ٢٤٧.
(٢) محمد حسين فضل الله، قصائد للإسلام والحياة، ص ٢٤٧.

إن الشاعر يزحف إلى السبعين، ولا زالت روح الإسلام، وآفاقه تجتاح أحلامه وتطلعاته ورؤاه. . .

ب ـ محبة الله:

أحب الشاعر الله بكل جوارحه، أحبّه في كل شيء، وتحدّث معه حتى والناس والكون من حوله وفي ذلك يقول الشاعر: «فأنا أتحدث مع الله حتى والناس من حولي لآخذ لحظة شعوريّة أُعبِّرُ فيها لله عن شكري في ما يستوجب الشكر، عن ألمي تارةً عندما أعيش بعض الأحلام»[١]. حديث الشاعر مع الله تعالى هو حديث المحبّ مع حبيبه، الذي يجد فيه كلّ ما يحتاجُ إليه، فإذا ما أحب الحبيب الأوّل، فلأنه علة الوجود، وسرّ الجمال الطهور، وهو الغفور الرّحيم الذي وسعت رحمته كل شيء، وباسمه التقى الشاعر في خطرات الشباب، ليأخذ اللحظات الشعوريّة شاكراً الله سبحانه على آلائه ونعمه الكثيرة، التي لا تعدّ ولا تحصى، والتقى من خلال محبّته لله بكلّ المعاني التي تبعث الحياة، بكلّ الهدى السّمح يمتد في القلوب، فيثير فيها الحبّ الشديد، والشغف بالخالق العظيم، والتعلق برحابه. فعلى الإنسان أن يعيش الله في كلّ لحظة من لحظات حياته، كما يحبّ الإنسان الخلوّ بحبيبه دائماً. «لأن الله هو سرّ وجوده وسعادته فلا يملك الإنسان أيّة لحظة أو أيّ موقع يغيب فيه عن الله سبحانه وتعالى»[٢]. لذا كان لحب الله الموقع الأبرز في شعر السيّد فضل الله، خصوصاً أنّ القرآن الكريم قد ذكر أن محبة الله لا يمكنها أن تجتمع مع حب الإنسان لإنسان آخر ﴿**لَا تَجِد قَوْماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يُوادُّون منْ حادّ الله ورسُولَهُ ولو كانُوا آباءهُمْ أو**

(١) مقابلة أجريتها مع الشاعر، بتاريخ ٢٣/٧/١٩٩٦م.
(٢) مقابلة أجريتها مع الشاعر، بتاريخ ٢٣/٧/١٩٩٦م.

أبنَاءهُم أو إخوانهم أو عشيرتهم. . .﴾[١].

فالود والمحبة ينطلقان من الإيمان العميق بالله، والتمسك بما أمر ونهى ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعون يحببكم الله﴾[٢]. يقول الشاعر في قصيدة بعنوان: «أحبك يا رب».

(على وزن المتقارب)

أُحبُّك يا رب حُبَّ الحياة تفجّر في راحتيها العطاءْ

فمنك الوجودُ بكلِّ رؤاهُ ... بكل ذراه ومنك الرخاءْ

وأنت نثرت اخضرارَ الربيع ... على الأرض فاهتزّ فيه النمّاءْ

ومنكَ الشُّعاعُ الذي يستحِمُّ ... على ضفّتيهِ الهُدى والهناءْ

يرفرِفُ في الفجرِ نوراً تُثيرُ ... لنا الدّفءَ فيه المعاني الوضاءْ

وينسابُ في لفتاتِ المساءِ ... فيعذبُ كالحلمِ فيه الهواءْ

ونُعْماك كُلُّ انطلاقِ الحياةِ ... يطوفُ بأقداسِها الأصفياءْ

وأنت الذي تمنحُ المتعبين ... نَداكَ فيذهبُ فيه العناءُ

وماذا أقولُ: أَأُحصي نداك ... . . ويلهَثُ في مقلتيَّ الحيَاء[٣]

قدم الشاعر نفسه محباً لله تعالى متعلقاً به، من خلال منظار الحياة، بما تحمل هذه الحياة من هبات ونعم، قدّمها الشاعر دلالات نستوحي من خلالها سبب الحب. فنحن نعلم أن الإنسان يحب، ويتعلق غالباً بمن يعود عليه بالنفع والفائدة، فكيف إذا كان المحبوب هو الذي منح الوجود والحياة والنِّعم كُلّها؟!

---

(١) سورة المجادلة، ٥٨/ ٢٢.

(٢) سورة آل عمران، ٣/ ٣١.

(٣) محمد حسين فضل الله، قصائد للإسلام والحياة، ص ٢٣.

فالفعل «أحب» أسند إلى ضمير النصب (الكاف) العائد إلى الله تعالى، والمحب هو الشاعر الذي لا يحب ماضياً فحسب بل حاضراً ومستقبلاً، والفعل «أحب» بعفويته يحمل كل المعاني التي تختصر الكثير من علاقات الإنسان مع غيره، فكيف إذا كانت علاقة الحب والهيام مع الله تعالى؟

والحب الذي يمتلك كيان الشاعر، لا يتوجه بالمطلق، بل يناجي الشاعر الله بواسطة أسلوب النداء «يا رب» ليبين نوعية هذا الحب وسببه، ويأتي المفعول المطلق «حب» ليؤدي وظيفة جديدة لهذا الحب، وقد ورد المفعول المطلق من أجل بيان نوع الحب الذي يحبه الشاعر لله، وذلك بعد إضافة المفعول المطلق «حب» إلى الحياة، وفي هذه الإضافة أخرج الشاعر الحياة عن نسقها الموضوعي، وأكسبها هوية الإنسان والنبع، وهذا ما تؤديه دلالة الشطر الثاني: (تفجر في راحتيها العطاء)، فالحياة لم تعد حياة عادية إنها إنسانٌ يبسط راحتيه، ومن راحتيه يتفجر العطاء ينبوعاً يدفق بالخير والبركات، كل ذلك بفضل الحب الكبير الذي تملك قلب الشاعر، تجاه الله تعالى. ولعل هذه الهوية الجديدة التي أكسبت (الحياة) بعداً إنسانياً، وكونياً تطل على السياق العام للمعنى الذي ذكر فيه الشاعر حبه وشغفه بالله، ونوعية هذا الحب والشغف، فالإنسان المحب يوزع حبه على كل ما حوله، ويشعر بأنه يحب كل شيء نتيجة حبه، وهو ما يؤديه «النبع» الذي يتفجر في الربيع حباً وعطاء، فيسيل ماؤه في الطبيعة مانحاً الحياة والوجود والحب، لكل ما يمر به أو يقع عليه، ولعلَّ الراحة التي أسندها الشاعر للحياة تشكل تأكيداً على أنها كالنبع، فهي آلة العطاء وإسنادها للحياة تأكيداً لكرمها.

وإذا ما بين المفعول المطلق «حب» في البيت الأول نوع الحب الذي يحبه الشاعر لله، فإن البيت الثاني بما فيه من تراكيب يبين سبب الحب عند

الشاعر (فمنك الوجود بكل رؤاه) حيثُ إستأنف الشاعر بواسطة فاء الإستئناف ليظهر ترابط نوع الحب وسببه، فحرف الجر «من» والضمير المجرور «الكاف» يشكلان شبه جملة تتعلق بخبر المبتدأ المؤخر الوجود وتقديره «حاصل» والجار والمجرور في البداية يحملان هوية مكانية توحي بالمصدر الذي انطلق الخير منه، وتفجر العطاء من خلاله، فإذا به الله تعالى الذي أنزل الماء فسلكه ينابيع في الأرض. فهذا كلّه عطاء الله وعظيم فضله ونعمه. فالأرض الميتة أحيتها الينابيع والعيون التي فجرت من قلب الأرض جنات باسقات ﴿**وجعلنا فيْهَا جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون**﴾[(١)]. أفبعد هذا من ينكر ولا يؤمن مع الشاعر أن الوجود بكل رؤاه هو من الله تعالى؟ ﴿**أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماءً فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها...**﴾[(٢)].

فالمبتدأ المؤخر «الوجود» يفيد أنَّ الكون بكل ما فيه يمثل المكان الذي أنعم الله به على الناس بنعم لا تحصى، وبجميع رؤاه الموجودة هنا وهناك، هذه الرؤى التي تمثل عطاء الخالق، الذي يحبه الشاعر لعظيم فضله ومنّه، ولا يستقرُّ العطاء الإلهي على الأرض فحسب، بل يطاول الذُّرى التي يستقر فيها ماء السحاب قبل أن يصل للأرض، وعليها تظهر خيرات الله، سبحانه، وبركاته.

وإذا ما كانت الحياة تفجَّرت في راحتيها عيون وجداول العطاء فهي تمثل كل الكرم والطمأنينة والسعادة، وكذلك الوجود بما فيه وعليه، فمن الله تعالى الإستقرار الذي هو حالة طبيعية للمكان الذي يتوفر فيه الخير والفضل.

---

(١) سورة يس، ٣٦/ ٣٤.

(٢) النمل، ٢٧/ ٦٠.

فلا استقرار حيث لا حياة، ولا كرم، ولا وجود، ولا عطاء. وكل الرخاء حيث ذلك، فإذا صدر كل الحب والنعيم عن الله تعالى فلا شك أن من الله الرخاء أيضاً.

إنَّ الأبيات نسجت من معانيها معنى واحداً، يعبر عن مدى حب الشاعر وهيامه وشغفه بالله تعالى، والتعلق برحابه والذوبان في محبته.

والشاعر الذي أحب الله حب الحياة، لكل النعم التي منحها لعباده، أحبه حباً من نوع آخر، لأن الله تعالى يمثل في نظر الشاعر، ملجأ المغفرة والرحمة والطمأنينة والراحة والإستقرار، ولأن الله تعالى خلق الحياة دعوة النُّور، والهدى والصلاح والإيمان: (المتقارب)

«أحبّكَ يا ربِّ رباً غفوراً كما النّورُ يطوي الظلامْ
كشلال حبٍّ كينبوع وحي ترقرقَ فيه الرِّضا والسلامْ
أحبكَ حبَّ السماحِ الضحوكِ يضيءُ كبسمةِ طفلٍ ينامْ
فأنت إلهي للمذنبين بلطفِكَ تغسِلُ رجَسَ الأنَامْ»(١)

يبدأ الشاعر أبياته بكلمة (أحبك) موجهاً كلامه إلى الله تعالى. ويأتي أسلوب النداء، ليحدد هوية المخاطب في كلمة «الحب»، مؤكداً كلمة (الرب) و(غفوراً) وكأن الفكرة التي يريد إظهارها هي أن الرب المنادى المناجى في البيت، هو نفسه الغفور الرحيم.

في صدر البيت الأول تأكيد من قبل الشاعر على إقراره بربوبية الخالق، الذي يجيب المضطر في مثل لحظات المناجاة وطلب المغفرة فقد ذكر تعالى

(١) محمد حسين فضل الله، قصائد للإسلام والحياة، ص ٢٣.

قائلاً: ﴿أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء﴾[(١)]. وتتخذ كلمة (غفوراً) بعداً جديداً في الشطر الثاني من البيت من خلال حرف الجر «كـ» الذي يفيد التشبيه، و «ما» المصدرية التي منحت التوكيد «غفوراً» هذا البعد الدلالي الجديد من خلال الفعل «يطوي» إذ يبرز النور المشع على الكون، فيسامح الظلام على ما ارتكب تحت جنحه من أعمال سترها الليل، لكن النور بعفوه وتسامحه طوى هذا الظلام على أمل عدم الرجوع، و (النور) و (الظلام) يعبران عن أقصى درجات المقارنة بين حالة الشاعر المتخبط في الظلام، ونور اليقين والهداية والحق الذي يمنحه الله للتائبين، فالله نور، والشاعر في ما يحمل من خطايا وآثام ظلام دامس، والنور يطوي الظلام معلناً عن بداية يوم جديد. والله يغفر لعباده ذنوبهم ويخرجهم من الظلمات إلى النور. فالنَّص يتنازعه حقلان دلاليّان (النُّور والظلام).

ثم يستهل الشاعر بيته الثاني بصورة أخرى لمغفرة الله، وعظيم إحسانه على بني البشر، من خلال قوله (كشلال حب) فالله غفور رحيم كنور يطوي ظلام الليل، وكشلال يدفق بالحب والخير، فمغفرة الله تتجاوز حدود النور، لتصبح شلالاً ينبض بالحب، وفي إضافة كلمة (شلال) إلى (حب) يمنح الوجود الحنان والعطف والمحبة، وهذا ما يجعل الدلالة التي منحها الشاعر للشلال تطل على الدلالة الأساسية (غفوراً) لتمنحها بعداً آخر يشمل الكون والكائنات، كما تشمل مياه الشلال الإنسان والطبيعة بخيرها وفضلها.

ويأتي التشبيه الثالث ليضفي على ما سبق من دلالات، أخرجت كلمة (غفوراً) عن نسقها الموضوعي لتعطيها أبعاداً مليئة بالرّحمة والشفقة والمحبّة، ولتجعلها (ينبوع وحي) والينبوع هو الجدول المتفجر من الأرض،

---

(١) النمل، ٢٧/ ٦٢.

يجري رقراقاً عذباً صافياً. ومن أين تفجر ينبوع الوحي هنا؟ لا شك بأن الشلال الذي دفق حبّاً، قد أشبع صدر الأرض بالحب، فتفجر جدول الوحي، وينبوع الهدى، والينبوع هو خلاصة المطر، ولكنه عند الشاعر ينبوع وحي، ففي إضافة كلمة (وحي) إلى (ينبوع) لم يعد الينبوع عادياً وإنما صار مكاناً للوحي، والوحي هو الإلهام الذي ما عرف إلا الحب والتسامح والعفو، لذا نراه يترقرق. ولكن بماذا؟

إنه يترقرق بالرضا والسلام والطمأنينة، لأنّ الله تعالى قد غفر للشاعر ومنحه الهدى والأمان، وهذا الرضا هو رضا الله والشاعر. فالله تعالى يقول: ﴿**رضي الله عنهم ورضوا عنه**﴾(١). لأنه أنجز وعده بالمغفرة والعفو.

«أحبك حب السماح الضحوك» فالفعل المضارع (أحبك) حاضر دوماً والضمير المخاطب «ك» للدلالة على عمق الحب والود بين الله تعالى والشاعر. ويأتي المفعول المطلق «حب» ليبين نوعية هذا الحب من جديد، فبداية كان نوع الحب، «حب الحياة تفجّر في راحتيها العطاء لكنه الآن حب السماح الضحوك» وفي الإثنين قاسم مشترك، فالفعل تفجر دلالة على خروج هذا الحب من مكان عميق فاض بالخير والبركة، وهو كذلك نور وشلال، وينبوع تفجر بالوحي والسلام والهناء، وفي إضافة المفعول المطلق «حب» إلى المضاف إليه «السماح» خرج الحب عن نسقه الموضوعي، ودلالته الأساسية ليتخذ هوية العفو والغفران والسماح الذي لا يبقى أيضاً على ما هو عليه، وإنما يصير إنساناً من خلال وصف الشاعر للسماح بكلمة «الضحوك» فالمتسامح لا تبدو على وجهه آمارات الغضب والشدة، وإنما سيماء وجهه الابتسامة والضحكة المعبرة عن العطف الذي يمتلك القلب. ويأتي الفعل

(١) المائدة ٥/ ١١٩.

المضارع «يضيء» ليأخذ (السماح الضحوك) من خلاله بعداً آخر غير البعد الإنساني، إنه بعد النور والإشراق، وهو ما يجعل الصورة التي منحت للسماح وهي صورة النور المضيء، تتساند مع صورة النور الأولى التي ذكرها الشاعر، وهي تطوي الظلام.

وهنا يستحضر الشاعر صورة إنسان، لا يعرف الحقد، وجهه مشرق كالقمر، إنه شلال من الحب، مفطور على محبة الله تعالى، راضٍ مسالم، متسامح إنه الطفل لحظة نومه، ففي مثل هذه اللحظة يشعر المرء، أن الطفل كتلة من النور والبراءة والحنان، وهذه الصورة التي استحضرها الشاعر «كبسمة طفل ينام» تضيء الدلالة الأساسية المعبرة عن المغفرة والسماح، ويختم الشاعر من خلال «فـ» الإستئناف صورة الرب الغفور، الذي وسعت رحمته كل شيء، وإذا بالله القائل ﴿**إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين**﴾[1]. يفتح صدره الكبير لمن أذنب، واقترف السيئات، قابلاً توبته، غافراً له ذنوبه، بعد الإقرار والإيمان والإعتقاد بعظيم فضله وإحسانه، وأنه ﴿**غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول**﴾[2]. والذي يستجيب لمن يخلص في دعائه وتوسله إليه ﴿**وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون**﴾[3].

فالضمير المبتدأ «أنت» عائد إلى الله تعالى، وهذا ما يؤكده الشاعر بالنِّداء «إلهي» المضاف إلى ياء المتكلم، مع ما في هذه الإضافة من إقرار

(١) البقرة، ٢/ ٢٢٢.
(٢) غافر، ٤٠/ ٣.
(٣) البقرة، ٢/ ١٨٦.

بالألوهية والوحدانية، ويأتي الجار والمجرور «للمذنبين» لتبيان حقيقة من يسعى إلى المغفرة وطلب السماح، إنهم المذنبون الذين وردوا شلال الحب وينبوع الوحي حيث يترقرق الرضا والسلام والطهارة ويهيمن لطف الباري وعفوه، فإذا بالخالق تعالى يطهر هؤلاء المذنبين، ويغسل عنهم الذنوب الكثيرة.

ج ـ الخشوع والخضوع لله تعالى، والإقرار بمشيئته.

لا شك أن فيضان النفس بالحب والعشق لله، يستدعي من العاشق الوله خشوعاً بين يدي من يحبه، وخضوعاً لإرداته ومشيئته، وإقراراً بفضله وعظيم مَنِّه، فالمحبُّ مطيع لمن أحبّ، ساع لمرضاته، سائر بخشوع وتقوى إليه، والشاعر المحب لله، ولج محراب الخشوع متذللاً، خاشعاً، خاضعاً لله تعالى، متسائلاً عن كنه وجوده، ملتقياً في رحلة التساؤل مع حقيقة الوجود القرآنية، والدعوة إلى النظر والتفكر في هذه الحقيقة ﴿**فلينظر الإنسان مما خُلق**﴾. وإذا ما عاش الشاعر هذه الحالات التي جعلت إرادة الله تستولي عليه، وتجعله يتنفس رضى الله في كل لحظة من لحظات حياته، فإنه عدّ نفسه إرادة خالقه البيضاء، مع ما تحمل هذه الإرادة البيضاء من معاني القداسة والإيمان، يقول الشاعر: (على وزن الخفيف)

ربِّ إني هنا على شاطىءِ الصحراءِ صمتٌ مخضبٌ بالشجونِ
كـلُّ أفكـارِهِ بقـايـا رمـالٍ نثـرتْهـا الـرِّيَـاحُ فـوقَ العيـونِ
وحكايا عن الوميضِ الذي تلمحُهُ الروحُ في ضميرِ السنينِ
ورمادٌ تذرُّهُ نافخاتُ الحطبِ الجزل في المدى المجنونِ
من أنا... من أكونُ... لو لم يفِضْ من روحِكَ الفيضُ في دمي كالعيونِ

مـن أنَـا إننـي إرادتُـكَ البيضـاءُ، إنْ يغمـرِ الضِّيـاءُ جُفُـونـي؟
مـن أنـا. . أيُ منهـجٍ أتقـرّاهُ بعيـداً عـن نهجِـكَ المسنـونِ؟
أنت نهجُ السُرى، وأنتَ الهُدى السَّمْحُ إذا تهتُ في دروبِ الجنونِ
لا رمالُ الصحراء تحجبني عنك، ولا اللَّيلُ عن هداكَ الأمينِ[1].

ينطلق الشاعر من خلال الإستفهام الإنكاري ليحلق في أجواء الجملة الإنشائية التي تحتمل دلالة التساؤل عن الهوية الإنسانية من جهة، ودلالة السعي لفهم سر وجود الإنسان. هذه الهوية التي دعا الله تعالى الإنسان للتفكر فيها **﴿أو لا يذكر الإنسان أنّا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً﴾**[2]. فإذا قدم الشاعر الخبر (من) على المبتدأ (أنا) للإشارة إلى التأكيد، أن هذا التقديم قد اعتمد للأهمية وللحضور الأكبر للخبر (الهوية)، ولعل الشاعر يلتقي في هذا التساؤل مع دعوة الخالق حتى ينظر ويتفكر الإنسان في حقيقة خلقه **﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون﴾**[3]. ويأتي الاستفهام الثاني (من أكون؟) ليطرح الشاعر قيمة الوجود بدون الله، فلا قيمة لهذا الوجود وما فيه بدون الخالق العظيم، ومن يكون الإنسان والشاعر بدون علة الوجود، وسبب الآلاء والنعم؟ وكأنه يعود ليذكر أن لا وجود لشيء خارج نطاق الخالق، وحقيقة الإله فكل شيء منه وإليه. فالله هو الذي منّ عليه بنعمة الوجود، حين كان عدما.

ويأتي إقرار الشاعر، أن أمر الله قدر مقدور، ولا تبديل لخلق الله، فهو يقر، أن الفيض الذي فاض من روح الله تعالى في دمه كالجداول المنسابة في

(١) محمد حسين فضل الله، قصائد للإسلام والحياة. ص: ٣٢.
(٢) مريم، ١٩/ ٦٧.
(٣) المؤمنون، ٢٣/ ٢٥.

الطبيعة، والتي تبعث الحياة في الأرض والكون والموجودات، وهو سبب وجوده ونشأته وفيضه ونعيمه، فالله خلقه ولم يكن شيئاً، وأنعم عليه بآلائه الكثيرة، وخصوصاً نعمة الخلق والكون.

وبالإنتقال إلى تركيب الشاعر في البيت الخامس، يطالعنا الإسناد الذي أقامه الشاعر بين الكلمات، فالفيض ليس فيضاً عادياً، وإنما هو فيض غزير، عميم، معطاء، وهذا ما يؤكده التشبيه الذي أقامه الشاعر بين فيضان الفيض من روح الله تعالى في دم الشاعر، والعيون التي تتفجر في الأرض جرّاء ماء المطر الغزير، والتي تجري كشرايين الدماء في جسد الطبيعة، فتبعث فيها الخُضْرَة والنضّار والحيوية والحياة، فصورة بعث الحياة في جسد الطبيعة الغناء، هي نفسها صورة الفيض الإلهي في دم الشاعر، هذا الفيض الذي يمنحه كل النشاط والعزم والقوة والعنفوان والشباب، وكأنه بذرة في باطن الأرض، أو العدم بث الله فيها وأنعم عليها بما أخرجها من هذه الظلمات إلى نور الوجود والحياة والبقاء.

ويأتي البيت السادس، ليكرر الشاعر تساؤله نفسه، وليطرح السؤال «من أنا؟» ليؤكد من خلال استفهامه، أن الوجود والموجود هما من فيض الله تعالى الذي جرى كالعيون في دماء الخلق، فالشاعر يقول «إنني إرادتك البيضاء» والإرادة البيضاء دلالة الطهارة والنقاء والصفاء وهي صورة الدم السّاري في جسد الشاعر. وتأتي «ك» الضمير المخاطب لتفيد التوكيد أن كل نعمة هي من الله، وأن الإنسان يجب أن يكون حقيقة خليفة الله، يأمر بأوامره، وينهى بنواهيه، ويخضع له، ويتمثل إرادته ومشيئته، لأن من يستخلف الأرض والعباد، يجب أن يكون ظل من استخلفه وألقى إليه هذه المسؤولية. فإذا ما أسند الشاعر «ياء المتكلم» إلى الحرف المشبه بالفعل

«إن» والذي يفيد التأكيد، فما ذلك إلا لقناعته التامة، أن الخشوع للباري والخضوع له، والإقرار بمشيئته والعمل على هديه، يؤهله لأن يكون هذه الإرادة البيضاء النقية، والخليفة الذي جعله الله في الأرض. وإذا ما وصل الشاعر إلى كل هذه الحالات، فهذا يعني أن الضياء ونور الهداية الحق قد غمر جفونه، ففيض الله الروحي فاض من دمه كالعيون، وأنشأه نشأة الطهر والصفاء، فإذا به يلتمس درب النقاء وقد غمر الضياء عينيه، وهذا ما يؤكده الخالق العظيم بقوله ﴿**أوَمَنْ جعلنا له نوراً يمشي به في الناس، كمنْ مثله في الظلمات ليس بخارج منها**﴾[١]. فالبعد العرفاني هنا هو: ألَّا وجود لشيء بما فيه الإنسان خارج أمر الله تعالى الذي خلق على غير مثال. ولا يخفى أن التشبيه ـ الذي ساقه الشاعر في حديثه عن الفيض الذي تفجّر في عروقه، وفي كيانه، كالينابيع الصافية التي تعبّ الأرض منها الحياة والبقاء، وما أفاضه الله نعمة يُحْسد عليها صاحبها ـ يمثل أملاً ورجاءً على لسان الآخرين القائلين ﴿**أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله**﴾[٢]. ولذلك فإن الفيض الإلهي، الذي دفق نعماً على كيان الشاعر، هو السبيل إلى توجه الشاعر للتساؤل والإستفهام الإنكاري عن حقيقة وجوده، مع علمه المسبق بحقيقة هذا الأمر والخضوع للرب القدير، يقول الشاعر:

(على وزن الخفيف)

«أنتَ ربِّي وقدْ صنعتَ بنعماكَ كياني . . . وفاضت النَّعْماءُ

أنـت يـا ربِّ عـالـمٌ بجـراحـاتـي، خبيـرٌ بمـا يجـنُّ الخفـاءُ

---

(١) سورة الأنعام، ٦/ ١٢٢.

(٢) سورة الأعراف، ٧/ ٥٠.

وأنَـا راجـعٌ إليـكَ بقلبـي إن قلبـي صحيفـةٌ بيضـاءُ
فإذا شئتَ أن تعذِّبَ جسمي بغواياتِهِ فحسبي الدُّعاءُ»[١]

قدم الشاعر نفسه مقراً معترفاً بربوبية الخالق، من خلال المبتدأ «أنت» الذي توجه به لله تعالى، والخبر «رب» المضاف إلى ياء المتكلم والتي عبّر من خلالها عن خضوعه المطلق، وولائه التام والكامل لله، الذي هو ربه، ورب السماوات والأرض وهذه المسألة المتعلقة بالربوبية أثارت الكثير من الجدل والنقاش في تاريخ البشرية، حتى أن القرآن قد قدم نموذجاً عن إقرار الإنسان بربوبية الله تعالى، وعظيم ما تبعثه هذه الفكرة في كيان الإنسان، الذي يتعلق بالقوة الجبارة، وبالملك القدوس، الذي بيده ملكوت السماوات والأرض، ولعل في تساؤلات النبي إبراهيم الخليل(ع) خير شاهد على ذلك، فقد صور القرآن، مسألة الربوبية من خلال المشاهد المتعددة التي ذكرها على لسان إبراهيم حيث ذكر تعالى **﴿وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين * فلما جن عليه الليل رءا كوكباً قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين * فلما رءا القمر بازغاً قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين * فلما رءا الشمس بازغة قال هذا ربي أكبر فلما أفلت قال يقوم إني بريء مما تشركون﴾**[٢]. إن هذه الصورة التي يقدمها القرآن، هي هذه الحال المعبّرة عن الصراع النفسي في ذات الإنسان، خصوصاً في مسألة الإقرار بربوبية الخالق.

إن هذا الصراع ما كان ليجيش في نفس الشاعر، لأنه انطلق في البيت

(١) محمد حسين فضل الله، قصائد للإسلام والحياة، ص ١٣.
(٢) سورة الأنعام، ٦/ ٧٥، ٧٦، ٧٧، ٧٨.

الأول من مبدأ الإقرار بأن الله ربه وخالقه، ومصدر نعمة وجوده. وهذا ما دفع الشاعر إلى ذكر لعملية الصنع والخلق، التي هي من أهم المسائل التي يعيش الشاعر أجواءَها. فالرب هو الكمال المطلق، والصانع القدير، لذلك آمن الشاعر بالله صانعاً لكيانه، وباعثاً لوجوده، وهذا ما ذكره من خلال «وقد صنعت بنعماك كياني» فـ«واو» الحال تدل على الكيفية التي منحت للشاعر وجوده، ويأتي حرف التحقيق «قد» قبل الفعل الماضي «صنع» المسند إلى تاء الضمير المخاطب، والدال على الله تعالى، ليظهر هذه الحقيقة في نظر الشاعر، أن الله هو الرب، والرب قادر قاهر صانع قدير، صنع كيان الشاعر؟» وهذا الصنع هل كان كما ذكر تعالى؟ **﴿خلق الإنسان من صلصال كالفخار﴾**[(١)]، لقد أسند الشاعر الفعل، «صنع» إلى «النعماء»، وقد عدّاه بواسطة حرف الجر (الباء)، وفي هذه التعدية أخرج الفعل «صنع» عن دلالته الأساسية ليمنحه دلالة جديدة، فعملية الصنع لا تتم بواسطة مواد ملموسة وإنما بالنعماء، والتي هي جزء لا يتجزأ من آلاء الله الكثيرة والتي تفضل الله بها على الشاعر، فأقرّ الشاعر بها، وتنسَّم أفياءها.

لقد أقرَّ الشاعر بالله تعالى ربّاً، وصانعاً، وواهباً للنعماء، أقرّ به عالماً بالغيب وما سيؤول إليه مصير الشاعر، وما ستعرض له حياته «أنت يا ربّ عالم بجراحاتي» (فعالم) خبر (أنت)، وهذا الخبر يفيد اليقين أنّ علم الله يفوق كلّ علم ومعرفة» وبم يعلم الله؟ هل يعلم بحال الشاعر ووضعه؟ هل يعلم بما يخفي وما يظهر؟

إنّ الله تعالى عالم بجراح الشاعر، وكلمة الجراح هنا هي الأعمال التي يخفيها الإنسان عن الآخرين، ويظهرها الله تعالى: **﴿وهو الذي يتوفاكم**

(١) سورة الرحمان، ١٤/ ٥٥.

بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار﴾[١] وجرحتم أي ما اقترفتم من أعمال، وما ارتكبتم منها، وهذا تمام الخضوع للمشيّة الإلهيّة التي انفردت بكلّ هذه القوى العظيمة. وجراحُ الشّاعِر ما يُعانيه من اتهامات محيطِهِ وحقده.

وإذا ما كان الله عالماً بجراحات الشاعر، فهو أيضاً خبير بما يجن الخفاء ﴿**إن الله خبير بما تعلمون**﴾[٢]. والخبرة هي دليل الوصول إلى أرقى درجات المعرفة.

كلُّ ذلك يلتقي مع المفاهيم القرآنية التي ما غابت لحظة واحدة عن تفكير الشاعر، إذ أن العلم والخبرة لا يجتمعان إلا في ذات الله تعالى، فالله خبير بكل شيء، خصوصاً بما يجنّ به الخفاء، وما يستره الغيب، على قاعدة ﴿**ولله ِغيبُ السماواتِ والأرضِ**﴾[٣].

هذه القاعدة التي عاشها الشاعر في صميم عقله ووجدانه، وكان لمناجاته الدائمة لله سبحانه أثر في إبراز هذه الصّور جميعها، والتأكيد عليها يقول في قصيدته «أنا أهواك»: (على وزن الخفيف)

رب ما لي أبكي وما لي أغني ... وحياتي تصدُّ نجواكَ عنِّي
أنا أهواك لا لنعماك تستهو ... ي كياني ولا لجنّةِ عدنِ
أنا أهواك للهوى ترعش الروح ... بأفيائِهِ ويهتزُّ لحني
للسّماءِ الزرقاءِ تنسابُ منها ... شعلة النُّورِ في جلالٍ وفنِّ

د ـ الله تعالى سر الكون وعلته الأولى:

آمن الشاعر بالله إيماناً كلياً، آمن به خالقاً عظيماً، غافراً للذنب قابلاً

(١) سورة الأنعام، ٦/ ٦٠.
(٢) سورة الحشر، ٥٩/ ١٨.
(٣) سورة هود، ١١/ ١٢٣.

للتوب. فإذا به ينظر إليه نظرة غير عادية، ويحبه محبة لا رياء فيها ولا منة، ويتعلق به تعلقاً شديداً خاضعاً له مقراً بإرادته ومشيئته، فالله سبحانه يمثل للشاعر الرب الذي لا إله سواه، خلق على غير مثال. لهذا هو سر الكون وعلته الأولى. وسبب وجوده، والمهيمن على كل ما فيه، والله هو القوة الخفية التي تنظم شؤون هذا العالم وما فيه وتدير أموره، ومن هذه القوة انبثقت كل الموجودات، وكل النعم، وعنها فاضت كل الآلاء التي يتمتع الإنسان بها.

ولقد رأى الشاعر أن الوجود بكل ما فيه هو من الله، هذا الوجود المليء بكل أسرار الحياة التي يجهلُ الإنسان كنهها، يمثل الله تعالى في نظر الشاعر سرها المبدئي، وعلّتها التي لا فناء لها لذلك عاش الشاعر مع الله منذ بدايته.

يقول: «منذ أن انطلقت كنت أعيش مع الله، ولم أعش مع الله حياةً جامدة»[(١)].

إن هذه الانطلاقة الدائمة مع الله تعالى هي التي جعلت الشاعر يتحسس الشعور بالوجود الإلهي، في كل تصرف من تصرفاته، وفي كل نظرة من نظراته، فما من شيء إلا وسببه الله تعالى وما من أمر إلا ولله فيه حكم وعلاقة. يقول الشاعر:

«هــو اللهُ سـرُّ الجمــالِ الطهــور فمنــهُ الــربيــعُ ومنــهُ الــرُّواءْ»[(٢)]

يمثل ضمير الشأن «هو» «مبتدأ» أول يتبعه الشاعر بلفظ الجلالة مبتدأ ثانياً، ليتكامل المبتدآن في التعبير عن نظرة الشاعر إلى الخالق العظيم الذي

(١) مقابلة أجريتها مع الشاعر بتاريخ ٢٠/١١/١٩٩٦.
(٢) محمد حسين فضل الله، قصائد للإسلام والحياة، ط١، ص ٢٣.

هو سر أنشودة الخلق الإلهي، وهو الجمال، ولعل هذه الفكرة تواكب الذكر الإلهي في الحديث عن الذات القدسية «هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم».

فالمبتدأ الذي انطلق «هو» اسم من أسماء الله الحسنى، والمبتدأ الثاني هو الإسم الأعظم، وحضور لفظ الجلالة يستدعي خبراً يتفرد به، وهو ما قام به الشاعر حين أسند للمبتدأ الثاني الخبر «سر» فالله سر ماذا؟ إنه سر الجمال، بما يُمِّثلُ لهذا الجمال من فكرة معنوية تحمل الكثير من المدلولات التي تبقى في دائرة البحث والتمحيص دون تحديد واف لها. فإذا ما عاش الإنسان ماضياً وحاضراً، عدم الإهتداء إلى كنه الجمال، رأى الشاعر أن الله الذي لا يعرف حقيقته أحد، هو سر هذا الجمال المنشود. فضمير الشأن «هو» أكده الشاعر بالمبتدأ الثاني «الله» ليتكاملا مع الخبر «سر» والمضاف إليه «الجمال» وفي هذه الإضافة يحملنا الشاعر إلى إيحاء جديد وفكرة جديدة، فالجمال المنشود يمثل الله سره. إنه الجمال الإلهي الطهور، فالصفة «الطهور» أعطت الجمال بعداً آخر يوحي بالنقاء والبراءة والطهارة، فالله لا يمثل سر أي جمال وإنما، «سر الجمال الطهور» البديع، لأن الله تعالى «﴿بديع السموات والأرض﴾[1]. ومنه الوجود بكل ما فيه، ومنه «الربيع ومنه الرواء» وإذا ما ذكر الشاعر صورة الجمال الطهور، طالعنا في الشطر الثاني بصورة الربيع. فالربيع هو فصل الحياة والإنبعاث في الطبيعة، فصل اليقظة والسعادة والعطاء والسحر. فإذا ما علمنا أن الربيع هو كل هذا أدركنا أن الله سبب هذا الربيع. مع كل ما يحمل هذا الربيع من دلالات وإيحاءات، إختزنها الربيع ـ الذي هو من الله تعالى ـ في أعماقه، فكان صورة لعظمة

---

(١) سورة البقرة، ٢/ ١١٧.

الخالق، وتعبيراً خالصاً عن الجمال الإلهي الذي يشغل حيزاً في العقل والقلب. فالله جميل يحب الجمال ويحب منَّا أن نعيشه في كل شيء. ولقد كان للشاعر نظرة خاصة نحو الجمال. يقول «هناك نظرة ليست بعيدة عن الحق هي: أَننا نحنُ الذين نصنع الجمال، وليس الجمال حالة موضوعية في الشيء»[١]، فالجمال برأي الشاعر نصنعه بأيدينا، لكن الجمال الحقيقي هو جزء لا يتجزأ من الأسرار الإلهية. وعلينا أن نعيشه جمال الطهر، والتقوى، والصلاح والرشاد، لنحقق ما نصبوا إليه ولنحصل على النعيم والسعادة الدائمة، كما عاش في الجنة الصالحون والأتقياء، الذين آمنوا بكل هذه المبادىء والرؤى وعاشوها في واقعهم، يقول الشاعر:

ومِنْ وحيهِ أنْ نعيشَ الجمالَ كما عاش في الجنَّةِ الأتقياءُ»[٢]

إن الله سر الجمال الطهور، وعيش هذا الجمال يمثل إلتزاماً من المتقين بما أمر الله به، وبما نهى عنه، فالجار والمجرور «من وحيه» يتعلقان بخبر مقدم على المبتدأ «عيش» المأخوذ من المصدر المؤول (أن يعيش)، وتقديم الخبر على المبتدأ دلالة على أهمية الخبر، الذي هو إيحاء من الله تعالى، وما هو هذا الإيحاء؟ إنه الوحي للبشر بأن يعيشوا الجمال الطهور الحقيقي، على الصورة التي عاشها أصحاب الجنة الذين يمثلون العنصر المطيع لله، والذين يشكلون عصبة المتقين الأبرار المتمتعين بالنعيم لأنهم حرصوا على الخضوع لله والإمتثال لأوامره ونواهيه في كل شيء. لأن الله تعالى هو الخالق البارىء المصور، سر الكون وعلته الأولى.

وإذا ما كان الله سر الكون، فهو الذي يمنح الحياة ومقوِّماتِها. وكل

---

(١) مقابلة أجريتها مع الشاعر، بتاريخ ٢٠/١١/١٩٩٦.

(٢) محمد حسين فضل الله، قصائد للإسلام والحياة، ط١، ص ٢٣.

الخيرات التي يتلذذ بها الناس، هي من فيضه ومن نِعَمِه، خصوصاً المأكل والمشرب وهما عنصرا الحياة، ولا يقوم شيء بدونهما، فهما يشكلان غذاءً ضرورياً بالنسبة للبشر، وهو ما يحتاجه كل فرد من الأفراد، يقول الشاعر:

«لـك اللُّطْـفُ يـا ربِّ إنّـا جِيَـاع ومِنْـكَ الشَـرابُ ومِنْـكَ الطَّعَـامُ»[1]

إن الشراب والطعام يختصران السعي الحثيث لأفراد المجتمع من أجل حياةٍ فضلى، ومجتمع راقٍ، فالماء عنصر الحياة الأول، وهو يشكل المادة الرئيسة للخلق ﴿**والله أنزل من السماء ماءً فأحيا به الأرض بعد موتها**﴾[2]. فالأرض المَواتُ حياتُها بماءِ المطرِ. وكذلك البشر ﴿**هو الذي أنزل من السماء ماءً لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات**»[3].

قدم الشاعر الخبر «لك» الذي هو الجار ومجرور على المبتدأ اللطف. مختصٌّ بالله تعالى ﴿**وهو اللطيف الخبير**﴾، ولتقديم شبه الجملة «اللام والكاف»، الضمير المتصل الخاص بالمخاطب (الله تعالى)، دلالة على أهمية المخاطَبِ. الرب، من خلال أسلوب النداء «يا رب» فالمنادى الرب يناديه الشاعر لحاجة في نفسه، يظهرها من خلال الجملة الخبرية «إنَّا جياع» والإنسان الجائع يحتاج ما يقوم أوده، ويحثه على متابعة المسير والحياة. وإذا ما اعترف الشاعر بالجوع والظمأ، ورد المسبِّبَ للماءِ والطعام وهنا يأتي ذكره للخبر الآخر في الشطر الثاني، «منك» للإشارة والدلالة على المصدر

---

(١) محمد حسين فضل الله، قصائد للإسلام والحياة، ط١، ص ٢٤.

(٢) النمل، ١٦/ ٦٥.

(٣) النحل، ١٠/ ١١.

الرئيسي للماء والغذاء، فإذا هو الله تعالى والذي صرّح الشاعر بذكره من خلال الضمير المخاطب «الكاف» المتصل بحرف الجر. ولا يكتفي الشاعر بالذكر الصريح، أن الشراب والطعام من الله تعالى، وإنما يقول مباشرة إن الوجود هو منه، وهو سببه بكل ما فيه وما يتضمنه:

«فمنكَ الوجودُ بكلِّ رؤاهُ بكلِّ ذراهُ ومنكَ الرَّخاءُ
وأنتَ نثرتَ اخضرارَ الربيعِ على الأرضِ فاهتزَّ فيه النَّماءُ
ومنكَ الشعاعُ الذي يستحمُّ على ضفتيهِ الهُدى والهناءُ
ونُعمَاك كلُّ انطلاقِ الحياةِ يطوفُ بأقداسها الأصفياءُ»[1]

(المتقارب)

لقد انطلق الشاعر من فكرة عامة تلخِّص فيض الوجود عن الباري تعالى، فكل شيء هو رشح عن عطاء الله العميم. ولقد سبق تحليل البيت الأول في أثناء الحديث عن «محبة الله». وإذا ما انتقلنا إلى البيت الثاني، لاحظنا الحضور الكثيف لصورة الربيع التي هي صورة الحياة والنضارة والشباب، فالربيع مرحلة النشاط والحيوية وإشراقة الكون وخروج الطبيعة في أبهى صورها وزينتها، هذا الربيع، أو هذه الحياة، هناك من نثرها، وبثها على سطح الأرض، وهنا يطالعنا الفعل «نثرت» وفيه تاء الضمير العائد لله تعالى، وماذا نثر الله سبحانه؟ لقد نثر اللون الربيعي، الذي يدخل البهجة، والفرح إلى القلوب، والراحة إلى العين إنه الاخضرار الذي يرمز إلى الحياة والنضارة، والجمال، وإذا ما أضاف إلى الاخضرار كلمة «الربيع» كمضاف إليه، فإنه خصّ اللون الأخضر بفصلِ تعدُّدِ الألوان والمظاهر، وهو فصل

(١) محمد حسين فضل الله، قصائد للإسلام والحياة، ط١، ص ٢٣.

الربيع وفي ذلك إشارة للحياة وللماء، ويأتي الجار والمجرور «على الأرضِ» ليحدِّد الهوية المكانية لاخضرارِ الربيع، فإذا بها هذه الأرض، التي قد تمتد فيها الصحراء والغابات الشاسعة الواسعة. فالربيع قد لا يكون في كل مكان، لكن الاخضرار يشمل الكون بأسره، والأرض بأجمعها، فإذا ما نثر الله اخضرار الربيع على الأرض، دبت الحياة في أوصال الكائنات، وإذا بالربيع يهتز فيه «النَّماء» ممَّا يوحي بالقيامة والانبعاث، ففي صورة الربيع، نمو العشب والبرعم والزهر، وتفجر الينابيع، فكيفما نظر المرء شاهد الزهو والإشراق والسحر والجمال في ما يبعثه الربيع في خلايا الأرض، وما يبثه في الكائنات من رونق ودفق حياة.

وإذا ما أسند الشاعر للفعل الماضي اهتز «النماء» كفاعل فقد أخرج الشاعر (النَّماء) عن هويته ودلالته الأساسية، ليمنحه هوية إنسانية توحي بالحركة والنشاط، فالاهتزاز دليل الحركة من مكان لآخر، والتحول من صورة لأخرى، وفي الربيع ينتقل الوجود من حالة إلى حالة، ومن وضع إلى آخر، فاهتزاز النماء، حركة ونشاط وحيوية، وكل ذلك دليل عافية ورخاء، وصاحب الفضل في ذلك كله هو الله تعالى.

وأما البيت الثالث، فلا يزال الحضور الأبرز للجملة الإسمية، المؤلفة من المبتدأ والخبر «فمنك الشعاع» قدّم الشاعر الخبر وهو الجار والمجرور «منك» على المبتدأ «الشعاع» للأهمية التي يحتلها هذا الخبر في ذهن الشاعر، فالله منح الوجود آلاءه «فمنك الوجود بكل رؤاه» والله نثر اخضرار الربيع، ومن الله تعالى الشعاع، والشعاع هو الضوء والنور، وهو دليل الهداية والصلاح والسّير في رحاب الهدى والأمل، «فالله نور السماوات والأرض» ولعل الشعاع الذي مصدره الله تعالى، هو قبس نور من هذه الشجرة المباركة

المعطاءة، وهو أكثر من ذلك إنه نهر عظيم كبير، هذه الهوية يتخذها الشعاع من خلال الاسم المجرور «ضفتيه»، الذي يقترن بضمير «الهاء» العائد للشعاع. هذه الهوية الجديدة أعطت للشعاع بعداً دلالياً آخر، وظّفه الشاعر في إطار الحديث عن الخير العميم، والعطاء الجمّ الذي يستتر خلف لفظتي «الشعاع والنهر».

وإذا ما انتقل الشاعر من صورة الشعاع إلى صورة الضفاف، وما تستحضر في الذهن من عذوبة ونقاء، وراحة وطمأنينة، ذكَرَ «الهدى والعناء» اللذين أخرجهما عن سياقهما الموضوعي، ودلالتهما الأساسية، بإسناده الفعل «يستحم» إليهما، «فالهدى والهناء» لم يعد كل منهما هدى أو هناء عاديّاً وإنما صارا إنسانين يسعيان وراء الاستحمام والاستجمام في مكان طاهر نقي صاف. وهل هناك أسمى وأطهر مما يبثه الله! وما نثره في الأرض؟! وما أنزله من السماء، من ماء أحيا به الأرض بعد موتها؟! ﴿**وآية لهم الأرض الميتة أحييناها...**﴾[1]. وإذا ما صار الشعاع الذي صدر عن الله تعالى نهراً يدفق بالماء، كان هذا الماء دليل طهر وصفاء، يستحق أن يستحم فيه الهدى الذي أمر به الله عباده المتقين، فالسير وسط الشعاع الإلهي وصول إلى نور اليقين والإيمان. وعلى ضفاف هذا الشعاع البهي، يستحم الهدى والهناء كحوريتين من الحور العين في الجنة التي تجري من تحتها الأنهار العذبة. وكأنَّ الإنسان الهدى والهناء، كلما اقترب من الشعاع، زاد قرباً من الحقائق الإلهية الربانية العظيمة.

ويأتي البيت الأخير، ليلخص كل الآلاء والنعم التي منحها الله تعالى لعباده، فإذا بالشاعر بعد عرضه لصور جزئية مصدرها الخالق العظيم،

---

(١) سورة يس، ٣٦/ ٣٣.

يختصر كل ما يجول بفكره قائلاً: «ونعماك كل انطلاق الحياة» فالمبتدأ «نعما» مضاف إلى ضمير «الكاف» الذي خاطب به الشاعر الله تعالى، ليعود ويؤكد أن كل النعم هي من المنعم القدير الذي سأل الثقلين **﴿فبأي آلاء ربكما تكذّبان﴾**(١)، وكل انطلاق الحياة هي نعم الله، وعظيم فضله وإحسانه، وهو الذي خلق على غير مثال، **﴿إنّا كل شيء خلقناه بقدر﴾**(٢)، فما خلقه الله يشكّل صورة هذه الحياة وهذا الكون، وهذا الوجود بكل ما فيه وما يحتويه، ومن مصدره؟ ومن حقيقته؟ **﴿أمّن يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض﴾**(٣)؟، كل ذلك من الله تعالى، وهو ما اعتقده الشاعرُ وآمن به دون شك أو ريب.

ويأتي الفعل المضارع «يطوف» ليمنح الصورة قوة وحضوراً مميزين، فالطواف والسعي حول مكان تهمي إليه الأفئدة، هذا المكان يحدده الشاعر من خلال الجار والمجرور «بأقداس» والمضاف إليه ضمير «ها» العائد للحياة، ففي الحياة أقداس حدّدها الله تعالى وأمر الأصفياء من عباده كما ذكر الشاعر بالطواف حول الأقداس مستحضراً صورة البيت العتيق الذي جعله الله تعالى مثابة للناس وأمناً. **﴿وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئاً وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السّجود﴾**(٤). ولعل كلّ هؤلاء هم الأصفياء الذين اختصهم الشاعر بالذكر أنهم يطوفون بأقداس الحياة التي كلّ انطلاقة نعماه من الله وإلى الله سبحانه.

---

(١) سورة الرحمان، ٥٥/١٦.
(٢) سورة القمر، ٥٤/٤٩.
(٣) سورة النمل، ٢٧/٦٤.
(٤) سورة الحج، ٢٢/١٦.

هـ ـ شوق الشاعر إلى لقاء المحبوب:

إن نظرة الشاعر الخاصة لله تعالى، وعشقه لذات الباري القدسيّة، وخضوعه وإقراره لمشيئة الخالق، وحبّه الشديد لمحبوبه مالك الملك، الرحمان الرحيم، كلّ ذلك جعله يشتاق لقاء هذه الذات، ويحنّ حنواً عظيماً إلى سلطانها وعدلها ونعيمها. ولقد تفجر هذا الفيض من العشق، والوله توقاً أبعد الشاعر عن أدران الدنيا، وملذاتها وشهواتها، وحرّره من قيود العبودية، فالشاعر سئم هذه الدنيا الفانية التي يعيش فيها الإنسان القلق والضياع والتشرّد، وهو «يحترق بنار الحب كما الفراشة بنار المصباح»، والشاعر اقتنع كلياً أن الحياة الآخرة هي الفوز والنعيم والرضوان.

وهو ما عاشه من خلال فكره القرآني **﴿وإنّ الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون﴾**[١]. هذه الدّار التي تاق الشاعر إليها، وهفا للقاء من يحبّ في رحابها، **﴿ولنعم دار المتقين﴾**[٢]، والشوق إلى لقاء الله تعالى تجلى في معظم قصائد الشاعر الصّوفية وتوجهه الروحي، والتي تعد لحظات تأمّل، عاشها الشاعر في كلّ نبضة من نبضاته، وفي كل حركة من حركاته، فإذا بكيانه يتلهّف إلى المكان الذي يحف فيه الملائكة، ويخيم عليه العدل الإلهي والطمأنينة، حيث يرى الشاعر ما وعد الله نبيّه و **﴿ترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله ربّ العالمين﴾**[٣]، وهنا يطرح السؤال، كيف عاش الشاعر حال الشوق إلى الله تعالى؟

---

(١) سورة العنكبوت، ٢٩/ ٦٤.

(٢) سورة النحل، ١٦/ ٣٠.

(٣) سورة الزمر، ٣٩/ ٧٥.

يقول الشاعر:

«وفـــي كيـــانِـــي لهفـــةٌ للمـــدَى المجهـــولِ للغيـــبِ... فهـــل نلتَقـــي
حسبـــي غمـــوضُ الســـرِّ أحيـــا بـــه فلـــم أزلْ مـــن نبعِـــهِ أستَقِـــي»(١)

بدأ الشاعر أبياته بحرف الجر (في) والاسم المجرور (كيان) المضاف إلى (ي) المتكلم، وقد قدّم الشاعر الجار والمجرور على المبتدأ المؤخر (لهفة)، فأظهر بهذا التقديم أهمية الخبر المقدّم على المبتدأ، والجار والمجرور يحتملان دلالة مكانية نفسيّة تتنازعها الحال التي يعيشها الشاعر، فكيانه لم يعد يطيق الاستقرار والركون إلى ما هو فيه، بل إنّ كيانه يعيش اللهفة والشوق، وإذا ما أسند الشاعر اللهفة للكيان، فقد أراد أن يشير من خلال كيانه إلى كلّ ما ينبض فيه، واللهفة التي تسيطر على وجدان الشاعر وكيانه، تخرج هذا الكيان من دلالته الحقيقية لتمنحه صفة العاشق المستهام الوله، المتلهف لوجهة لا حدود لها، إنها (للمدى المجهول) وأي مدى هو هذا؟ إنه رحاب أجواز الفضاء حيث اللانهاية، وحيث الجنة التي أعدّت للمتقين، والتي يُتَسَابَقُ إليها ﴿**سارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدّت للمتقين**﴾، إن المدى الذي يجهله الشاعر، يمتد في كل مكان وحيث لا نهاية. ويأتي الجار والمجرور «للغيب» كبدل عمّا قبله ليوحي الشاعر من خلاله أنه متعلق بعالم الغيب، الذي يعد الإيمان به أرقى درجات التقوى واليقين، وقد بشر الله المؤمنين بهذا الغيب بالراحة والسعادة والطمأنينة والهناء، ﴿**ذلك الكتاب لا ريب فيه * هدى للمتقين * الذين يؤمنون بالغيب**﴾(٢)، وإذا ما اشتاق الشاعر وتلهف للمدى المجهول

(١) محمد حسين فضل الله، قصائد للحياة، ص ١٥.
(٢) سورة البقرة، ٢/٣٠٢.

للغيب، فإنه يهفو للعَالِم به، ألا وهو الله تعالى: **﴿عالم الغيب والشهادة﴾**[1]، ويأتي الاستفهام في ختام البيت (هل نلتقي؟) ليخرج بهذا الاستفهام إلى إيحاءات جديدة، وأبعاد دلالية يحملها تساؤله عن توقعه للقاء، في عالم لا يعلم حقيقته إلا الله، ولا يلتقي فيه إلا الأخصاء من المؤمنين الذين صدقوا، والذين ما عاهدوا الله عليه. أحبوه في كل جارحة من جوارحهم، وفي مشاعرهم الصادقة. والذين آمنوا بهدى أنبيائه غيباً، وعشقوا الله وهم لم يروه واشتاقوا إلى اللقاء الإلهي، حيث لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ويأتي الفعل المضارع «نلتقي» وفاعله «نحن»، بما يوحي من جو الأنس والطمأنينة بين الله تعالى والشاعر، والفعل نلتقي يمنح هذه الصورة البعد المستقبلي، والرغبة في تحقيق لهفته الظامئة إلى سكون اللقيا الإلهية.

ويأتي البيت الثاني، وقد ابتدأه الشاعر بالمبتدأ (حسبي) للدلالة على الإكتفاء بما حصل عليه ونال، وما قسم له في هذه الحياة، وإذا ما كانت القناعة كنز لا يفنى، فإن الشاعر اكتفى (بغموض السر) وأي سر هو هذا؟ إنه سر خالق الوجود، والذي ستنتهي إليه رحلة الشاعر، هذه الرحلة المحفوفة بعدم معرفة الشاعر وجهله للدرب المؤدية إلى الملتقى في المدى المجهول، وإذا بالمبتدأ «حسبي» وهو بمعنى يكفيني، يشير إلى اقتناع الشاعر بهذا الغموض، الذي يلف عالم الغيب، وفي ذلك دلالة وهوية جديدة توحي بقسمة الحياة، وما سيناله الشاعر كحصة له، وفي رحاب هذا الغموض للسر الإلهي يحيا الشاعر، وماذا بعد ذلك؟

لقد قنع الشاعر، بما حصل عليه رغم اللهفة الشديدة في نفسه، وعلى

---

(١) سورة الحشر، ٥٩/ ٢٢.

شدة الشوق في كيانه الملتهب، والذي تضطرم فيه نيران الحنين إلى المحبوب العظيم، مبدع الكون، وموجد المحبة.

إن الشاعر لم يظمأ في سيره الحثيث إلى الله تعالى، فلم يزل يستقي من نبع هذا السر الغامض، الذي من خلاله آمن بالله وملائكته وأنبيائه ورسله، فاشتاق إلى عالم الملكوت الأعلى، مرتوياً، من غموض سره الذي صار نبعاً. وإذا ما أسند الشاعر للسر هوية «النبع»، فإن هذه الهوية الجديدة توحي بقوة العطاء، فالأرض تختزن المياه في جوفها، ولكن سرعة المياه وشدة جريانها، ودفقها القوي، يتفجر نبعاً، يسيل في الأرض، والنبع يستحضر صورة الظمأ والعطش واللهفة للإرتواء من هذا النبع العظيم، الذي كلما عاد إليه الإنسان وارتشف منه قطرة، شعر بالاستقرار والهناء فأي ينبوع أعذب وأطهر من معين الإيمان الغيبي بالله؟ وأي حنين يسمو على شوق الإنسان إلى خالقه الذي فطره على حبه والتعلق به؟...

إن الشوق الذي يمتلك كيان الشاعر، لا يحد ولا يوصف، ولا تخمد ناره، وهو إذّاك يأخذ في كل لحظة تسنح له جواً روحياً يوحيه واقع العلاقة بين الشاعر المحب المشتاق/ والله المحبوب.

وللشوق ما يبرره، فالعاشق المحب الوله يشتاق حبيبه لأنه يطمئن إليه، وتهش نفسه لمرآه، ولأنه يبثه لواعج قلبه، وأحلامه، ولا يستطيع أن يبوح بما في كيانه إلا لمن يتلهف لرؤيته، ولمن تشده إليه أواصر الحب، والشاعر يعيش في دنيا يهيمن عليها الحقد والبغضاء، وهو يأمل لقاء الله مبتعداً عن أدران دنياه التي تعد بالنسبة إليه دار لهو، ومتاع وتكاثر بين الناس في الأموال والأولاد، بينما جعل الله داره الوادعة الهانئة لمن لا يريد علواً في الأرض ولا فساداً ﴿**تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوّاً في الأرض ولا فساداً**

والعاقبة للمتقين﴾(١)، والله تعالى يأمر بالعدل، والإحسان والمحبة والإبتعاد عما ليس له فيه رضى، لذا كان لشوق الشاعر أسباب عاشها واقعاً، جعلته ينأى عن البشر حيث دجى الحقد والكره ويهفو إلى الحق الصراح وبحيرة الحب، يقول الشاعر:

«ضمّني في بحيرة الحبِّ إني أقطع العمر في دجى البغضاءِ»

يطالعنا الشاعر بالفعل الأمر (ضمني) المتعدي إلى ياء المتكلم، المفعول به، وفي هذه التعدية مثل الشاعر نفسه طرفا لحظة عناق وضمّ. وإذا ما كان المخاطب هو الله تعالى، والفعل الأمر المسند إلى الله تعالى على سبيل المجاز لا الحقيقة، وهو في سياق الجملة الإنشائية يتضمن معنى الرجاء والدعاء. والله تعالى هو فاعل «ضمّ» المخاطب دائماً في لحظات المناجاة والدعاء والتوسل، وطلب الرحمة التي وسعت كل شيء، وأين المكان الذي سيضم الحبيب فيه حبيبه؟ هل هو كما نعهد، تحت أفياء ظلّ، أو جنح الظلام، أو في رحاب البيت حيث تضم الأم أطفالها وتحنو عليهم؟ إنه في «بحيرة الحبّ» حيث العالم الإلهي والمدى الذي يشتاقه الشاعر، والمعرفة التي يشوبها غموض أو إلتباس، حيث الله الرحمان الرحيم، باعث المحبة في الإنسان، وجزئيات الحياة، وإذا ما ذكر الشاعر أن الملتقى للضمّ والعناق هو البحيرة، فإنه أخرج الحبّ المضاف إليه في قوله «بحيرة الحب» عن هويّته الحقيقية المعنوية ليمنحه هوية جديدة توحي بكل هذا الإتساع اللامحدود فالبحيرة التي ترمز إلى الخير والعطاء الجمّ والصدر الواسع، منحت الحبّ كلّ صفاتها، وهذا ما أدته عملية الإسناد والتركيب التي أقامها الشاعر وزاوج من خلالها بين الكلمات.

(١) القصص، ٢٨/ ٨٣.

ولعل التساؤل يبقى: لم يأمل الشاعر من الله تعالى أن يضمه في بحيرة الحب الصافية الرحبة؟ يأتي الحرف المشبه بالفعل المؤكد للفعل بعده، والمسند إلى ياء المتكلم، ليشير الشاعر بواسطته إلى قطعه درب الحياة، فالفعل المضارع (أقطع) فاعله (الشاعر)، يوحي بإجتياز مسافة ما، وأية مسافة هي هذه التي يقطعها الشاعر؟ يأتي المفعول به (العمر) ليخرج الفعل أقطع إلى هوية جديدة، توحي بتعاقب الأيام والليالي، فالشاعر يجتاز العمر لا الطريق، وكيف يقطعه وأين؟ إنه لا يقطع عمره في اللهو وإنما «في دجى البغضاء» فالحقد لم يعد حقداً وبغضاً عادياً، وإنما ألبسه الشاعر ثوب الليل، فالدجى/ الظلام، دليل على عدم الإهتداء، والمعرفة والتمييز»، وإذا ما أضاف الشاعر الدجى إلى البغضاء فإنه جعل بهذه الإضافة نسباً بين الظلام والحقد، وزواج بين الإثنين. فالمبغض والقال والحسود إكتسب هوية الليل/ المتاهة.

فمقابل بحيرة الحب/ الله تعالى، هناك دجى البغضاء/ البشر. فالله هو الحب المطلق، والخير المطلق، بينما البشر هم أهل الغدر والخيانة، وفي دلالة دجى البغضاء إشارة من الشاعر أنه يعاني في مسيرة الحياة والوجود ممن حوله، ومما حوله. وقد هيمن عليهم البغض والشنآن، وما من نجاة إلّا بالرجوع إلى الله والأمل بلقائه، والإلتصاق به والجلوس بين أحضان رحمته، حيث يضم الحبيب حبيبه في بحيرة الحب، ويحميه من المبغضين والحاسدين والشامتين المتربصين بالمحبين شراً.

وفي غمرة سير الشاعر توقاً إلى الله، تُطِلُّ «روحه» التي ما تعلقت إلّا بالباري، فإذا بهذه الروح تتلذذ الألم في سبيل الوصول إلى الله سبحانه، بعد أن سئمت أفقها المكبل بالأغلال، واقتادها الدّليل إلى الخالق، والروح التي اشتاقت الله تعالى هي روح بتول طاهرة نقية، يأمل الشاعر من الخالق العظيم

أن يباركها لأنها تخلت عن العالم الذي يمرح الإثم عليه ويسرح التدجيل والنفاق والرياء، يقول الشاعر:

(على وزن الخفيف)

«وأنا هائمٌ وروحي تلتاعُ، ودنياي في سمَاكَ تجولُ
استحثُّ الخطى إليكَ كأنَّ الشوقَ في جانحيَّ نارٌ أكولُ
حملتني روحي إليكَ فبارِكها وروحي كما علِمْتَ بتولُ
سئِمتْ أفقَها المكبّلَ بالأغلالِ فأقتادَها إليكَ الدَّليلُ
وتخلَّتْ عن عالمٍ يمرحُ الإثمُ عليهِ ويسرحُ التَّدجيلُ
لا ترى فيهِ غير مذأبةٍ تعوي وكونٍ على الضَّعيفِ يصولُ»(١)

إذا سرنا في رحاب هذه الأبيات نلاحظ أن كلمة (روحي) تتكرر ثلاث مرات، وضميرها الغائب أربع مرّات، كذلك نلاحظ أن ياء المتكلم قد تكررت ست مرات في الأبيات الستة، وهو ما يشير بوضوح إلى عمق المعاناة التي يعيشها الشاعر، فهو قد بدأ بالضمير المنفصل (أنا) المبتدأ ثم أسند إليه الخبر (هائم) وهو اسم فاعل من الفعل المعتل هام، وفي هذا الإسناد دلالة تظهر حال الضياع التي يحياها الشاعر، والضياع يجعل الإنسان خائفاً، متردداً متأوهاً. وتأتي (واو العطف) قبل كلمة (روحي) المبتدأ المعطوف على الضمير (أنا) والذي أسند إليه الشاعر الجملة الفعلية (تلتاع) كخبر دل على مدى الشوق والحنين، ففي اللوعة أشواق وأحلام. والتياع الروح إخراج لهذه الروح المعنوية التي لا يدرك سرها إلا الله تعالى عن نسقها الحقيقي، لتضيء هذه الدلالة على ما قبلها. فالشاعر هائم ضائع، والروح ملتاعة تعاني مشقة الضياع، وفي التركيب الأول (أنا هائم) والثاني (روحي تلتاع) صورة

(١) محمد حسين فضل الله، قصائد للإسلام والحياة، ص ١٢، ط ١.

تجعل التفكير يعيش فكرة صراع الجسد/الروح، وكأن الشاعر فصل بين جسده وروحه، ليشير إلى أنه هائم على وجه الأرض بجسده المادي، بينما روحه تحلق في أجواز الفضاء، ورحاب العلياء، مترفعة عن أدران الدنيا وشهواتها، لكنها حائرة. والحيرة أوحاها الفعل المضارع تلتاع، وأين تلتاع؟ إنها في عالم آخر، وإذا ما اجتمع الإثنان في دنيا الشاعر، جالت هذه الروح آفاق السماء، ويأتي المبتدأ (دنيا) المعطوف على ما قبله بواسطة (واو) العطف والمضاف إلى (ياء المتكلم)، ليخرج الشاعر هذه الدنيا عن حقيقتها بإسناد الفعل (تجول) المضارع إلى دنياه، وأية دلالة يوحيها هذا الفعل؟ إن الشاعر الهائم والروح الملتاعة، خلقت دنيا سائحة، باحثة عن ملجأ وركن تلجأ إليه وتحتمي به، فالفعل تجول يوحي بالإنتقال من مكان لآخر، فالدنيا تمارس عملية السياحة، وإذا ما كانت سياحة الإنسان على الأماكن الأثرية في رحاب الأرض، فدنيا الشاعر تجول سماء الخالق، حيث الإمتداد اللانهائي وحيث اللاحدود فالله المالك لمقاليد الأمور و ﴿**هو الذي في السماء إله وفي الأرض...**﴾[1] وإضافة الضمير (الكاف) إلى (سماك) إعتراف غير مباشر من قبل الشاعر بعظيم هذه القدرة الجبارة، ومدى هيمنتها على عرش السماوات والأرض فـ ﴿**الرحمن على العرش استوى**﴾[2]، يدبر الأمر في ملكوته والشاعر مشتاق إلى اللقاء بمن يهوى ويحب في سماء الجمال والسعادة، متخلصاً من الضياع واللوعة.

لقد انطلق الشاعر في البيت الثاني من حال الضياع، التي فرضها عليه أنه تاه وهام، والتاعت روحه، وجالت دنياه في سماء الخالق، فإذا به يهتدي

---

(١) سورة الزخرف، ٤٣/ ٨٤.
(٢) سورة طه، ٢٠/ ٥.

الطريق، ويبصر بريق الأمل في رحلة الشوق إلى الله تعالى، فماذا فعل؟ وإلام يطمح؟ يأتي الفعل المضارع (استحث) وفاعله الضمير المستتر وجوباً (أنا) العائد للشاعر، ليوحي بالدفع والقوة، والنشاط فالتيه يشل الحركة، ولكن بريق الأمل الذي يوحي للشاعر بالوصول إلى الله، يدفعه للسرعة والجري، والسير الحثيث المتواصل دلالة مما يعبّر عن اللهفة والشوق للوصول، لكن إلى أين؟ يأتي الجار والمجرور (إليك) ليحددا وجهة سير الشاعر العارف بعظمة الله سبحانه وتعالى، والفعل أحث عدّاه الشاعر إلى المفعول به (الخطى) ليخرج الشاعر الخطى عن دلالتها الحقيقية فنفسه منهكة متعبة، وخطاه لا تسعفانه على الحركة، فهو يستحثّها ويدفعها للتواصل معه، وفي ذلك إشارة إلى العلاقة القائمة بينهما، فالخطى لم تعد أقداماً، أو أعضاءً من جسد الشاعر، وإنما صارت إنساناً، يحمل رغبة الشاعر وشوقه وتوقه، لإلقاء متاع رحلته بين يدي محبوبه المشتاق إليه، وإلام يشتاق الشاعر وصولاً؟ وإلى أين يحث الخطى؟ إن الجار والمجرور (إليك) يشكلان الوجهة المكانية، والهدف المنشود عند الشاعر، إنه يستحث الخطى إلى الله تعالى/ نهاية المطاف ﴿إن إلينا إيابهم * ثم إن علينا حسابهم﴾[1]، فإليه المرجع ﴿إلي مرجعكم﴾[2]، ويطالعنا الحرف المشبه بالفعل (كأن) والمتضمن معنى التشبيه، وما هي صورة التشبيه هنا؟ يأتي لفظ الشوق المضطرم والمتأجج لهفة وحنيناً إلى الله تعالى، ليتخذ هوية جديدة من خلال (الجار والمجرور) اللذين أسندهما الشاعر كهوية مكانية للشوق (في جانحيّ) والجانح يستحضر صورة الطائر الذي يجول في السماء دائماً، وهذا ما يقوي صورة الروح المتجولة في سماء الخالق، بحثاً عن الطمأنينة والسعادة،

---

(١) سورة الغاشية، ٨٨/ ٢٥ و٢٦.

(٢) سورة لقمان، ٣١/ ١٥.

وإضافة جانح إلى ياء المتكلم المدغمة مع ياء المثنى، إخراج لذات الشاعر من موضوعيتها الحقيقية إلى هوية جديدة: هي هوية هذا الطائر الذي منحه الله فسيح سماواته ﴿**ألم تر إلى الطير فوقهم صافات ويقبضِن ما يمسكهن إلا الرحمن**﴾[1] ويأتي الخبر (نار) ليمنح الشوق هوية الجذوة المستعرة، فإذا ما كان الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب، فإن نار الشوق تأكل كيان الشاعر إلى الله تعالى، إلى الحبيب، وهنا ذكر لمدى هذه اللهفة، فسرعة الحركة والسير الحثيث، يجعل الإنسان يتصبب عرقاً، ويجعل دقات القلب متسارعة، والشعور بالنيران تضطرم في القلب والذات. وهذه الإيحاءات والدلالات لم يقدمها الشاعر مباشرة، وإنما من خلال الإسناد الذي أقامه بين الكلمات، في الحقلين المتتابعين حقل الضياع/ وحقل الأمل والشوق.

﴿**وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها**﴾[2] والشاعر يأمل البركة لروحه، التي لا يعلم سرّها وكينونتها وحقيقتها إلا صاحب أمرها ﴿**ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً**﴾[3] وهو ما أقر به الشاعر في قوله (وروحي ـ كما علمت ـ بتول) فالروح مبتدأ مضاف إلى ياء المتكلم، أسند إليها الشاعر الخبر (بتول) وفي هذا الإسناد صورة توحي بالفطرة الصادقة التي فطر عليها.

والخبر (بتول) لا يبقي الروح على هويتها الحقيقية الموضوعية، فالبتول هي الطاهرة النقية، التي لم يمسسها أحد، فبقيت على طهارتها وروحانيتها، كذلك هي الروح، لا تأمل إلا العودة إلى الله الكبير المتعال الخالق المصور كي يباركها، فتلتقيه بعد رحلة الشوق المضني إليه، فينزل

---

(١) سورة الملك، ٦٧/ ١٩.
(٢) سورة الأعراف، ٧/ ١٣٧.
(٣) سورة الإسراء، ١٧/ ٨٥.

عليها ملائكته بالرحمة والغفران، ويحتويها بالرضى، وفي ذلك طمأنينة للشاعر وهدأة عمر واستقرار بعد الضياع والتشتت وهو ما وعد الله به عباده المتقين الصالحين المباركين **﴿ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده﴾**[(١)] أولئك الذين يظلل الله أرواحهم فيء الهداية والبركة والرحمة.

وإذا كانت صورة الشاعر في البيت الأوّل، هي صورة الإنسان الهائم على وجهه، المتخبط في ميدان لا يعرف سبيل الخروج منه، وصورة الروح الملتاعة، والدنيا المتجولة. وإذا ما طالعنا بصورته الجديدة كطائر تأججت في جناحيه نيران الشوق إلى خالقه، فكيف أطل الشاعر في البيت الثالث؟ يأتي الفعل (حملتني) الماضي المتعدي إلى (ياء المتكلم) العائدة للشاعر، والفعل حمل يحمل دلالات معينة، فالحمل لا يكون إلا بين إثنين أحدهما حامل/ والآخر محمول، أي أن هناك طرفاً قادراً على الحركة والنشاط والحمل، وآخر لا يقوى على ذلك، فهو منهك القوى متعب، خائر العزم، فإذا احتاج إلى ما يحمله ليتابع مسيرة الشوق إلى الحبيب، العظيم الخالق البارئ، وإذا ما أسند الشاعر الفعل حمل إلى الروح، لم تبق هذه الروح على دلالاتها الحقيقية الموضوعية، فالشاعر جسد منهك متعب عالمُهُ الأرض، والروح رحابها السماء، لذلك حملت الشاعر إلى بارئها، فالشاعر محمول على أجنحة الروح المحلقة في الأعالي. فالروح وسيلة هدفها المنشود هو الله تعالى، ما يصبو الشاعر إليه ويشتاقه.

وتأتي فاء الإستئناف، قبل فعل الأمر (بارك) وفاعله الله والمتعدي إلى ضمير (الهاء) المفعول به، (الروح الحاملة) وهو أمر ليس بصيغة الطلب

---

(١) سورة النحل، ١٦/ ٢.

وإنما على سبيل الدعاء، فهو هنا موجّه من الشاعر/ المحتاج الفقير إلى الله تعالى ﴿يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله﴾[1]، وإلام يفتقر الشاعر؟ وماذا يرجو؟ إنه يطلب من الله أن يبارك روحه، والمباركة لا تكون إلا ممّن هو في مكان سام ومرتبة عظيمة، فهل أسمى وأعظم من الله مبارك للروح والنَّفس والإنسان ﴿وقل رب أنزلني منزلًا مباركاً وأنت خير المنزلين﴾، وهو الذي بارك الأرض ومن، وما، عليها.

و ـ القلق والحيرة:

طرح القرآن الكريم مسألة القلق والحيرة والشك، انطلاقاً من تساؤلات الأنبياء الكثيرة، مروراً بالحوار الذي كان يدور بين النبي المرسَلِ، وقومه، الذين دلّت محاوراتهم العديدة على حال القلق، والاهتزاز النفسي الذي كانت تعيشه هذه الأقوام، القلقة على مصيرها والحائرة في واقعها. ولعل الشكوك التي انطلق منها كل فرد في مجتمعات الأنبياء، تظهر عمق عدم الاستقرار في الوجدان البشري، ويمثل الحوار بين إبراهيم الخليل والباري أعلى محطة بارزة تظهر هذا القلق الدافع إلى المعرفة ﴿وإذ قال إبراهيم ربّ أرني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهن إليك يأتينك سعياً واعلم أن الله عزيزٌ حكيم﴾، إن إبراهيم عليه السلام مؤمن بالبعث إيماناً لا يشوبه شك، وحواره مع الله تعالى دلالة صارخة بصورة الواقع من حوله، والذي كان يتخبط في ظلام الجهل، والضلال «وكيف كان فإن خليل الرحمن آمن بالبعث إيماناً غيبياً عن طريق الوحي كغيره من الأنبياء

(١) سورة فاطر، ٣٥/ ١٥.

والصديقين»[١]، ولكن إذا أردنا أن نطرح سؤالاً معيناً، وأن نتساءل عن السبب الذي دعا إبراهيم(ع) إلى هذا السؤال، الذي يحمل بذور القلق والشك؟، جاءنا الجواب: أن إبراهيم «أحب أن يشاهد الحادثة بعينه بعد أن شاهدها بقلبه وعقله، وبذلك تتم لديه جميع طرق المعرفة قلباً وعقلاً وتجربة»[٢]، وهو ما حصل فعلاً. إذاً قلق إبراهيم أفضى به إلى المعرفة، من كافة جوانبها. وهذا موسى(ع) يوجس في نفسه خيفة وقلقاً، حين رأى ما صنع سحرة فرعون وهو ما ينقله لنا كتاب الله ﴿**قالوا يا موسى إما أن تلقي وإما أن نكون أول من ألقى * قال بل ألقوا فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى * فأوجس في نفسه خيفة موسى * قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى**﴾[٣] لقد قلق موسى وأوجَسَ في نفسِهِ خيفةً لكن الله تعالى كان إلى جانبه، وجعله يعرف معرفة القلب والعين عظيم قدرته فإذا به يأمره ﴿**وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى**﴾[٤]، وأنجز الله وعده. وتحقق لموسى ما تحقق لإبراهيم، فإذا كان القلق يفضي إلى معرفة الله تعالى، فإن الشاعر يفرق بين القلق والحيرة، وقد عاش الحالين في شعره، فأرقى درجات اليقين قد تأتي عقب مرحلة القلق والشك، والقلق إيجابي، أما الحيرة فهي بنظر الشاعر هدَّامة عقيمة، لأنها تقود إلى الضّلال والهلاك، وفي هذا السياق يقول الشاعر «أنا لا أرى القلق حالةً سلبية، إن القلق هو الذي يدفعك إلى المعرفة، إن قلق المعرفة يدفعك إلى الأخذ بالمعرفة، وقلق المصير يدفعك إلى أن تعيش الصراع في قضايا

---

(١) محمد جواد مغنية، التفسير الكاشف، ١/ ٤١٠.
(٢) محمد جواد مغنية، التفسير الكاشف، ١/ ٤١٠.
(٣) سورة طه، ٢٠/ ٦٥، ٦٦، ٦٧، ٦٨.
(٤) سورة طه، ٢٠/ ٦٩.

المصير، وقلق إنسانيتك يجعلك تحاول أن تنزل إلى أعماق إنسانيتك، لذلك فأنا لا أزال أعيش قلق المعرفة»(١)، إن الشاعر ينظر إلى القلق نظرة تختلف كلياً عن الحيرة والشك، وقلقه متعدد الإتجاهات. خصوصاً أنه يتوجه نحو قضايا ثلاث مصيرية: «قلق المعرفة، قلق المصير، وقلق الإنسانية»، وكل منها يحث على البحث، والتمحيص إلى تحقيق العلم بما يبحث عنه، فقلق المعرفة يدفع الإنسان إلى الأخذ بأسباب المعرفة، ومقدماتها وأسسها، حتى إذا بلغ ما يريد معرفته اطمأنت وهدأت روحه، واستقرت حياته، والنفس المطمئنة هي الراضية المرضية التي لا يعرف القلق والحيرة والشك سبيلاً إليها، فالعلم بالشيء ومعرفته أمر ليسرّ الإنسان. لأنه كثيراً ما يعادي الذي يجهله، ولا يعرف حقيقته. ويأتي قلق الشاعر على المصير: المصير الإنساني في الدنيا، والمصير الأخروي، «يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها» وإذا ما كان المصير إلى الله، كان لازماً على الشاعر أن يذكر قلقه المصيري لا سيما أن الله تعالى يملك زمام المصير ﴿**ولله ملك السموات والأرض وما بينهما وإليه المصير**﴾(٢) وقلق المصير يدفع إلى اجتراح وعمل ما يحقق العاقبة الحسنة، وهذا ما انطلق الشاعر إليه مردداً مع من سبقه ﴿**ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير**﴾(٣) وقضايا المصير كثيرة، ومعرفة الإنسان بها، وتحسسه لعمقها يدفعه إلى أن يخوض الصراع حفاظاً على مصيره، وبقائه ومسيرة تواصله، وقلق الإنسانية يجعل المرء ينزل إلى أعماق إنسانيته ليكتشف ما فيها وليعيش تطلعاتها وآمالها، وليقلبها ذات اليمين، وذات الشمال، ليكون المرء فرداً في أمة، وأمة في فرد، لأن الذي يعيش قلق

---

(١) مقابلة أجريتها مع الشاعر، بتاريخ ٢٣/٧/١٩٩٦.
(٢) سورة المائدة، ٥/١٨.
(٣) سورة الممتحنة، ٦٠/٤.

المعرفة والمصير والإنسانية هو عقل الأمة المتكامل مع بقية أعضائها.

يقول الشاعر «لا زالت إنسانية القلق في حياتي تفرض نفسها على كل نشاطي الفكري، والشعوري والحركي. لأنني أرى أن قيمة الحياة هي بمقدار ما يتسع القلق، وأنا أفرق بين القلق والحيرة، القلق إيجابي يدفعك إلى الحركة وإلى البحث، والحيرة سلبية تجعلك تعيش الضياع»(١)، لقد أخرج الشاعر القلق عن حدوده الموضوعية الواقعية، ليمنحه هوية الإنسان، فالقلق يهيمن على ذات الشاعر بإنسانيته، هذه الإنسانية التي توجه كل تحركات الشاعر الفكرية، والشعورية والحركية، وإلى أين المصير؟ لا شك أن كل هذه الأحاسيس تنبع من عمق التجربة التي عاناها الشاعر مدفوعاً إلى المعرفة في شتى مجالاتها في الفكر والوجدان والعمل، وإذا ما فاضت قريحة الشاعر في لحظات الأنس مع الله تعالى، توسل الشاعر قلِقاً حائِراً، يقول:

(على وزن الخفيف)

«ربِّ رُحْمَاكَ قد ضلَلْتُ طريقي ... والهُدَى فاهدِني صِرَاطاً سويَّاً
أنا ما لي أسعَى وألتمسُ الدَّرْبَ ولا أبصِرُ الشُّعاعَ المضيَّا
أنا في حَيْرةٍ أفكِّرُ في ذاتي ... كأنِّي أتيْتُ أمراً فريَّا
أنا يا ربِّ تائِهٌ وغريبٌ ... لا يرى في الحياة ورداً هنياً»(٢)

يلاحظ في هذا النص الحضور البارز «للأنا»، وفي ذلك دلالة على أن الشاعر يعيش لحظات الصراع النفسية، وقلق المصير، وهو إذا حلّق خارج سربه الإيماني، فإنه قد ضلّ سبيل الوصول إلى الله الهادي والمقيل، وإذا بنا أمام نص يهيمن عليه حقل دلالي واحد هو حقل الحيرة، وما يدور في فلكها

(١) مقابلة أجريتها مع الشاعر، بتاريخ ٢٣/٧/١٩٩٦.
(٢) محمد حسين فضل الله، قصائد للإسلام والحياة، ص ٩ ط١.

من: «ضياع وعدم اهتداء أو وضوح رؤية» وهذا الحقل تمثله ألفاظ النص بدلالاته (ضللت طريقي) (مالي أسعى) (ألتمس) (لا أبصر) (في حيرة) (أفكر) (تائه) (غريب) (لا يرى).

بدأ الشاعر بأسلوب النداء، وحذف حرف النداء (يا) والمنادى هو الربّ، وإذا ما كان يتوصل إلى نداء لفظ الجلالة بدون واسطة، لأن مجرد ذكر لفظ الجلالة يتضمن نداء وتوسلاً وتضرعاً يتوجه من قلب المنادي (الشاعر)، وهو نداء يحمل دلالة التأوه، والحسرة وطلب الرحمة المختصة بالله تعالى (رحماك) وهي من أقدس أسمائه الحسنى، وممَّا ٱختصَّ الله تعالى به، فهو الرب الرحيم الهادي للصراط السوي، لقد بدأ الشاعر بذكر الرحمة وهي مفتاح باب الأعمال إلى الله، وواسطة الدعاء والتوسل والرجاء **﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾**[1]، ومن المنادى؟ إنه من أمر عباده بدعائه، وكان حقاً عليه الإجابة لمن يرجوه ويدعوه، وهو ما وعد به المتضرعين إليه **﴿وقال ربكم أدعوني أستجب لكم﴾**[2]، وبِمَ دعا الشاعر؟ لقد دعا طالباً الرحمة، / شريعة الله الكبرى، ومما اختص به **﴿ورحمتي وسعت كل شيء﴾**[3]، وحين نعلم أن الداعي يتقرب إلى الله راجياً تحقيق أمر ما، حق لنا أن نتساءل ما غاية الشاعر من ندائه ودعائه؟ يقول مقراً معترفاً **﴿قد ضللت طريقي﴾** وقد قبل الفعل الماضي (ضل) تفيد التحقيق وعدم الشك، وهو ما أكده القرآن الذي استوحى الشاعر من أسلوبه فكرة الضلال والهداية، وما توحي كل منهما به **﴿قل لا أتبع أهواءكم قد ضللت إذاً وما أنا من المهتدين﴾**[4]، ولعل

---

(١) سورة الفاتحة، ١/١.

(٢) سورة غافر، ٤٠/٦٠.

(٣) سورة الأعراف، ٧/١٥٦.

(٤) سورة الأنعام، ٦/٥٦.

الشاعر قد اتبع أهواءه مما جعله يضل الطريق، وضلال الطريق إبتعاد عن الصراط الذي أمر الله سبحانه الشاعر والناس أن يهتدوا إليه ﴿**إهدنا الصراط المستقيم**﴾[١] وضلال الطريق تبدل الكفر بالإيمان أيضاً، وعدم الإهتداء إلى السبيل القويم، والفعل (ضللت) عدّاه الشاعر إلى المفعول به (طريق) وأي طريق هو هذا؟ إنه عمر الشاعر الذي قضاه عَبَثاً، فطريق مضاف إلى «ياء المتكلم» العائدة للشاعر، وفي ذلك دلالة على حجم مأساة القلق على المصير، والذات عند الشاعر، وإذا كان الضّلال والإهتداء يتنازعان النفس، فإن الشاعر قد عاد ليؤكد أن كل شيء بيد الله، وإنما الضلال والهدى على النفس التي تجترح الأعمال ﴿**قل إن ضللت فإنَّما أضلُّ على نفسي**﴾[٢]، وهو لذلك يطلب غايته وما ينشده من الله تعالى، ففعل الأمر (إهد) طلب بصيغة الدعاء الموجه من الشاعر الأدنى / إلى الله الأعلى، وإذا ما ضل الشاعر الطريق وهدى الإيمان، طلب الله تعالى: ﴿**إهدني صراطاً سوياً**﴾ ﴿**والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم**﴾[٣]، والفعل (إهد) فاعله الله تعالى، وجرياً على عادة الأنبياء وما يرجونه من الله طلب الشاعر هدايته ﴿**قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم ديناً قيماً**﴾[٤]، وفي ما يطلبه الشاعر تمام النعمة الإلهية، لأن معرفة الطريق والصراط المستقيم تفضي حكماً إلى العارف العظيم، الذي يهدي من يشاء إلى نوره، ومن أهدى من يسير على صراط سوي ﴿**أفمن يمشي مكباً على وجهه أهدى أمن يمشي سوياً على**

(١) سورة الفاتحة، ٢/ ٧.
(٢) سورة سبأ، ٣٤/ ٥٠.
(٣) سورة النور، ٢٤/ ٤٦.
(٤) سورة الأنعام، ٦/ ٣٩.

صراطٍمستقيم﴾[١]، إن هذا التساؤل الإلهي يحمل معنى حاجة الشاعر إلى طلب الهدى، والإيمان والرجوع إلى درب الحق.

ويأتي الاستفهام (أنا ما لي أسعى)، وفي هذا التركيب يطل الضمير المنفصل (أنا) كمبتدأ يأتي تأكيداً لما سبقه من ضمائر، تدل على الحضور الشخصي للشاعر (كالتاء) الضمير في (ضللت) و(الياء) المضاف إليه في طريق، و(ياء) المتكلم المفعول به في (إهدني) وكلها تشير إلى عمق المعاناة التي تعانيها ذات الضّال للطريق، وطالب الهدى، وأما الفعل المضارع (أسعى) فإنه لا يبقى عند حدود دلالته الموضوعية، وإنما يشير إلى الحركة الدؤوبة من أجل الخلاص، وإذا ما كان الشاعر قد ضل الطريق، فإنه حثّ النفس على السعي لما يحقق رغباته، وأماله وعليه **﴿أن ليس للإنسان إلّا ما سعى﴾**[٢]، والشاعر يتساءل عن سعيه، وتأتي «واو العطف» التي تفيد مطلق المشاركة والجمع ليعطف الشاعر الفعل (ألتمس) على (أسعى) وفي الإلتماس وضع لا يحسد عليه الشاعر، لأن الإلتماس يعني تحسس النفس للمبتغى، وإلتماس الطريق دليل على أن الشاعر لم يعد يعرف سبيل الرشاد والهداية، وكأنه واقع بين سندان الأمل بالرحمة ومطرقة اليأس. وإذا ما التمس الشاعر الدرب الأضيق من الطريق، فقد احتاج إلى من يقوده بيديه إلى بر الأمان، ونور الإيمان والهدى، والتماس الدرب هوية جديدة يمنحها الشاعر لنفسه، وأية هوية هي هذه؟ إنها هوية الإنسان الأعمى الذي فقد البصر ولم يعد يهتدي السبيل والدرب، فعميت عيناه (مجازاً لا حقيقة) و **﴿من كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً﴾**[٣]، فالضال

---

(١) سورة الملك، ٦٧/ ٢٢.

(٢) سورة النجم، ٥٣/ ٣٩.

(٣) سورة الإسراء، ١٧/ ٧٢.

هو النائي عن نور الإيمان، وشعاع الهدى، خصوصاً أن الله ولي المؤمنين المتقين، يخرجهم من الظلمات إلى النور، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار الذين ضلوا طريقهم، واستبدلوا الكفر بالإيمان، فإذا بهم يجهلون درب الحق وينأون عن الشعاع المضيء الذي يمثل نور اليقين، والحق والدرب الذي قوّم مسيرة حياة المهتدين، والشاعر يقول (لا أبصر) إن عدم الرؤية دلالة على إنحراف وعدم إهتداء الشاعر لِمَا رسمه الله وسنه لعباده، والشعاع المضيء ليس شعاعاً عادياً ولا نوراً مادياً، وإنما هو نور اليقين وضوء التقى والرّشاد، وهو ما يتخذه من خلال هويّته الجديدة التي اكتسبها من معنى السّعي، والإلتماس وعدم الرؤية والإبصار.

وإذا ما كان مصير الشاعر هو الضياع على الطريق والدرب، والتخبُّط وسط ظلام النفس والدنيا، فأي وضع ينتابه؟ وإلام انتهى به المطاف؟ يقف الشاعر ليواجه الحقيقة المرّة ويقول بعد ذلك (أنا في حيرة) وإذا ما كانت الحيرة بنظره سلبية تجعله يعيش الضياع، فإنها قد فعلت فعلها في أثناء سعيه، والتماسه للدرب، وها هو يلجأ إلى الجملة الخبرية (أنا في حيرة) وأسلوب الخبر الذي اعتمده الشاعر هو على سبيل خبر لازم الفائدة، فالتركيب مؤلف من المبتدأ (أنا) والخبر المحذوف (موجود) والمتعلق به شبه الجملة (في حيرة) ولعلنا نتساءل: «لم لم يقل الشاعر (أنا حائر) دون اللجوء إلى الجار والمجرور؟»، إن دلالة (في حيرة) تناسب الوجهة المكانية التي اتجه إليها الشاعر ساعيّاً ملتمساً دربه. وإذا به يقف في حيرة، لا حول له ولا قوة، وفي مثل اللحظات المصيرية يكثر الشاعر من التساؤل والاستفهام والتفكير، «وبِمَ يفكر؟» لا شك أنه في غمرة هذه اللحظات الحرجة والصعبة يفكر بذاته، والأمر الذي سيؤول إليه مصيره، لأنها صارت مليئة بالإضطراب

والقلق، ولهذا نلاحظ أنه يحاول تفسير هذه الظاهرة التي يتنفس أجواءها، ولا يبصر دروبها، فينكر على نفسه ما يشين «كأني أتيت أمراً فريّاً» وهنا إستحضار لصورة مريم التي وقفت قلقة حائرة أمام قومها، حين جاءت تحمل طفلها، فقالوا لها ﴿يا مريمُ لقد جئت شيئاً فريّاً﴾[1]، فأشارت إليه لأنها كانت قد نذرت صوماً، ولكن الشاعر لم ينذر أي شيء، فمريم الطاهرة البتول قلقت على مصيرها والقلق إيجابي، بينما الشاعر أتى أمراً فرياً وهو في حيرة لا يدري ما يفعل.

ويأتي البيت الرابع، ليؤكد تشتت هذه الذات الحيرى، فالمبتدأ (أنا) قد بدأ الشاعر به للمرة الثالثة على التوالي، وتكراره إظهار لتذلل الشاعر وضعفه وحضوره الذاتي، وإذا ما كان الشاعر قد تساءل عن سبب سعيه والتماسه الدرب، وهو في حيرة من أمره، انتهى به المطاف إلى التيه والضياع. وهو ما يكون عاقبة ونتيجة للحيرة، فالمبتدأ (أنا) خبره (تائه) يتوسطهما المنادى (ربّ) وقد ذكر الشاعر الأداة (يا) الخاصة بنداء البعيد وكأنه بدأ يشعر ببعد المسافة بينه وبين الله سبحانه، وهو الذي جاء مبتدئاً بطلب الرحمة ومنادياً الله مباشرة شاعراً بقربه ودنوّه منه، فهو بدأ الضلال وانتهى بالحيرة الهدّامة العقيم، ويسند الشاعر إلى الضمير المنفصل (أنا) خبراً آخر هو (غريب) فالتائه الضائع في مكان ما لا يجد مأوى، ولا ناصراً ولا معيناً، مما يشعره بالغربة عن أهله وأحبته، وبفقد وجوده، فالشاعر ومن خلال الإيحاءات التي قدمها في سياق النص بدا متهالكاً، متعباً، حائراً، ضائعاً. لا يلوي على شيء، جاء إلى الله تعالى ضالاً وفي نفسه أن الله ربه له المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراطه المستقيم.

---

(١) سورة مريم، ١٩/٢٧.

ز ـ الخالق أنيس الوحدة

مهما تكن ظلمة الليل تغطي الأفق بستارة سوداء، ولا يرى على مد النظر سوى الظلمة والسواد، فإنه يبقى في ضمائر أولياء الله، والقلوب المبصرة مشعلاً ينير ويضيء صفحة الوجود، وما لا يمكن رؤيته بالنور الحسي يرونه بنور المعرفة والضياء الباطن، وكأن أشعة ما، فوق أشعة النور تشرق من قلوبهم النورانية، فتخرق كل الأجسام والحواس، لتكشف عما وراء الطبيعة والحواس، وتتوجه إلى نور السماوات والأرض، باعث الهناء والطمأنينة في النفوس، وإن هذا النور الإلهي يطلّ على الذين يأنسون بالله وذكره ﴿**واذكروا الله كثيراً**﴾[1]، هؤلاء الذاكرون يحيون الليالي بمناجاتهم وابتهالاتهم العشقية، والمفعمة بخلوص النية، والتوجه والإرتباط المحكم بالكمال المطلق، والجميل على الإطلاق والذي يفيض نوراً ومعرفة في كل لحظة الذي ﴿**لا تدركه الأبصار**﴾[2] وإنما تتوجه إليه في لحظات الوحدة، وفي الساعات التي يلجأ فيها الكثيرون إلى النوم، متناسين الذين ﴿**تتجافى جنوبهم عن المضاجع**﴾[3] الذين لا يعرفون طعماً، ولا لوناً للراحة والاستكانة، ويتوقون حاجة إلى الله تعالى، أنيس وحدتهم، ومهوى أفئدتهم، حيث يحلو للحبيب أن يخلو بحبيبه، ويبثه لواعجه ويشكو له همومه، ويحدثه عن أحلامه ورؤاه وإذا ما عاش الشاعر القلق والحيرة، في هذا العالم الذي جعل السأم يتسلل إلى كيانه مما يحبطه من وجود رآه مليئاً

---

(١) سورة الجمعة، ٦٢/ ١٠.
(٢) سورة الأنعام، ٦/ ١٠٣.
(٣) سورة السجدة، ٣٢/ ١٦.

بالآثام والشرور، فإنه في لحظات وحدته، وتحت جنح الظلام كان يأنس بالباري تعالى، فيلجأ إليه شاكياً وراجياً وآملاً وداعياً يقول:

(على وزن السريع)

«حتّى إذا نامَتْ عيونُ الورَى | وانطلقَتْ أحلاميَ السَّاميةْ
أشفقتُ: أن أفقدَ روحيَّةَ | الضياءِ، في أفاقي الضَّاحِيَةْ
فيستحيلُ النورُ في خاطري | - عبر الهوى - أسطورةً باليِةْ
فجِئْتُ في صوفيَّةٍ حرَّةٍ | تمدُّني بالشعلةِ الهاديَةْ
أدعوكَ في شعرٍ يرشُّ النَّدى | على رؤاهُ الخَضْرِ... أحلاميَةْ
وفي فمي... من توبتي... بسمةُ | الطهرِ... إلى آفاقِكَ الصَّافية»(١)

إن الشاعر لكثرة ما يعشق الله، وعالم ما وراء الطبيعة، ينتظر لحظة الانفراد مع الله سبحانه، ولذا نلاحظ في هذا النص مدى الانفتاح الكلي على الله تعالى، حيث تطالعنا في هذه الأبيات (روحية النفس) التي تأمل بلقاء الحبيب، خالق السماوات، وبارئ النسمات، لا سيما المناخ الذي تؤديه الكلمات يوحي بهذه الروحية، وهذا الإنفتاح (الإنطلاق، الأحلام، الضياء، الآفاق، النور، حرة، الشعلة الهادية، الرؤى الخضر، البسمة).

ويطل علينا الشاعر بقوله (حتى إذا نامت عيون الورى) مبتدئاً بـ «حتى» التي تحمل مدلولاً زمنياً يفيد إنتهاء الغاية والمدة، وكأنه يقول (إلى أن نامت) وما الذي ينتظره الشاعر أن ينام؟ يأتي الجواب (عيون الورى) والعين رقيب يترصد حركة الآخرين، وهي عضو حاسة النظر، وإذا ما أسند الشاعر الفعل نامت للعيون، فإن هذه العيون لم تبق على هويتها، فالنوم يلازم الإنسان،

(١) محمد حسين فضل الله، قصائد للإسلام والحياة، ص ٢٨.

وإغفاءة العين، دلالة على أن النائم لا يرى ما حوله، ولا يشعر بما يحيط به، فالشاعر أطلق الجزء (العين) وأراد الكلّ (الورى) وإذا ما غفت عيون الناس من حوله، انطلقت أحلامه السامية، والفعل (انطلق) يوحي بالسرعة ولم يسرع المنطلق؟ قد يكون خائفاً من شيء ما، وقد يكون مقيداً ورهن الاعتقال! وقد يكون مراقباً! فإذا لم يعد هناك من يترصد حركته فإنه ينطلق بسرعة كبيرة، ولكن هنا ما الذي انطلق وتحرر من قيده؟ هل هي النفس السجينة في هذا العالم؟ إنها (الأحلام السامية) والأحلام يختزنها الإنسان في ذاته، وفي تفكيره متحيناً الفرصة المناسبة ليطلق لها العنان، وحانت الفرصة للشاعر، إنها في الوقت الذي نامت فيه العيون، ولم يعد يسهر وسط الليل، إلّا من كان له أنيس يؤنسه ويُذْهِبُ عنه الأرق والقلق، والأحلام التي انطلقت لم تكن أحلاماً عادية، محدودة إنها سامية سمو من تسعى إليه وتأمل لقاءه، ويتبادر إلى الذهن سؤال، لماذا انطلقت أحلام الشاعر السامية عندما نامت العيون، وداعب الكرى الجفون؟

يقول (أشفقت أن أفقد روحية الضياء، في آفاقي الصاحية)، فالإشفاق هو الإحساس بالخوف والجزع، وممّ يخاف الشاعر؟ يسند الفعل أشفق إلى «ت» الضمير ليؤكد حضور ذاته وسط هذه الأجواء المليئة بالسحر، والصفاء الذهني والروحي، وتأتي «أن» الناصبة للفعل المضارع «أفقد لتظهر سبب إشفاق الشاعر، الذي خشي بعد نوم الورى، وانطلاق أحلامه، أن يضيع لحظات العشق، وروحية العلاقة مع الله وأية روحية هي هذه؟ أضاف المفعول به (روحية) إلى (الضياء)، وفي هذه الإضافة، يمنح الشاعر الضياء هوية جديدة، فالضياء إشراقة في النفس الآنسة بالله تعالى، وكأنّه وسط الليل والضياع والخوف والقلق يستحضر صورة موسى الكليم، الذي آنس من جانب الطور ناراً فسعى إليها، حيث وجد الهدى والصراط السوي، وجذوة

الإيمان ﴿**فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور ناراً قال لأهله أمكثوا إني آنست ناراً لعلّي آتيكم منها بخبرٍ أو جذوةٍ من النار لعلكم تصطلون**﴾[١]، فالشاعر أتى وقد تملكته هذه الروحية السامية، وفي أي مكان؟ إن روحية الضياء عنده هي في آفاقه الصاحية، والآفاق محطة للوصول إلى الحق، وأن تكون روحية النور للآفاق الإنسانية والكونية فذلك دليل على بيان الطريق العابق بالحقيقة ومعرفة الله تعالى ﴿**سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق**﴾[٢]، ولعلّ إسناد الصفة الصاحية إلى الموصوف آفاق يضفي عليها هوية الإنسان الذي يأنس، في لحظات الليل وحين تنام عيون الورى، بالخالق العظيم.

وإذا ما إعترت روحية الضياء نفس الشاعر وتفكيره، كان للنور حضور ـ عبر الهوى ـ ﴿**فالله نور السماوات والأرض**﴾[٣]، يهدي من يشاء أن يهتدي لنوره، وهو ولي أوليائه يخرجهم من ظلمات الحياة والوجود، إلى نور الصلاة والدعاء والعبادة ﴿**فلما أتيها نودي يموسى * إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى * وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى * إنني أنا الله لا إله إلّا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري**﴾[٤]، لقد أمدّت النار التي آنسها موسى حياته بكل هذه الإيحاءات، فبم أمدّت الصوفية الحرة الشاعر؟ يقول: «تمدني بالشعلة الهادية» إن الفعل تمدني المسند إلى الصوفية الحرة، يخرج هذه الصوفية عن دلالتها الموضوعية الأساسية، لتصبح قوة معنوية تدفع الإنسان إلى الهدى، والإيمان. والشاعر يتلقى كلّ ذلك كالإيحاء الذي أمدّ

---

(١) سورة القصص، ٢٨/ ٢٩.
(٢) سورة فصّلت، ٤١/ ٥٣.
(٣) سورة النور، ٢٤/ ٣٥.
(٤) سورة طه، ٢٠/ ١١، ١٢، ١٣، ١٤.

موسى بالعزم والهدى والرشاد، في وقت كان الظلم والفساد والكفر يهيمن على واقعه، وإذا ما أُرْسِل موسى للطغاة دعا ربه قائلاً ﴿**قال رب إشرح لي صدري ويسر لي أمري وأحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي**﴾[1]، والشاعر أتى بالجار والمجرور «بالشعلة» ليمنح الصورة إضاءة على ما يشرق، ويزهو في نفسه من ضياء، ونورٍ وشعلةٍ هادية. فالشعلة ليست شعلة عادية إنها شعلة تهدي، وما يهدي في النفس هو الإيمان وتقوى الله، وهما دافعان قويان يحثان الإنسان على المضيّ في سبيل الوصول إلى علاقة سامية بالخالق تعالى، والصوفية الحرّة أضرمت في قلب الشاعر نيران الحنين، وأنوار الهدى فجاء إلى الله تعالى، وفي نفسه رغبة شديدة أن يستجيب الله لما يجول بخاطره «أدعوك» فعل مضارع فاعله الشاعر/ والمدعو هو الله تعالى، والذي ذكره الشاعر من خلال الضمير المتصل «الكاف» وما الوسيلة التي يدعو الشاعر الله بها؟ إنها نور المعرفة الإلهية «فيستحيل النور في خاطري» الفعل المضارع يستحيل الذي استأنف الشاعر به بواسطة الفاء، فالإستحالة تفيد التغيير من حال لحال، وماذا سيستحيل النور الدافق في آفاق الشاعر؟ يأتي (التمييز) أسطورة ليوضح إبهام عملية التحويل، وفي ذلك دلالة على أن النور لم يبق نوراً عادياً، ولم يعد موجوداً إلّا في خاطر الشاعر، لأنه يعيش الأنس والطمأنينة تظلله أجنحة الظلام وقت الخلوة مع الله تعالى، وهنا كان لا بد من القيام بعمل ما، فماذا فعل؟ يقول «فجئت» مسنداً الفعل الماضي، إلى الضمير المتحرك، وفي المجيء دلالة على سعي وتوجه إرادي إلى مكان معين، وعلى أية صورة جاء الشاعر؟ لقد كان لروحية الضياء في آفاقه، واستحالة النور في خاطره أبعد الأثر في جعله يجيء «في صوفية حرة» إذاً

---

(١) سورة طه، ٢٠/٢٥، ٢٦، ٢٧، ٢٨.

مجيء الشاعر الحبيب هو إلى الخالق المحبوب، وفي نفسه كلّ معاني الشغف والحب والوله، والصوفية الحرة.

وهنا نتساءل «هل كان لهذه الصوفية الحرة أثر في ذات الشاعر، كما كان للنار التي أقبل موسى إليها أثر في تغيير مجرى حياته؟ حيث كلم الباري «هل هي التمتمات والهمسات، والكلمات الصادرة من القلب إلى القلب؟ أم المناجاة التي يتقرب بها الداعي شوقاً وحباً إلى الله تعالى؟ يأتي الجار والمجرور (في شعر) ليحددا هوية الوسيلة المتبعة في الدعاء الذي يتوجه الشاعر به لله تعالى، فإذا به يبتكر أسلوباً يخصصه لنفسه وهو أسلوب الدعاء الشعري، وكأن لغة الشعر أرقى من النثر حتى في مثل هذه المواقف، ويأتي الفعل المضارع (يرش) ليخرج الندى من واقعه ويمنحه هوية إنسانية، وأي إنسان هو هذا؟ إنه الذي يرش الماء على الزهور والعشب الأخضر في سبيل الحيوية والنشاط، الساقي الذي يهتم بالحدائق والبساتين والأرض المزروعة ليمنح ما فيها من نضارة وحياة ﴿**وجعلنا من الماء كل شيء حي**﴾[1]، ولعل العلاقة المتأخرة أيضاً بين الندى والأحلام، خير دليل على أن الأحلام التي انطلقت حين نامت عيون الورى، كانت تعاني الجفاف، فإذا بالندى الساقي يرش هذه الأحلام، وفي إسناد الفعل يرش إلى المفعول به (أحلاميه)، فإن هذا التعدي أعطى للأحلام دلالة أخرى، فالساقي يرش الماء على المزروعات والورد وغيرها لتحيا، والماء عند الشاعر هي أحلامه العذبة، مانحة الحياة لرؤى الشعر الذي يدعو به، والمذكور من خلال الضمير في رؤاه، وأية رؤى هي هذه؟ إنها الرؤى الخضر التي لا تزال في بداية ربيعها.

ويأتي البيت الأخير «وفي فمي... من توبتي بسمة للطهر... إلى

(١) سورة الأنبياء، ٢١/ ٣٠.

آفاقك الصافية»، والذي استهله الشاعر بشبه الجملة «في فمي» الجار والمجرور، المتعلقان بالخبر المحذوف. فالشاعر يدعو الله تعالى في شعر رؤاه خضراء، والندى يرش أحلامه عليها، وعلى أية هيئة؟ هل يشعر بالقلق والضياع؟ وهل نفسه مطمئنة في هذا الجو الروحاني الساحر؟ إن الشاعر الذي أمدته الصوفية بنور الهدى وشعلته المرشدة، جاء إلى حبيبه ومعشوقه تائباً، وفي التوبة إقرار بالذنب، وسعي للخروج من الإساءة و ﴿**الله يحب التوابين ويحب المتطهرين**﴾[١] ومن يتب ترتسم على فمه الأدعية والصلوات، مناجاة وتقرباً من الخالق العظيم، حيث أفياء الرحمة والعفو والسماح ولأن الله ﴿**كتب على نفسه الرحمة**﴾[٢]، و «في فمي» جار ومجرور يحددان هوية مكانية، و «من توبتي» جار ومجرور يظهر الشاعر من خلالهما الحال التي جاء عليها الله، وأما المبتدأ «بسمة» والمسند إلى المضاف إليه «الطهر» فإنه يتخذ بعداً دلالياً جديداً، فليست البسمة بسمة ظلم وإثم أو بسمة سخرية وهزء، إنها (بسمة الطهر) وفي هذه الإضافة إشارة إلى هوية البسمة الجديدة، بسمة الإيمان والتقوى، بسمة النقاء والصفاء والراحة والشوق، الذي أحسه الشاعر منذ البداية، وإلام يشتاق الشاعر؟ إنه قبل أن يفقد روحية الضياء في آفاقه الصاحية وسط النيام، يتوق إلى الرحاب الإلهية، إلى آفاق الله تعالى الصافية.

وإذا ما كان الله تعالى يعلم ما يخفي الشاعر وغيره وما يعلنونه، فإن الشاعر، إنطلق من خلال الجملة الإنشائية وبواسطة أسلوب النداء، وأية هوية يحملها هذا النداء إذا كان صادراً من الشاعر تقرباً إلى الرب العظيم؟ ألم

---

(١) سورة البقرة، ٢/ ٢٢٢.
(٢) سورة الأنعام، ٦/ ١٢.

يظهر زكريا ضعفه؟ ألم يطلب إبراهيم أن يجعله الله ممن يقيمون الصلاة؟ والشاعر ألا يحاول من خلال النداء توجيه المنادى إلى ما يريد طلبه؟ وما الذي يذكر الشاعر؟ يقول: «هذا الليل البهيم هدوء شاعري طلق» فالليل بدل من المبتدأ هذا الذي ورد بعد النداء، والبهيم صفة أسندها الشاعر لليل، فالليل لم يعد ظلاماً فحسب، إنه أشد سواداً وظلمة من حالته العادية، ولكنه بالنسبة للشاعر ليل آخر، ووحي مختلف، فالخبر هدوء العائد لليل له دلالة خاصة هي السكينة والإستقرار، وكأن النهار الذي جعله الله معاشاً للبشر، يشكل عالم الفوضى وعدم الإطمئنان، وإذا ما جعل الله أيضاً الليل سباتاً، فإن الشاعر نأى عن الفراش وسط الليل البهيم حيث الهدوء وأجواء الروحانية وأي هدوء هو هذا الهدوء؟ تأتي الصفة شاعري وطلق لتخرج اللسان كلياً عن نسقه الموضوعي الحقيقي، وتمنحه دلالة جديدة تتناسب وواقع الحال النفسية للشاعر، ﴿رب أنزلني منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين﴾(١)، وحيث يرى الشاعر التائب النعيم الإلهي الموعود، والبشرى العظيمة، ويعيش العدل الذي يأمله كل إنسان ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم﴾(٢).

يقول الشاعر:

(على وزن الخفيف)

«ربِّ هـذا اللّيـلُ البهيـمُ هـدوءٌ شاعـريٌّ طلـقٌ وأفـقٌ جميـلُ
نورُكَ الحرُّ: منهُ ينبثِقُ الطهرُ، ويندى بِهِ الصَّبَاحُ البليلُ
يبعـثُ الشـاعـرَ المـولّـة صـوفيّـاً ينـاجيـك: والنجـومُ مثـولُ

(١) سورة المؤمنون، ٢٣/ ٢٩.
(٢) سورة الزمر، ٣٩/ ٥٣.

أنتَ رمزُ الهوى المشِعُّ بدنيَاهُ... وأنتَ الهادِي وأنتَ المقيْلُ»[١]

يستهل الشاعر أبياته بالنداء، ومن المنادى؟ إنه رب السماوات والأرض، وقد حذف حرف النداء (يا) على غرار الكثير من المناجاة القرآنية، المبدوءة بلفظ (رب) والتي بعدها يذكر الإنسان حاجاته، فالليل الذي يوحي بالخوف أحياناً، وبالظلم والاستبداد أحياناً أخرى، يوحي بالشاعرية الطلقة، لحظة العشق والأنس والمناجاة، فالأحبة يهفون إلى أن يختلي كل بالآخر، وخير زمن لذلك هو الليل الذي يستر لقاءات العاشقين المحبين، حيث انطلاقة الأحلام وكل الأجواء الموحية، وهو ما حملته دلالة الإسناد بين المبتدأ (الليل) والخبر (هدوء) والصفتان (شاعري طلق) وتأتي (و) العطف التي تفيد مطلق المشاركة والجمع والمعطوف (أفق) والأفق يوحي بكل هذا الامتداد والاتساع، وكأنه يشارك الصفة شاعري بهذا الجو المفعم بالجمال، والحيوية من خلال الساحة التي يتحرك فيها الشاعر مع الله تعالى أنيس الذاكرين، وموئل الخائفين، وملاذ الداعين الساعين إليه ليلاً ونهاراً، وتأتي الصفة (جميل) لتعطي الأفق بعداً فيه صورة السحر والجمال والروعة.

إن الليل الهادئ الشاعري الطلق، يمن الله عليه بنوره العظيم، و ﴿**الله نور السماوات والأرض**﴾[٢]، والشاعر الذي انطلق من أجواء الليل الساحر البهيم، سعى كالفراش إلى النور الذي يموت فيه عشقاً وحباً، ليقول «نورك الحر» فالمبتدأ «نور» مضاف إلى «كاف الخطاب» الضمير الخاص هنا بالله تعالى، وفي هذه الإضافة تعريف للنور وتخصيص له، فهو ليس نوراً عادياً، إنه نور الله الذي يدركه كل قلب يهفو إلى الله، ولا يستطيع أحد إطفاء هذا

(١) محمد حسين فضل الله، قصائد للإسلام والحياة، ص ١١٠.
(٢) سورة النور، ٢٤/٣٥.

النور ﴿**يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون**﴾[١]، ونور الله لا يحد بزمان أو مكان، ولا يقيد بإطار، فإذا أسند الشاعر الصفة الحر إلى النور الإلهي، فإن هذه الصفة تحمل دلالة توحي بالانفتاح والاتساع والشمول، فالحر هو الذي يتحرك في كل اتجاه، وفي شتى الأوقات، وإلى أين يشاء، وما يشير بوضوح إلى الاستقلالية والتفرد، وهو ما اختص به الله تعالى، من خلال الإسناد الذي قام به بين النور والحرية، وإذا ما سطع النور الإلهي، تساءلنا ما الأثر الذي تركه على الشاعر وسط الليل البهيم؟ لا شك بأن النور يمثل الوضوح والبيان، وتظهر الأشياء بشكل جلي، ومنه تنبثق إشعاعات كثيرة، فالجار والمجرور (منه) يحددان الهوية المكانية لما يخرج وينبعث من هذا النور الحر المشرق، وما الذي ينبثق من الله المطلق؟ وما الذي يبعثه في خلايا الكون والموجودات؟، إن أول ما ينبثق من نور الخالق برأي الشاعر هو الطهر الممثل للنقاء والصفاء، والطهر هو أسمى ما يمكن أن يرتبط بالنور. وكأن الظلام ينبثق منه الحقد والكراهية، ومن يملك قلباً أسود كالليل البهيم، فلا تنبثق منه أنوار الطهارة، بينما النور دلالة علة صفاء الروح، وأي نور حر طاهر نقي صاف عظيم يسمو على نور الباري جل جلاله؟، هذا النور الذي يترك أثره على كل شيء، فشمس النهار هي نور الله الحر، والقمر المنير سراج الخالق الحر، وهو الذي جعلهما آيتين للنهار والليل وسخرهما للكون والإنسان ﴿**وهو الذي سخر الشمس والقمر دائبين**﴾[٢]، علماً أن كلا منهما له قدر معلوم ﴿**كل يجري لأجل مسمى**﴾[٣]، وإذا ما استحضر الشاعر صورة النور، فإن النور

---

(١) سورة الصف، ٦١/ ٨.

(٢) سورة إبراهيم، ١٤/ ٣٣.

(٣) سورة إبراهيم، ١٤/ ٣٣.

كناية عن الحياة وبعث الحيوية في أوصال ما خلق الله، فإذا به يصبح فجراً ينبلج على الشاعر المستأنس بالله تعالى، وعلى الصباح الندي البليل، فإن النُّور الحر منح طلا ندياً. وإذا ما عدنا إلى التركيب الذي اعتمده الشاعر، ولاحظنا الإسناد الذي قام به بين الكلمات، ليطلعنا الفعل المضارع (يندى) وقد أسنده الشاعر إلى الصباح على سبيل المجاز لا الحقيقة، وفي هذا الإسناد أخرج الشاعر الصباح عن هويته الموضوعية، ليمنحه هوية كل موجود يتعطر بحبيبات الندى لحظة طلوع الفجر، وإذا ما تندى الصباح بنور المولى المنعم، فإنه صار بليلاً رطباً نضراً، مانحاً عذوبة الندى للأزاهير، والبساتين، والحقول، والأشجار، والأعشاب وما في الطَّبيعة. . .

والنور الحر الذي انبثق الطهر منه، وترك أثره على الكون بصباحه، يتعدى الموجودات إلى البشر، فإذا به (يبعث الشاعر الموله) والفعل المضارع يبعث يوحي بالقيامة من جديد، والبعث هو النشور وإحياء ما هو ميت، أو لا يملك مقومات الحياة، ﴿**إن الله يبعث من في القبور**﴾[(١)]، وهنا نسأل لمن يبعث النور الحر؟ كما سأل من قبلنا والذين لم يؤمنوا بما جاءهم من الهدى ﴿**قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا**﴾[(٢)]، فالناس نيام، لكن نور الله وشمسه وفجره يبعثون من يتفكرون في خلق الله تعالى قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم، وإسناد الفعل (يبعث) إلى النور يمنح النور الإلهي هوية جديدة، هي هوية المحيي والخالق، وماذا (يبعث)؟، (يبعث الشاعر الموله) وكأن الشاعر كان في غفوة عما يحيط به، فتسلل نور الله إلى كيانه، وأحياه محباً عاشقاً ولها شغوفاً، يأنس به، ويتوق إليه وفي تعدية الفعل (يبعث) إلى

---

(١) سورة الحج، ٢٢/ ٧.
(٢) سورة يس، ٣٦/ ٥٢.

(الشاعر) (المفعول به) يظهر الأثر العميق بين الشاعر/ والنور الرباني، وأي شاعر هو؟ إنه الموله المستهام. وعلى أية صورة يبعث النور في لحظات الأنس والطمأنينة، لحظات الليل الهادئة الساكنة الطلقة؟ تأتي الحال (صوفيا) لتحدد الهوية للشاعر المبعوث الموله، والشاعر الصوفي هو الذي يستوحي من مظهر الليل، والجمال تأملات وإشراقات يحياها بكل روح هانئة وادعة، ولو استيقظ الشاعر ليلاً، ونظر في النجوم لقال كما قال إبراهيم ﴿**إني ذاهب إلى ربي سيهدين**﴾[1]، والشاعر هجر الفراش، وهجر غمضه وبعث صوفيا متوسلاً إلى الله تعالى، ويأتي الفعل المضارع يناجيك وفاعله الضمير المستتر العائد للشاعر الموله الصوفي، والمتعدي إلى الضمير (الكاف) المفعول به والذي يحدد وجهة المناجاة، فالمناجي هو الشاعر والمناجى هو الله تعالى، وأي عشق ووله أسمى من العشق الإلهي؟

و «أما التركيب الأخير (والنجوم مثول)، فتركيب بدأه الشاعر بواو الحال ليظهر بوضوح أن المناجاة تتم تحت ما هو مسخر في خدمة النور الحر المشرق ﴿**والنجوم مسخرات بأمره**﴾[2]، فالمبتدأ النجوم خبره مثول، وهن الشواهد على واقع العلاقة بين الشاعر والباري تعالى، وفي إسناد الخبر مثول إلى المبتدأ نجوم، إخراج للنجوم عن نسقها الموضوعي، واتخاذها هوية الشهود، الذين يشهدون على صدق نوايا الشاعر المتوجه بمناجاته، تحت جنح الظلام، إلى الرب المهيمن على كل شيء. ويأتي التركيب الأخير في النص، وقد بدأه الشاعر بـ المبتدأ (أنت) وهو الله تعالى، وبالخبر (رمز) والرمز الشعار وإذا ما أضاف الخبر (رمز) إلى المضاف إليه (الهوى) فإن هذه

---

(١) سورة الصافات، ٣٧/ ٩٩.
(٢) سورة النحل، ١٦/ ١٢.

الإضافة لم تترك الرمز رمزاً مطلقاً، وإنما هو رمز الحب والعشق، فالشاعر الذي بعثه النور مولهاً حبيبه الله تعالى، ومهوى فؤاده ملكوت الله، الذي هو رمز الحب المنير والمشع بدنيا الشاعر القلق الخائف الوجل المنتظر لهجعة الناس وضجعتهم، حتى يأنس بنور الخالق المنبعث في دنياه وفي ليله وساعة دعائه، فـ(المشعّ) صفة للرمز فالله نور، والنور الله. وأما الجار والمجرور (بدنيا) فدلالة على المكان الذي شع فيه رمز الهوى، المولى القدير وأما (ه) الضمير فعائد للشاعر، وتأتي (واو) العطف في التركيبين الأخيرين لتفيد مطلق الجمع والمشاركة، عطفاً على (أنت رمز الهوى)، فالله رمز الحب، والهادي الذي يهدي من جاءه طالباً الهدى والعون. وإذا ما عدنا لصورة الليل، لوجدنا أن الليل يمثل صورة ـ ولو مجازاً ـ من صور الضلال بظلامه الدامس، بينما يمثل النور صورة الهدى والسماح والإيمان، ولذا أسند الشاعر الخبر (الهادي) إلى المبتدأ (أنت) والهادي من أسماء الله الحسنى، وكذلك (أنت المقيل) ليظهر في هذا الإسناد عظمة من لجأ إليه في جوف الليل، عاشقاً له، مناجياً، متوسلاً، متضرعاً، مقراً بهديه وعونه. إن أنس الشاعر بالخالق، يعد قمة لحظات الاطمئنان والسعادة في حياته، هذا الأنس الذي دفعه ليبتعد عن اللذات والغوايات، تائقاً إلى أنيسه الحبيب، أنيس الذاكرين ومن لا أنيس له، رب الحياة والموت، باعث الأمن والإيمان، والهدى والصلاح والفلاح في نفوس المؤمنين، التالين لذكره المشتاقين إلى عالم الحقيقة واليقين يقول:

(على وزن الخفيف)

«أنتَ ربُّ الحياةِ والموت منكَ الخوفُ في راحتيكَ سرُّ الأمانِ. . .
أنـتَ حسبـي يـا ربِّ فلتعصـفِ الأريـاحُ فَلْتَنْتَحِـرْ لِـديَّ الأمَـانِـي

أنت حسبي فامسحْ بلطفِكَ أخطائي لأحيَا جلالَكَ الرَّحْمَاني»[١]

ذلك الإنس بعث في نفس الشاعر الشوق الدائم إلى الله، فحن إلى ظلاله وأفيائه، وإذا به في الليل يحدث عن جلال الخالق تعالى، هذا الخالق الذي يملك أمور الدنيا والآخرة، والذي يهب برد اليقين والمعرفة والحب والهدى والعشق والسلام، فالشاعر أدرك أن حياته طيف عابر، وهو ظل راحل عاجلاً أم آجلاً، لذا لم يأنس بدنياه، ولم يأنس بالناس من حوله، وهو يعلم أنه راحل وحده، لا ينفعه إلا ما أحياه وأقامه ليلاً، وما ابتهل به تضرعاً وخفية ﴿**ادعوا ربكم تضرعاً وخفية**﴾[٢]، لذا كان الله أنيسه وجليسه:

«ما حياتي هُنَا... ونحنُ على الكونِ ظلالٌ ستمَّحي وتزولُ
ربِّ هبني بردَ اليقين فقلبي شعلةٌ ماجَ حولَها التضليلُ
ربِّ هبني إشعاعةً تَبْعَثُ الوحيَ بروحي فقد دهَاهُ المحولُ...»[٣]

(على وزن الخفيف)

ح ـ الدعاء سلاح الشاعر في طلب المغفرة والرضوان من الله تعالى:

أ ـ الدعاء مخّ العبادة:

إذا كانَ للعبوديّة هذا الحضور المحوري في حياة الإنسان، فإن الحديث الشريف قد جعل لها عصباً مركزياً يمونها بمادة الحياة الأساسية، هذا العصب هو الدُّعاء.

(١) محمد حسين فضل الله، قصائد للإسلام والحياة، ص ٢٦٣.
(٢) سورة الأعراف، ٧/ ٥٥.
(٣) محمد حسين فضل الله، قصائد للإسلام والحياة، ص ١١ و١٢.

جاء في الحديث الشريف: «الدعاء مخ العبادة»[(١)] ومخ الشيء خالصه و «المخ أيضاً هو الدماغ»[(٢)] فبالإعتبار الأول، فإن عُدّ الدعاء مخاً للعبادة قد يكون لأمرين: «أحدهما أنه امتثال أمر الله تعالى حيث قال تعالى: ﴿**أدعوني أستجِبْ لكم**﴾ هو محض العبادة وخالصها والثاني أنه إذا رأى نجاح الأمور من الله قطع أمله عن سواه ودعاه لحاجته وحده، وهذا هو أصل العبادة»[(٣)].

وأما الاعتبار الثاني، فإن عد الدعاء بمثابة عقل ودماغ للعبادة، يظهر وكأن الدعاء هو الذي يمون العبادة بالشرط الجوهري لكي تكون عبادة واعية، عبادة تملك أفق عقلانيتها أو كينونتها العقلانية في الحياة. ذلك أن اعتبار الدعاء مخاً للعبادة له جانبان: الأول الإشارة إلى منزلة ومرتبة الدعاء بالقياس إلى الدُعاء في مسألة العبادة هذا الدور الذي يماثل دور المخ أو الدماغ، ومن المعلوم أن المخ هو شرط الوعي والإدراك والتدبير الذاتي ومركز الإنفعالات والأحاسيس والمشاعر. وإذا كان يفترض بالدعاء أن يشكل مخ العبادة أو دماغها، فهذا يعني أنه يفترض أن يمنح الدعاء العبادة حضورها الواعي لذاتها ولموضوعها، ولجوهر مفهومها الحق، ولجذورها الأصلية. فالعبادة لا تستقيم مفهوماً ودوراً ما لم تصدر عن وعي بالفقر الوجودي، بالظمأ الوجودي لله تعالى، وعن معرفة بالله تعالى كما عرفنا هو نفسه وبالقدر المستطاع لنا. والدعاء في حقيقتيه يجسد هذا الوعي. لأن

---

(١) محمدي، الري شهري، ميزان الحكمة، ج٣، ص ٢٤٥، الدار الإسلامية ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

(٢) ابن منظور، لسان العرب، ج١٣، مادة مخخ، ص ٤٤، دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ لبنان، ط٣، ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣.

(٣) ابن منظور، لسان العرب، ج١٣، مادة مخخ، ص ٤٤، دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ لبنان، ط٣، ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣.

جوهر الدعاء وسيلة مناجاة، ومناشدة، واستغاثة، وتضرع واستعانة. وجهتها كلها الله سبحانه وتعالى. وهذه في مجملها إنما تعبر أصدق تعبير عن عميق الحاجة إلى الله تعالى، لأن قاسمها المشترك الأكبر هو كونها تنطق بلسان الفقر والعوز الكلي، وتبحث عن الغنى والكمال عند من يملك الغنى والكمال المطلقين أي الله عز وجل.

ولأن الدعاء يجسد في جوهره ـ بوضوح ـ هذا الفقر والإرتباط بالمطلق، ولأن الوعي بهذا الفقر، وبلزوم الإرتباط بالمطلق يشكل جوهر العبادة، بل وعصبها المركزي، كان الدعاء ـ ربما ـ مخ العبادة. فبدون هذا الوعي تفقد العبادة وجهتها وتضل طريقها، وتأخذ لنفسها أشكالاً متنوعة وأهدافاً بعيدة كل البعد عن الهدف الحق.

ولعل في قوله تعالى: ﴿**ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين**﴾[1]، سياقها، والذي يؤكده، أيضاً، الحديث الوارد عن زرارة عن أبي جعفر الباقر(ع) حيث قال: «إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين قال(ع): «هو الدعاء»[2].

فالإستكبار بما يجسده من شعور بالإنتفاخ والتضخم والإستعلاء وبالإكتفاء والإستقلال الذاتيين، يُشكل شعوراً مرضياً، ووعياً ملتبساً وموهوماً، لأنه يناقض حقيقة المعطى الوجودي للإنسان. فبمقدار ما يقطع الوضع الإستكباري أي صلة أو تواصل مع الله تعالى ومع المعاني الإلهية السامية، حيث يعيش المستكبر علاقة نرجسية انعكاسية مع نفسه، ويتخذ من

(١) سورة غافر، ٦٠.
(٢) محمدي، الري شهري، ميزان الحكمة، ج٣، باب الدعاء، ص ٢٤٥، الدار الإسلامية، بيروت، ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م.

نفسه محوراً كونياً، فإن الداعي ـ العابد ـ يحفظ ويلزم «الخط المستمر الواصل بين الله سبحانه وبين عباده، الذي يؤكد وعي الإنسان معنى الألوهية في الله في علاقته بمعنى العبودية في الإنسان، في الإحساس بالفقر المطلق أمام الغنى المطلق، حيث يرتبط العبد بربه من خلال ارتباط وجوده وكل حاجاته به»[١].

إن الدعاء يمثل أساس التوجه الروحي للمرء مع خالقه، فاتجاه الإنسان الروحي ينطلق من فهم المخلوق لحقيقة علاقته بالله تعالى، هذه العلاقة التي لم يكن الدعاء فيها سوى «مخ العبادة» لأنه «سلاح المؤمن، وعمود الدين/ ونور السماوات والأرض»[٢] وهو «مقاليد الفلاح ومصابيح النجاح»[٣] ذلك أن الدعاء عند المسلم هو حبل الصرّة الممدود بين الإنسان والله تعالى. بهذا الحبل تغذى الشاعر بكل ما يلزمه من طاقات وقدرات معنوية تمكنه من الخروج من ظلمات رحم التحديات، والمشاكل، والهموم، والمصاعب، والإخفاقات، والإحباطات وما يمكن أن يترتب عليها من يأس أو قنوط، إلى نور الوجود المشرق بالأمل والكمال المعنوي والوجودي، مما أغنى إتجاهه الروحي وآفاقه الإنسانية.

ب ـ الدعاء في شعر السيد:

إن العودة إلى قصائد الشاعر هي الدليل على ما أراده من أن يكون الشعر هو الإحساس بالحياة، الحياة التي توجه الشاعر داعياً فيها إلى الله دائماً «كنت في بداية طفولتي معنياً بأن أذهب إلى مقام الإمام علي(ع) في

---

(١) محمد حسين فضل الله، من وحي القرآن، حلقة (٢٠)، ص ٧٧، دار الزهراء، بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.
(٢) المجلسي، بحار الأنوار، ج٩٣، ص ٢٩٤.
(٣) محمدي، الري شهري، ميزان الحكمة، ج٣، ص ٢٤٥.

شهر رمضان، لأقرأ الأدعية للمؤمنين، لأنني كنت أملك صوتاً حسناً، وكان بي شغفٌ في هذا الدعاء. ولقد كنت أذهب إلى الحرم العلوي الشريف، في وقت شدة الحرارة، حيث ينتظرني المؤمنون لأقرأ لهم الأدعية والإبتهالات، كما كنت أعيش كل أجواء الزيارة والدعاء والإبتهال والتفرغ لله تعالى، والتي تغني تجربة الإنسان الروحية»(١).

إن أجواء الزيارة والدعاء في النجف، وحب الشاعر وشغفه لهذه الأجواء. دفعته إلى تلمس طريق الدعاء ممارسة وسلوكاً وشعراً. فقد آنس بالله سبحانه جليساً ورفيقاً وصاحباً وحبيباً ورحماناً ورحيماً وهادياً وغفوراً، لا سيما أن أدعيته وابتهالاته شكلت لحظة هناء له، وراحة لنفسه، واستقراراً لذاته، فحسبه الدعاء وحسن الظن بالإجابة.

(على وزن الخفيف)

يقول في قصيدة «رب رحماك»

«أنــا مـا لي وللمحيــطِ فكــمْ يجني ... على فكــرتــي ويقسُــو عــليَّــا
جثتُــهُ والحيــاةُ تبسِــمُ نحــوي ... والأمــانــي تمـوجُ بيــن يــديَّـا
وشعــاعُ الآمــالِ يبعــث فــي رو ... حـي شُعَـاعـاً مـن المنَـى عبقـريّـاً
وشـراعُ الأحـلام يخفـقُ فـي قلبـي ... فيــوحــي لــي الخيــالَ السنيَّــا
أتهــادى مــا بيــن أحــلامِــي البيــضِ وأشــدو مــع الــدُّجــى والثــريَّـا
فــإذا بــي أرى الحيــاةَ ظــلامــاً ... وصبــاحَ الأحــلام ليــلاً دجيَّــاً
والأمــانـي تمـوتُ فـي قبضـةِ الحـزِ ... نِ . . . وتــذوي علــى لظَــى شفتيَّـا

(١) مقابلة أجريتها مع الشاعر، بتاريخ ٢٣/٧/١٩٩٦م.

وأرانـي أعيـشُ فـي سجنِـهِ الـدّا جـي... وحيـداً بيـن الأنـام شِقيّـا
ربّ رحمـاكَ أنـت قـدّرْتَ لـي ذا كَ... فهبْ لي إنْ شئتَ قَلْبَاً رضيّاً»(١)

إن كل الواقع الذي عاشه الشاعر زمن تشعبت السبل فيه، وكثرت الأهواء، فالمجتمع قاسٍ، والحياة/ ظلام، والأماني بما تمثل من أحلام وتطلعات ورؤى/ تموت، والصباح/ ليل دجىً، يقيد حركة الشاعر، ويقوده إلى التيه والغربة والضياع.

إن قلب الشاعر هو قلب صب عاشق، هو الروح التي لا يعلم سرها وحقيقتها إلّا الله. ولأن الدعاء قد سكن قلب الشاعر، ناجى الله تعالى وتضرع إليه ودعاه:

«ربِّ رحمَاكَ ما لقلبي وللحزن ولمّا يَزَلْ كروحي طريَّا
صُغْتَهُ من عصارةِ الألمِ الذاوي فؤاداً من الأسى شاعريَّا
ثم أودعْتَ فيه من روعةِ الوحي خيالاً عذبَ المواردِ حيًّا
وبعثـتَ الشعـورَ فيـه رقيقـاً وسكبـتَ الشبـابَ فيـه فتيًّـا
فمضى يصهرُ العذابَ نشيداً ويصوغُ الآهاتِ لحناً شجيًّا
ويناجيك في إبتهالٍ مع الليلِ فتهمي الدُّموعُ من ناظريًّا
لـم يجـدْ في الـوجـودِ قلبـاً حنـونـاً فـأنِلْـهُ حنـانَـكَ العلـويَّـا
هكـذا هكـذا يعيـشُ بـدنيَـاهُ يعـانـي شقـاءَهُ السـرمـديَّـا
ثُمَّ يذوي على الضّلوعِ من الوجدِ ويلقي نداهُ في أذنيَّا
خفقـةً خفقـةً ويهـوي مـع الـرُّوحِ فيلقَـى هـدوءَهُ الأبـديّـا(٢)

(١) محمد حسين فضل الله، قصائد للإسلام والحياة، ص ٩.
(٢) محمد حسين فضل الله، قصائد للإسلام والحياة، ص ١٠.

ولئن هوى قلبُ الشاعر ليلقى هدوء الموت، فإنه قد رجع إلى الله تعالى بقلبه، صحيفة روحِهِ البيضاء، ليبقى الدُّعاء سلاحَهُ الوحيد، يقول:

(على وزن الخفيف)

«وأنــا راجــعٌ إليــكَ بقلبــي، إن قلبــيَ صحيفــةٌ بيضــاءُ
فـإذا شئـتَ أن تعـذِّبَ جسمـي بغـوايـاتـي فحسبـي الـدُّعَـاءُ
دعْ لساني يدعُوكَ ـ يا ربِّ ـ وافعلْ بي ما شِئْتَ فالدُّعَاءُ هنَاءُ[(١)]

لقد إرتحل الشاعر في رحاب الدنيا، وأي دار هي هذه التي إرتحل فيها؟ إنها الموصوفة بقوله تعالى: ﴿**وما الحياة الدنيا إلّا متاع الغرور**﴾[(٢)]، وإذا كانت كذلك فإنها ساحة الإمتحان والإبتلاء واللعب واللهو والزينة ﴿**إعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم**﴾[(٣)]، وقد يكون إرتحال الشاعر هجرة إلى الله تعالى، وسباقاً إلى مغفرته متمثلاً قبل رجوعه دعوة الله العظيم ﴿**سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماوات والأرض**﴾[(٤)] والشاعر من الذين آمنوا وعاشوا برد اليقين منذ طفولته في النجف الأشرف، وشغفه بروحية الأجواء الإيمانية، التي تسلح خلالها بالدعاء في مواجهة ما يعترضه وما يعانيه. يستهل الشاعر أبياته بالجملة الخبرية المؤلفة من المبتدأ (أنا) والخبر (راجع) والإسناد حقيقيّ، وفي الرجوع أياب وعودة، والرجوع يمثل حاجة تستولي على الراجع، إن كان إلى المكان الآيب إليه، أم إلى من يقصده، ومن يقصد الشاعر؟ إنه

(١) محمد حسين فضل الله، قصائد للإسلام والحياة، ص ١٤.
(٢) سورة آل عمران، ٣/ ١٨٥.
(٣) سورة الحديد، ٥٧/ ٢٠.
(٤) سورة الحديد، ٥٧/ ٢١.

راجع إلى الله الذي سيرجع إليه كل مخلوق خلقه، وكيف رجع الشاعر إلى الله تعالى وعلى أية صورة وهيئة؛ والرجوع يكون على صور عديدة؟ يأتي الجار والمجرور (بقلبي) ليظهرا هيئة الرجوع، فرجوعه إليه ليس بالكيان المادي فحسب، بل بقلبه مستودع الأسرار والحب واليقين والحنان. هذا القلب الذي وسع محبة الله، وهام بالباري تعالى. وتأتي (إنَّ) على سبيل تأكيد الجملة الخبرية (إنَّ قلبي صحيفةٌ بيضاءُ) وفي إسناد القلب المضاف إلى ياء المتكلم تخصيص ذاتي، فحديث الشاعر عن نفسه إظهار لهوية القلب الذي عاد إلى الله تعالى، فكيف هو هذا القلب؟ يأتي خبر إن (صحيفة) ليخرج القلب عن هويته الأساسية كونه عضواً أساسياً في جسم الإنسان، ويعد الجزء الأساس، فنبضه حياة وسكونه موت، فالقلب يضخ الدماء عبر الشرايين إلى كافة أنحاء الجسم، وأما (الصحيفة البيضاء) فقد أراد الشاعر من خلالها الدلالة على أن القلب الذي رجع به ليس شائباً أو مليئاً بالأدران، وإنما هو قلب طاهر فالصفحة البيضاء تحمل دلالة معينة توحي بالأمل والصفاء والنقاء. وأيُّ إياب إلى الخالق العظيم طلباً لرضوانه وسماحه وعفوه، يجب أن يكون بأنفس سامية، مليئة بالإيمان والتقوى، وبقلوب عامرة بالهدى والرشاد أن الله هو الودود الرحمن الرحيم. ولعل الإسناد الذي أقامه الشاعر بين الكلمات في البيت الأول، يصور لنا الشاعر طفلاً مفطوراً على حب الله تعالى، فالأطفال يملكون قلوباً خالية من الخطايا والذنوب، وهم بعيدون عن روح المسؤولية وعالم الحقد والبغضاء، ويأتي البيت الثاني ليستأنف الشاعر بواسطة (الفاء) وليذكر واقع العلاقة بينه وبين الله تعالى «فإذا» ظرف زمان يتضمن معنى الشرط، يذكره الشاعر بداية محدداً من خلاله هوية العظمة التي يملكها الله فالفعل (شئت) يدل على الإختيار، فالله تعالى يفعل ما يشاء ويختار وليس للإنسان الخيرة في أمره، وما الذي يريد الشاعر

من الله تعالى أن يشاءه ويختاره؟ يأتي المصدر المؤول المسبوك من حرف النصب (أن) والفعل المضارع المنصوب (يعذب) ليوضح مشيئة الخالق العظيم، الذي بيده الأمور ومقاليدها، بيده الموت والحياة، والعذاب والإنابة. والإثابة والعاقبة الحسنة والخلق كلهم عيال الله، ولم يعذب الله عباده؟ هل لإظهار الجبروت والقدرة؟ أم لارتكابهم ما لا يليق بهم؟ ولعملهم الذي إن يعملوا فيه مثقال ذرة خيراً فجزاؤهم الخير، وإن يعملوا مثقال ذرة شراً فجزاؤهم الشر؟ وماذا يعذب الله؟ هل يعذب المسيء جسداً وروحاً؟ أم أن العذاب في الدنيا غيره في الآخرة؟ يأتي المفعول به (جسمي) المضاف إلى ياء المتكلم والمسند إلى الفعل تعذب وفاعله الله تعالى، ليحدد الشاعر من خلال هذا الإسناد وجهة العذاب ومصدره، وما سبب العذاب؟ إن الجار والمجرور (بغوايات) يظهران سبب العذاب وفي إضافتهما إلى ضمير «الهاء» العائد للجسم يخرج الشاعر الجسم عن هويته الأساسية ككيان ماديّ لا إرادة له ولا عزم ولا تصميم، وليجعلنا نبتعد عن جعله يتحمل تبعات القيام بأعمال لا يرضى الله بها، وكأن لسان حاله يقول: ﴿**شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم**﴾[1]، فالجسم المستحق للعذاب جوارحه شاهدة على ما اقترف وعمل، وفي هذا الواقع المرير، الذي يتخذ فيه الجسم هوية المنفذ للغواية، والجهل والضلال، يبقى لنا أن نتساءل «هل اليأس هو سيد الموقف الآن؟ لقد استدل الشاعر على الطريق الذي هدى الله البشر إليه، وأمرهم به درعاً واقياً من المساوئ والغي. وإذا بالشاعر يكتفي بهذه السنة القائمة بين الله وعباده، فيقول «فحسبي الدعاء» وكأنه يحاول الخروج من عالم العذاب بنصر عظيم وسلاح فتاك قاهر، يكفي الإنسان في أشد اللحظات حراجة. فالرجوع

(١) سورة فصلت، ٤١/ ٢٠.

بالقلب، وهو صحيفة بيضاء، والعذاب للجسم بينما الشاعر الذي لا تزال روحه محلقة في رحاب الشغف بالله، حسبه الدعاء، الصلة الباقية، والخيط الممدود والحبل المتين بين السماء والأرض، وقلب العابد ورحمة المعبود.

وإذا ما شاء الله أن يعذب الأجسام، فإن الأرواح التي هي من طينة غير طينة الجسم متعلقة بالملكوت الأعلى سلاحها في جوف الليل دعاء، وهمسات وتمتمات ورجاء وأمل بالإجابة والإنابة، ومن خلال البيت الثالث المبدوء بالفعل الأمر (دع) يطل الشاعر مقراً بذنوبه، معترفاً بإساءته، علماً أن الفعل الأمر (دع) يحمل دلالة الترك الموضوعية، لكنه يصدر عن الشاعر، وفي هذا الصدور رجاء وتذلل، فالأمر من الأدنى إلى الأعلى، هو أمر بصيغة الدعاء، على عكس الفرض والوجوب الصادر من الأعلى إلى الأدنى. ومنه قوله تعالى: **﴿قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمان أياً ما تدعوا فله الأسماء الحسنى﴾**[(١)]، ولكن الدعاء يظهر مدى حاجة الداعي إلى المدعو، فالداعي مفتقر إلى الرحمة، محتاج إلى المغفرة، ساع إلى رضى الباري، خاشع تضطرم في قلبه نيران الشوق إلى الله تعالى جبار السماوات والأرض، وماذا يأمل الشاعر من الله؟ وماذا يطلب منه أن يدع؟ إن إسناد الفعل (دع) إلى المفعول به (لساني) يخرج اللسان عن هويته الحقيقية كونه عضواً من أعضاء الجسم، وجارحة من جوارحه، وحاسة من حواسه، فالشاعر أطلق الجزء وهو اللسان وأراد به الكل أي ذاته، فاللسان وسيلة التخاطب، وأداة اللغة والكلام، والدعاء لفظ تتمتم به شفاه المؤمنين الزاهدين في الدنيا الراغبين في الآخرة، وهو يخرج من القلب بواسطة اللسان متوجهاً إلى رفيع الدرجات، وقابل الدعوات، ويأتي الفعل المضارع (يدعو) وفاعله اللسان ليمنح لسانه

---

(١) سورة الإسراء، ١٧/ ١١٠.

هوية إنسانية، وأي إنسان هو هذا؟ إنه الداعي والمتوسّل تحت جنح الظلام، وفي محاريب العبادة والتقوى، وترك اللسان يدعو دلالة على أن الجسم الذي شاء الله تعذيبه، فيه عضو لا زال يقر بعظيم فضل الله ومنّه، وكثرة آلائه ونعمه على الداعين، وكل عضو شاهد على سلوك المرء ﴿**ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولًا**﴾(١)، ولعل الشاعر قرأ صدق اللسان، ومدى أهميته في قوله تعالى: ﴿**واجعل لي لسان صدق في الآخرين**﴾(٢)، وفصاحة اللسان غاية الدعاء، في معرض الذكر وعرض الحاجة، وهو ما أوضحه موسى(ع)، حين أظهر عظمة الفصاحة ومدى البيان والوضوح من خلال فصاحة اللسان بقوله ﴿**وأخي هارون هو أفصح مني لساناً**﴾(٣)، وإذا ما دعا الشاعر ربه أن يترك لسانه يدعوه، ويرجوه ويتضرع إليه، فإنه بالمقابل إنتقل إلى طلب آخر، بواسطة الفعل الدال على الطلب أيضاً وهو (وافعل بي ما شئت) وعلينا أن ندرك أنه ما شاء الله لا ما شئنا نحن، وما شاء الناس. ﴿**وما تشاؤون إلّا أن يشاء الله رب العالمين**﴾(٤)، فله المشيئة والإرادة والفعل، وإذا شاء الله أن يفعل بالشاعر ما يريد، فماذا يبقى له؟ يأتي المبتدأ (الدعاء) المسند إلى الخبر (هناء)، و(الهناء) يخرج (الدعاء) عن نسقه الموضوعي، ليجعله طمأنينة وسعادة واستقراراً نفسياً، وليس ألفاظاً يذكرها الداعي لغة فحسب.

والدعاء على مراتب عديدة، كما أن الحاجات تختلف بين وقت وآخر، فحاجة الشاعر السابقة هي أن يترك الله له سبيل الدعاء، لأنه باب

(١) سورة الإسراء، ١٧/ ٣٦.
(٢) سورة الشعراء، ٢٦/ ٨٤.
(٣) سورة القصص، ٢٨/ ٣٤.
(٤) سورة التكوير، ٨١/ ٢٩.

الخلاص، ومفتاح الرحمة، وإنما سمي الدعاء دعاء «لأن الإنسان يصدر في أشيائه جميعها بقوله: يا الله، يا رب، يا رحمن، فلذلك سمي دعاءً»[١]، والمراد من الدعاء هو النداء ولذا يقول اللغويون: إن الدُّعاء هو النداء. وإذا ما نزلت الحاجة بالشاعر لجأ إلى الله منادياً وراجياً أن يهديه سواء السبيل.

«ربِّ رحماكَ قد ضللتُ طريقي والهدَى فاهدني صِرَاطاً سويّا
أنا مالي أسعى وألتمِسُ الدَّرب ولا أبصرُ الشُّعاعَ المضيّا
أنا في حيرةٍ أفكِر في ذاتي كأنّي أتيتُ أمراً فريّا»[٢]

إن ظاهرة المناجاة، واضحة في قصائد الشاعر ولعل أسلوب الدعاء هو أهم الأساليب التي تهيمن على النص الشعري، من خلال أجواء العلاقة الروحيّة مع الله تعالى، والتي منحت الشاعر العديد من لحظات التأمل والصلوات وطلب العفو والرحمة، وهو إذ يمد يديه توسلاً وتقرباً إلى الله سبحانه فإنه يدعوه متضرعاً خاشعاً. يقول:

(على وزن السّريع)

«ربّاهُ هذي الكأسُ في راحتي مترعَةٌ... بالشعْرِ... والأدْمَعِ
أنتَ بعثتَ السحرَ في خمرِهَا أنشودةً... سكرىَ... على مسمَعِي
فرنَّحت دنيَايَ... في رعشةٍ من رَعشَاتِ الحُلُمِ الممتِعِ
ونضَّرت عيني بتهويمةٍ في سكرَاتِ الشاعِرِ المبدِعِ
فلمْ أفِقْ إلّا على فتنةٍ تصرخُ بالأعماقِ... هيَّا معي
وروعةٍ: لمحتُ في روحِها أشواقَ حبٍّ بالسنا مُترَعِ

(١) لسان العرب، ابن منظور، مادة (دعو).
(٢) محمد حسين فضل الله، قصائد للإسلام والحياة، ص ٩.

تضمُّنِي فيرتوي خافقِي وتلهَثُ النيرانُ في أضلُعِي
لكنني مددْتُ نحو السَّما كفّي... في ضراعَةِ الرُّكَّعِ
أرجو التفاتَ الوحي... في خاطِري ويقظةَ الحياةِ... في مضجعِي»[١]

إن الفعل الماضي (مددت) يوحي بالحركة الميدانية التي قام بها الشاعر وهو يناجي ويدعو الله سبحانه، وإلى أين يمد كفه؟ إنه لم يطلب ما هو بحاجة إليه ممن هم محتاجون أيضاً، لكنه بسط كفه إلى السماء، وامتداد السماء/ سمو وعظمة ﴿**وهو الذي في السماء إله**﴾[٢] وإذا ما عرف الشاعر أن الله هو المهيمن والمجيب، ﴿**إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه**﴾[٣] فإنه مد كفيه نحو السماء، وبسطها خاشعاً متضرعاً. وعلى أية صورة؟ لقد جعلنا نستوحي من «الجار والمجرور» «في ضراعة» صورة التبتل والتقوى وأجواءه الروحية التي يستلذ بها الراكعون الساجدون الداعون.

إن الشاعر يأمل مغفرة الله، وفضله، راجياً منه تعالى غفران ذنوبه الدنيوية التي تنأى به عن شغاف الروح:

«**أنا راجٍ غفرانَ ذنبي، وإنْ ضجَّ ـ بنتنِ الذُّنوبِ منّي ـ الفضَاءُ**»[٤].

---

(١) محمد حسين فضل الله، قصائد للإسلام والحياة، ص ٢٩.
(٢) سورة الزخرف، ٤٣/ ٨٤.
(٣) سورة فاطر، ٣٥/ ١٠.
(٤) محمد حسين فضل الله، قصائد للإسلام والحياة، ص ١٣.

الفصل الثالث

شخصية الرسول الأعظم محمد (ص)
في شعر السيد

«عندما التقيتُ برسول الله في وجداني الإيماني، إنفتحتُ على الرسول الإنسان الذي ملأ قلبي بهذا الفيض الإنساني الرائع».

صورة الرسول القرآنية والشعرية

لا بد قبل معالجة «شخصية الرسول في شعر السيد محمد حسين فضل الله» أن نقرأ هذه الشخصية العظيمة من خلال الوحي الإلهي، الذي عدّه الشاعر أصدق سيرة وتأريخ، وهو قد رأى في السيرة القرآنية ما لم يره في غيرها. لذلك وجب أن ننطلق من مبحثين أساسيين هما:

شخصية الرسول في القرآن الكريم، وشخصيته في شعر السيد فضل الله.

أولًا: **شخصية الرسول الأعظم في القرآن الكريم.**

لقد أنزل القرآن الكريم وحياً على رسول الله، مقدماً كل ما يحتاجه المجتمع البشري في أمور حياته ومعاشه، مصوراً الأحداث والوقائع زمن الأنبياء قديماً، لتكون عظة وعبرة لغيرها، سارداً سيرة الرسل وأقوامهم وما عانوه وسط مجتمعاتهم.

وكان للرسول الأعظم محمد بن عبد الله(ص) نصيب وافر من هذه السيرة، التي قرأها شاعر «يا ظلال الإسلام» وقصائد لـ«للإسلام والحياة» مستوحياً من سيرة الرسول القرآنية أعظم زاد لشعره، فإذا برؤيته الشعرية لشخصية رسول الله ترد ينبوع القرآن لترسم لها معاني الوحي والإشراق والجمال.

لذلك فنحن عندما نقرأ سيرة الرسول الأعظم، بوصفه قدوة ومثالاً يحتذى، واقعاً وسيرة وسلوكاً ﴿لقد كان لكُم في رسول الله أسوةٌ حسنةٌ لِمنْ كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً﴾[1] فإننا نرى كيف شكّلت صفات الرسول(ص)، وأخلاقه منهجية للسالكين درب الرسالة العصماء، وذلك من خلال الوصف القرآني لهذه الشخصية العظيمة ﴿محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفّار رُحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود﴾[2].

فمحمد(ص) رسول الله تعالى لكنه ليس رسول القيادة فحسب، إنه رسول العمل والقدوة. وهو مع أصحابه لا يريدون سوى فضل الله، صفاتهم معروفة لكثرة سجودهم وهجودهم ودين محمد(ص) دين الحق والفضيلة والهدى، فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فعليها، ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً﴾[3]، والرسول هو قمة الأخلاق بشهادة القرآن، ﴿وإنك لعلى خُلق عظيم﴾[4] وإذا كان إبراهيم أمة، فإن الرسول قد أُمر بإتباع ملة إبراهيم، ﴿إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين * شاكراً لأنعمه اجتباه وهداه صراط مستقيم * وآتيناه في الدنيا حسنة وإنه في الآخرة لمن الصالحين ثم أوحينا إليك أن اتبع ملّة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين﴾[5].

وأن تكون الأمة متمثلة في فرد ما، فإن هذا الفرد يمثل الرأس في هرم

(١) سورة الأحزاب، ٣٣/ ١٢.
(٢) سورة محمد، ٤٨/ ٢٩.
(٣) سورة محمد، ٤٨/ ٢٨.
(٤) سورة القلم، ٦٨/ ٤.
(٥) سورة النحل، ١٦/ ١٢٠، ١٢١، ١٢٢، ١٢٣.

العطاء والبناء. ولقد شكّلت سيرة الرسول(ص) القرآنية محطة غنية للتزود منها، وقد وقف عندها الشعراء والأدباء، ليستلهموا أسمى معاني النبل الإنساني، وأرفع القيم، التي كان الرسول الأعظم قطبها، وحجر الرحى الأساسي فيها بما فاضت نفسه، وما عاشه في حياته من حق وتقى وهدى وإيمان وإخلاص وقيم جعلت منه إنساناً كاملاً كقرآنه الذي نزل عليه وحياً. والذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، فكيف قرأ الشاعر هذه السيرة الرسالية في القرآن الكريم؟.

لعل ما جاء به القرآن الكريم، عدّه شاعر رباعيات «يا ظلال الإسلام»، منطلقاً لتجربته الملحمية، ففي «مطولة يا رسول الله»، نجد أصداء لكل ما ورد ذكره في القرآن المجيد، من سيرة تمثل قمة الكمال الإنساني في شخص الرسول الأعظم محمد(ص) يقول شاعر الرباعيات: «عندما التقيت برسول الله في وجداني الإيماني من خلال قراءتي لسيرته في القرآن أولاً، انفتحت على الرسول الإنسان الذي ملأ قلبي بهذا الفيض الإنساني الرائع، الذي كان يعيشه، حتى علاقته بالآخرين كانت تتحرك كينبوع متدفق بكل ما في شخصيته من رحمة وحب وحنان وحرص على الآخر ورأفة به واحتضان له»(١).

يلاحظ أن السيرة القرآنية للرسول، هي التي رسمت صورة الرسول الإنسان في مخيلة الشاعر، فإذا به ينفتح على هذه الصورة بما وهبها القرآن الكريم من صفات، جعلتها أسمى من النفس البشرية الدنيوية، فالرسول(ص) لا يعيش على هامش الحياة والواقع، إنه ـ بنظر الشاعر ـ ينبوع يتفجر عطاء، ورحمة وحبّاً وحناناً، وحرصاً على الآخرين، لأنه لم يكن لفئة دون فئة، ولقبيلة دون قبيلة، ولأمة دون أمة، ولفرد دون آخر، بل كان للناس جميعاً

(١) مقابلة أجريتها مع الشاعر، بتاريخ ١/١/١٩٩٧م.

﴿**وما أرسلناك إلّا رحمة للعالمين**﴾(١)، هذه الرحمة تشمل الكون بأسره ﴿**وما أرسلناك إلّا كافة للناس بشيراً ونذيراً**﴾(٢) فالرسول مبشر للمتّقين ومنذرٌ لمن سواهم، وهو ما أكده القرآن الكريم ﴿**فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوماً لداً**﴾(٣).

هذه الصفات الكاملة في شخصية الرسول، كان لها أبعد الأثر في تجربة شاعر الرباعيات الذي يتابع قائلاً: «فنحن نقرأ: ﴿**لقد جاءكم رسولٌ من أنفسكم عزيزٌ عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم**﴾(٤)، هذا الرسول الذي يلاحق تعب كل الناس، وجهودهم وشقاءَهم فيعز عليه ذلك، ويثقله ذلك، ويتعبه ذلك حيث يعيش تعبه النفسي في تعبهم أكثر مما يعيشون تعبهم، «حريص عليكم» يحرص عليهم من أن يتألموا ومن أن ييأسوا ومن أن يسقطوا ومن أن يجهلوا ومن أن يستعبدوا»(٥).

لقد تأمّل الشاعر ملياً في مفهوم الآية القرآنية، ليرسم صورة متناسقة الألوان، والظلال، والخيالات، لرحلة الرسول الأعظم(ص) في مجتمعه، فالرسول من نفس قومه، يحرص عليهم، حرص الأم على أطفالها. يتألم لآلام بني جنسه، يحزن لحزنهم، ويفرح لفرحهم. لذلك كان الأمة كلها، بكل تطلعاتها، ومعاناتها وما تحتاج إليه، والرسول رؤوف بالمؤمنين، وأي جمال يسمو على الرأفة والرحمة الصفتين اللتين جمعهما أيضاً رسول الله(ص)، ليكون في نظر الشاعر: «القائد الذي لا يُطِلُّ على جنوده وعلى

(١) سورة الأنبياء، ٢١/١٠٧.
(٢) سورة سبأ، ٣٤/٢٨.
(٣) سورة مريم، ١٩/٩٧.
(٤) سورة التوبة، ٩/١١٨.
(٥) مقابلة أجريتها مع الشاعر، بتاريخ ١/١/١٩٩٧.

أتباعه من فوق، بل إنه الذي يعيش معهم ليرحمهم ليدخل في أحلامهم، في آلامهم، في مشاعرهم، وأحاسيسهم وتطلعاتهم، ليرحم نقاط ضعفهم، كما يرحم نقاط قوتهم، وليرأف، بكل ما تعطيه كلمة الرأفة من إحساس بالآخر، ومن احتضان للآخر»[١].

إذاً، لشاعر الرباعيات نظرةٌ خاصة إلى السيرة النبوية وشخصية الرسول(ص)، هذه السيرة التي يعد القرآن أكبر مصداق لها، لا الكتب التأريخية المدونة. لذلك فإن أمة يكون محمد(ص) رسولها، وقائدها ونبيها هي أمة تحمل من المسؤولية على أكتافها الكثير من الأثقال، لا التي تعيش الإتكال. ومن هنا كانت دعوته لاستلهام هذه السيرة العظيمة، وهذا الإنسان السامي، الذي ينتظرنا في مدى الزمن ليكون في كل واحد منا شيء من رسول الله، وأن يكون في عقولنا شيء من عقله، وأن يكون في قلوبنا شيء من قلبه، وأن يكون في إحساسنا شيء من إحساسه، وأن يكون في دعوتنا كل دعوته وفي جهادنا كل جهاده.

بناء على ذلك تنطلق دعوة الشاعر: «أنظروا فسترون أن رسول الله في كل علم تتعلمونه، وفي كل طاقة تحركونها، وفي كل دعوة تتحملون مسؤوليتها وفي كل جهاد تجاهدونه. لقد كان فينا النور، ولا يريد لنا أن نتحرّك مع الذين يحرِّكون الظلمة في عيوننا، وعقولنا، وفي قلوبنا، وحياتنا، فإلى نور رسول الله حيث نستهدي كتاب الله الذي بلّغه، وسنته التي أطلقها، فلعلنا نفهم منها بعض الشيء لنهتدي بذلك ونستضيء به»[٢].

إن هذه الدعوة التي أطلقها الشاعر، تمثل شعوراً صادقاً وإحساساً

---

(١) مقابلة أجريتها مع الشاعر، بتاريخ ١/١/١٩٩٧.
(٢) محمد حسين فضل الله، الندوة، ج١، ص ٢٠، دار الملاك، ط ١.

خالصاً لأهمية الرجوع إلى نور الرسالة، هذا النور الإلهي الذي أفاضه الله تعالى، والذي أخرج الناس من الظلمات إلى النور، وهي دعوة إنسانية إلى الرحمة والعظمة، وروح المسؤولية، والأخلاق، والعمل، والحرية، والفكر، والجهاد والطهر، والدعاء، والحياة، وكلّ الصفات التي اشتملت عليها شخصية هذا الرسول العظيم، الذي نرتفع إلى الآفاق العليا من خلال فضله، الذي هدانا إلى الله تعالى وقرَّبنا إليه، وفتح عقولنا على أسرار وحيه.

إن الرسول ـ كما ذكر الشاعر ـ: «لم يكن لديه ليل يرتاح فيه، ولم يكن له نهار يستريح فيه، لم تكن لديه حياة شخصية، كانت الرسالة كل حياته، وكان الله كل أفقه وكان الناس كل همه وكانت الحياة كل دعوته»[(١)].

هكذا تحدث شاعر الرباعيات عن شخصية الرسول الأعظم، فكيف رآها شعراً؟ وكيف صاغ هذه السيرة القرآنية شعراً؟

ثانياً: شخصية الرسول الأعظم(ص) في شعر السيد فضل الله.

عند الحديث حول شخصية الرسول، تقف ملياً متأمّلاً في محراب السيرة والنهج، سيرة الرسالة ونهج الرسول الذي ناجاه الشاعر، مناجاة التائق إلى المَثَلِ الأعلى، وقدوة الكمال الإنساني.

ولعل النداءات التي وجهها الشاعر للرسول مستوحاة من مطولته «يا رسول الله» التي تلتقي في وحيها ومضمونها مع نداءات القرآن المجيد، فالرسول الأعظم هو رسول السلام، النابض بالرحمة والجمال، والله بواسطة رسوله وكتابه يهدي إلى سبل السلام **﴿يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم﴾**[(٢)].

(١) محمد حسين فضل الله، الندوة، ج١، ص ١٩، دار الملاك، ط ١.
(٢) سورة المائدة، ٥/١٦.

إن المناجاة التي تحملها مطولة «يا رسول الله» تسمو في مضامينها لروحيَّةِ الآيات القرآنية وحركيَّتها، فلقد التقى الشاعر بكل الصفات الرسالية القرآنية، فجاءت صوره صادقة، توحي بفهم عميق لهذه السيرة كما قدمها كتاب الله، وبصدق مستوحى من معاني القرآن، ليكون الرسول بنظر الشاعر رسول السلام، وروح السلام، وموعد السلام، دينه دين الحق، حربه السلم، وهو رسول الأخلاق، وحبه الرحمة، وهو سر الرسالة الطهر بتقواه، وعيشه مع الناس، وهو بنظر الشاعر الإنسان الأسمى، الذي يمثل الرسالة بكل صفاتها وروحيتها وهداها وشرعها السمح، وفكرها الناهض بها في سبيل الحق والسعادة، هكذا رأى الشاعر شخصية الرسول، وتحدَّث بروحيّة القرآن الكريم، متماهياً منطلقاً في رحاب الرسول شعراً.

فما هي الصُّور التي قدمها الشاعر لهذه الشخصية الرسالية العظيمة؟ لتكون زاداً آخر في توجُّهه الروحي، والتزاماتِهِ الدينيّة.

أ ـ رسول السلام:

ليس غريباً أن رسول الله، هو رسول السلام. فما الذي توحيه السماء سوى السلام والطمأنينة والحرية؟ ﴿**الله يدعو إلى دار السلام**﴾[1]، فإذا أوحى لرسوله بشريعته وأمَرَهُ أن يحملها للناس كافة، كان رسوله داعية السلام الأول، الهادي إلى الصراط المليء بالمحبة والجمال هكذا رآه القرآن، وعاشَه الشاعر:

يا رسولَ السلامِ ينبضُ بالرُّوْحِ حياةً ورحمةً وجمالا
أنــت أطلقتَــهُ لينعَــمَ فيــهِ الكــونُ لطفــاً ونعمــةً وظــلالا

---

(١) سورة يونس، ١٠/ ٢٥.

من جلالِ الوحي العظيمِ، من الوحي السماويِّ دعوةً وابتهالا
من هداكَ السّمْحِ الطّهوْرِ يضمُّ الحبَّ والخيرَ روعةً وجلالا[١]

(وزن الخفيف)

يستهل الشاعر أبياته بجملة إنشائية، يناجي بها الرسول الأعظم (يا رسول الإسلام) ويفيض هذا النداء بروحية يستلهمها من النص الإلهي، فرسول الله ليس رسولاً عادياً إنه يحمل الهوية الرحمانية ﴿**هو الله الذي لا إله إلّا هو الملك القدوس السلام**﴾[٢] فالله هو السلام الذي أرسل به الرسول، والسلام تصحبه دلائل وعلامات، فكيف كان السلام الرسولي؟ يأتي الفعل المضارع (ينبض) ليحدد القلب الذي يشكل الشريان الرئيسي للحياة، فالنبض دليل العطاء والسلام، الذي حمله الرسول صفة ملازمة، صار قلباً يضخ حياة ممتزجة بالرحمة، التي هي دين الله، وشريعته فهو الرحمان الرحيم.

وإذا ما كان الله تعالى جميلاً يحب الجمال، فقد نبض قلب السلام الرِّسالي بالجمال. وبما أن القلب هو المصدر الأساس للحياة، وهو الذي يطلق نعمة البقاء على بقية الجوارح، فإن الرسول هو الذي أطلق هذا السلام بما فيه من رحمة وحياة وجمال، وإذا ما أسند الشاعر الفعل (أطلق) للمبتدأ (أنت) العائد للرسول فقد حدد المصدر والوجهة، فالرسول صاحب المبادرة، والوجهة هي الكون، بكل ما فيه وما يحتويه. والرسول الذي أرسل للعالمين، جاء بسلام يهيمن على البشر جميعاً، وهو ما يتوق لتحقيقه. فالفعل (ينعم) مسبوق بلام التعليل التي تبين سبب إطلاق الرسول للسلام، وهو الوصول بالدُّنيا إلى اللطف والسماح والنعم وأفياء السعادة.

---

(١) محمد حسين فضل الله، يا ظلال الإسلام، ص ١٦٩.
(٢) سورة الحشر، ٥٩/ ٢٣.

وهنا يطرح السؤال نفسه؟ هل أطلق الرسول السلام من فراغ؟ يأتي البيت الثالث ليعيد العجلة إلى مسارها الصحيح، فكل ما جاء به الرسول وما أطلقه وما أراد، كان بأمرِ البارىء تعالى فإذا ما كان الله ﴿**يدعو إلى دار السلام**﴾[(١)] فإن رُسلَه يحملون لواء المسيرة التائقة إلى هذه الدار. وإذا ما كان الله يوحي لأنبيائه ورسله ﴿**وما كان لبشرٍ أن يكلّمه الله إلّا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً**﴾[(٢)] فقد مثّل الوحي العظيم الينبوع الذي أفاض سلام الرسالة وما رافقه، والشمس التي أشرقت على الكون لطفاً، ونعمة وظلالا. هذا الوحي هو وحي سماوي، لا ينطق عن الهوى، بل يملأ قلب الرسول/ السلام دعوةَ الحقِّ وابتهالَ الحقيقةِ. والرسول بسيرته وحياته يشكل تتمة الفيض الإلهي، وهو ما استدركه الشاعر في البيت الأخير، ليذكر أن هدى الرسول ليس هدى عادياً. إنه من خلال السمح الطهور يمنح هذا الهدى روحية الإنسان الأسمى، الذي تتوافر فيه كل صفات الكمال ليلتقي مع القلب الذي ينبض سلاماً ورحمة، فإذا بهدى الرسول يضم في هذا الملتقى الحبَّ والخيرَ كما تضم الأم أبناءها وتعانقهم، وضمهم السلام جميعاً، روعة وسحراً وعظمة وجلالاً. وما ذلك إلّا بفضل الروح التي يمتلكها هذا الرسول العظيم.

والرسل بما يمثلون هم الأمناء على البشر، والرسول الذي أطلق السلام، أطلقه من روحه وقلبه ونفسه، فإذا به يعد بنظر الشاعر روح الإسلام التي فاضت عن الذات القدسية، ينبوع العطاء، يقول الشاعر:

«أنت روحُ السَّلامِ... أيّ سلام لم يفِضْ وحيهُ من الينبُوعِ

---

(١) سورة يونس، ١٠/ ٢٥.

(٢) سورة الشورى، ٤٢/ ٥١.

من ربيعِ المشاعرِ البيض، في روحِ النبواتِ، من جمال الرّبيعِ»[(١)]

(وزن الخفيف)

إنتقل الشاعر من النداء إلى المبتدأ والخبر ليخاطب الرسول بالضمير (أنت) ومن هو؟ يأتي الخبر (روح) المضاف إلى السلام ليخصِّص الشاعر الرسول بأنه الروح/ السَّلام، بما حمله من معانٍ ودلالاتٍ. ويستكمل الشاعر صورته بتساؤل، لا يخفي فيه أن على الإنسان أن يأخذ كل شيء من ينابيعه الأساسية، فإذا ما مثّل الرسول روح السلام، فإن أي سلام بعده مشكوك به، إذا لم يرشح أو يفض وحيه من الينبوع الأساس وهو نهج الرسول وسلامه.

ولا يكتفي الشاعر بتحديد الهوية المائية لمصدر السلام بل يأتي بصورة تصاحب الينابيع المتفجرة، والثائرة وهي صورة الربيع، لكنه ليس ربيع الطبيعة، إن فيض السلام من القلب، يستدعي حضور العواطف والمشاعر البيض، بما توحي كلمة البيض من نقاء، وجمال وصفاء. إن حرف الجر (من) الذي كرره الشاعر في البيتين يوجه السلام نحو الوجهة الأسلم، والأصوب، إنها وجهة وحي الرسالة، وربيع المشاعر البيض المتفجرة في روح النبوات، هؤلاء الأنبياء الذين يلتقون على هدف واحد وسر واحد يوحي بالعطاء الدائم، كما هو عطاء الربيع للكون. وللسَّلام الذي يشكّل الرسولُ روحَهُ، موعدٌ وهدفٌ، يقول:

«موعِدُ السِّلمِ: أنْ تعيشَ سلامَ الروحِ، للهِ في خشوعِ السَّلامِ
فتهلُّ الصلاةُ ينبوعَ خيرٍ يسكبُ الحُبَّ في قلوبِ الأنامِ
ويفيضُ الدعاءُ إشراقَ طهرٍ يبعثُ النورَ في جفونِ الظَّلامِ

(١) محمد حسين فضل الله، يا ظلال الإسلام، ص ١٦٩.

ويحيىٰ ـ بإسم الإلهِ ـ غدُ الأمةِ، إنْ عاشَ روعةَ الإسلامِ»[١]

(وزن الخفيف)

ينطلق الشاعر من المبتدأ (موعد) والمضاف إليه (السلم) ليحدد منذ البداية صورة الملتقى، التي تطل علينا في سياق الأبيات الأربعة. فموعد السلم الذي ينبغي علينا أن نعيشه نهجاً، وسلوكاً رسالياً حدده الشاعر من خلال الأسس الإيمانية، وأساليب التقوى والهدى، فالمصدر المؤول من (أن تعيش) خبر المبتدأ (موعد) المضاف إلى السلم. فإذا أردت أن تعيش السلام والطمأنينة والسلم الذي يأمر الله تعالى به ﴿**يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة**﴾[٢]، وأول خطوة تخطوها على عتبة الدخول إلى السلم وموعده هو (عيشك) صفاء وسلام الروح. هذه الروح، التي يجب أن تكون بكل ما تحمل من معنى قدسي خالصة لله تعالى، لأنه أودع فيها سره، وإذا ما أضاف الشاعر (الخشوع) لـ(السلام) فإنه قد منح السلام هوية جديدة هي هوية الإنسان الزاهد، التقي المؤمن الخاشع لله والمفلح في شتّى أعماله.

أما الصورة الثانية التي استوحاها الشاعر من لحظة عيش سلام الروح لله تعالى خشوعاً وتقوى، فهي لحظة الصلاة والتأمل. فالصلاة علامة الخشوع والتقوى، وقد مدح القرآن المصلين الخاشعين ﴿**قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون**﴾[٣]، فالخشوع جعل الصلاة تهل، والفعل المضارع (تهل) يوحي بالحيوية والفرح والسعادة. وأي سعادة تسمو على لحظان الصلاة والتهجد لله تعالى؟ ولكن الشاعر لا يترك الصلاة على هويتها في الإسلام، ولكنه يفيض عليها بهوية الينبوع، والينبوع هو مصدر خير وعطاء،

---

(١) محمد حسين فضل الله، يا ظلال الإسلام، ص ١٦٩.

(٢) سورة البقرة، ٢/٢٠٨.

(٣) سورة المؤمنون، ٢٣/١، ٢.

وإذا ما تفجر وسال في الأودية ورحاب الكون، فإنه يجعل الأرض تزهو بالسحر، والجمال. هذه الصلاة ينبوع لا يَسْكُب ماء، وإنما حباً يتسلل إلى قلوب الأنام، ليفتحها على الله، وعلى هدى رسوله وسلامه.

وإذا ما أهلت الصلاة ينبوع خير، فاض الدعاء، ورفعت الأكف شاكرة الله على آلائه ﴿**وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها**﴾[1]، والدعاء الذي يفيض متكاملاً بفيضه مع صورة ينبوع الصلاة، وهو السلاح الذي أمر الله به ﴿**قل ما يعبأ بكم ربي لولا دعاؤكم**﴾[2]، وكيف يفيض الدعاء؟ وعلى أية صورة يسمو؟ إنه ينضح إشراق طهر، فالحال إشراق توحي بالضياء النوراني، الذي يرتسم على وجه الداعي في جوف الليل. لأن سيماء الداعين في وجوههم. ويأتي «المضاف إليه (طهر)» ليمنح الإشراق صورة الصفاء الإلهي فالله يحب المصلين والداعين والتائبين والمتطهرين.

لذلك يشرق طهر الدعاء، ليبعث نور الهدى، والإيمان في (جفون الظلام). هذا الظلام الذي يشخصه الشاعر، ويعطيه هوية إنسانية هي هوية النائم، للدلالة على ما يستتر. ويأتي البيت الأخير، ليستكمل الشاعر من خلاله صورة المسيرة الرسالية، القائمة على الإيمان بالله، والالتزام بالصلاة والتسلح بالدعاء، وهو ما يشرق في النفس إحياء وذكراً ـ باسم الإله ـ غد الأمة، هذا الغد الذي إن قام على ما سنه الشاعر من مبادىء مستلهماً نهج الرسالة، حقق بلاغ الرسول وشريعته، وعاش روعة إسلامه.

---

(١) سورة إبراهيم، ١٤/ ٣٤.

(٢) سورة الفرقان، ٢٥/ ٧٧.

ب ـ رسول الأخلاق:

أية شيمة هي أعظم من الخُلُقِ العظيم! ومن كان القرآن مربيه فهل سيكون خلقه غير خلق القرآن؟ قال تعالى: ﴿**وإنك لعلى خُلُقٍ عظيم**﴾(١) وعن أنس(٢) قال: «كان رسول الله(ص) أحسن الناس خُلُقاً»(٣) فإذا ما درس الشاعر سيرة الرسول الأعظم(ص) في القرآن أولاً فإنه وجد في شخصه قمة الأخلاق، ودوحة الاحترام. يقول الشاعر: «عندما ندرس سيرة الرسول الأعظم(ص) فإننا لا نستطيع أن ننظر إلى جانب من جوانبها دون الالتفات إلى الجوانب الأخرى، لأن أية شخصية لا سيما إذا كانت بمستوى شخصية النبي لا تتجزأ فهناك عمق لكل الجوانب التي تتحرك فيها»(٤). إن الأخلاق بما توحيه من مكارم، رشحت عن شخصية الرسول، كما يرشح العطر عن الزهرة، فالرسول في جانب من جوانب شخصيته يمثل السلام، وموعد السلم، وفي جانب آخر يمثل قمة الأخلاق، بكل امتداداتها الروحيّة، وإيحاءاتها، فالرسول صورة مفردة، لا مثيل لها في الكمال الإنساني المطلق، وظاهرة الأخلاق فطرة فطر عليها يقول شاعر الرباعيات:

«يا رسولَ الأخلاقِ... تمتدُّ في الرُّوحِ كما ٱمتدَّ بالشُّعاعِ النَّهارُ

---

(١) سورة القلم، ٦٨/ ٤.

(٢) أنس بن مالك (١٠ق.هـ ـ ٩٣هـ/ ٦١٢ ـ ٧١٢م) أنس بن مالك بن ضمضم البخاري الخزرجي الأنصاري، أبو ثمامة، أو أبو حمزة، روى عنه رجال الحديث ٢٢٨٦ حديثاً. مولده بالمدينة وأسلم صغيراً، رحل إلى دمشق ومنها إلى البصرة فمات فيها. وهو آخر من مات بالبصرة من الصحابة. الزركلي، معجم الأعلام، ٢/ ١٢٤.

(٣) الطبقات الكبرى، ج١، ص ٣٦٤.

(٤) مقابلة أجريتها مع الشاعر بتاريخ ١/ ٧/ ١٩٩٧م.

يتمنَّى أن يغمرَ الكونَ، كلَّ الكونِ، لطفٌ من الضَّحى موَّارُ
ورخاءٌ ترتاحُ في ظلِّهِ الدَّنيا وتجري على إسمه الأنَهارُ
وسماحٌ يفيضُ بالحبِّ والنّعمى وتهفو ـ لصفوه ـ الأسْحَارُ»[1]

(الخفيف)

تبدأ الأبيات كسابقتها بواسطة حرف النداء (يا) والمنادى هو الرسول، الذي يكتسب بالإضافة إلى جانب كونه رسولاً، هوية جديدة هي (رسول الأخلاق) الذي صار بعداً شمولياً في النفس والكون، بواسطة الفعل المضارع (تمتد) العائد للرسول، ووجهة الامتداد هي الروح الإنسانية. ويأتي حرف الجر (كـ) ليشبه امتداد الأخلاق الرسالية بامتداد النهار بالشعاع على كافة أرجاء المعمورة، وامتداد النَّهار بالشعاع هيمنة للنور والضياء والحقيقة في كل ناح، وللنهار الممتد بالشعاع رجاء وأمنية، تمثل أمنية الرسول وهي: أن يشمل الكون كما شملت رسالة الرسول العالمين، وبم يغمر؟ يأتي الفاعل (لطف) بما في اللطف من وداعة وحنان، ولكنه من الضحى الذي يعد بداية جديدة، فصورة النهار تواكبها صورة الضحى، ليتماهيا في إنبلاج فجر جديد، يمور اللطف فيه وصولاً إلى الطمأنينة، والرخاء الذي تركن إليه الدنيا، التي يمنحها الشاعر/ هوية الإنسان المرهق، المتعب المثقل بالهموم، فإذا به يرتاح في ظل الرخاء الآتي من الامتداد النوراني المغمور بلطف الضحى. وهنا تطل صورة الأنهار ـ لتجري على اسم الرخاء، وجريانها على هذه الحالة يوحي بهوية/ الاستقرار والهناء. وإذا ما غمر الكون لطف الضحى، والرخاء جاءت (و) العطف في البيت الأخير قبل الفاعل (سماح) حيث يستكمل الشاعر ما توحيه صورة الرخاء السابقة. فالرخاء يجعلك

(١) محمد حسين فضل الله، يا ظلال الإسلام، ص ١٧٥.

تستلقي، وترتاح، وتهدأ وتسامح سماحاً يفيض ينبوعه بالحب والنعمى. وإذا ما امتلأ الكون باللطف والرخاء والسماح هفت الأسحار التي سبقها النَّهار والضحى إلى السماح ونقائه، وأن يسند الشاعر الفعل (تهفو) للأسحار، فإنه يمنح الأسحار هوية الإنسان المشتاق، التائق إلى العدل والحرية والجمال والطمأنينة.

ولا يكتفي الشاعر بالحديث عن الأخلاق عامة، بل يعرج على ذكر خصوصية الخلق الرسالي، فيقول:

«خُلُقٌ تومِضُ الوداعةُ في عينيهِ كالفجرِ في عيونِ الشُّروقِ»(١)

(الخفيف)

تبرز في هذا البيت عظمة الخلق الذي امتزج بروح الرسول، فإذا بالخلق تتغير هويته ليتخذ بُعد الشخصية الرسالية كلها. كما نلاحظ أن الفعل المضارع (تومض) وفاعله (الوداعة) يعطي الوداعة بعداً ضوئياً. فالوميض للبرق الذي يبدد الظلام في ليالي الشتاء. والوداعة مسحة اللطف والسماح يشرق في عيني الرسول، ووميض الوداعة الذي يختزن النور يتماهى مع التشبيه الذي لجأ إليه الشاعر (كالفجر في عيون الشروق) فالشروق يتخذ هوية النائم الذي أيقظه انبلاج ضوء يومي بزوال الظلمة، وخلق الرسول ينير القلوب بالكلام الطيب والرفق واللين و﴿**مثل كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء**﴾(٢).

إن خلق الرسول ليس له حدود، وإن كانت أخلاق الأولين على ما ذكر

---

(١) محمد حسين فضل الله، يا ظلال الإسلام، ص ١٧٥.
(٢) سورة إبراهيم، ١٤/ ٢٤.

القرآن الكريم ﴿**إن هذا إلّا خلق الأولين**﴾[١] فإن الرسول خُلقه عظيم يُقْتَدَى به ﴿**وإنك لعلى خلق عظيم**﴾[٢] وهو يشكل منهاجاً يجب الرجوع إليه في كل آن ومكان. هكذا نظر الشاعر إليه في لحظان المعاناة، وسماع الأحاديث الفظة، وإستثارة البغضاء، والوقوف بوجه الإيمان، الذي يجسده الرسول، فيقول:

«يا رسولَ الخُلُقِ العظيمِ... هنا نحنُ نعاني من وسْوَسَاتِ الضَّلالِ
من نجاوى لا يستريحُ لها الشَّوطُ... ففي وحيها جنونُ اللّيالي
وحديثٌ فظٌّ... وقلبٌ حقودٌ يستثيرُ البغضاء في كلِّ حالِ
فيخالُ الإيمانَ عَسْفاً... وينسى خلقك السمحَ في ضميرِ الرِّجالِ»[٣]

(الخفيف)

إن المرحلة التي يعيشها الشاعر، تحتاج إلى خلق الرسول العظيم. خصوصاً أن شكوك المضلين تسعى للإنحراف بالأمة، والمجتمع عن طريقها القويم. فحديث الضلال فظ غليظ/ وحديث الرسول في منتهى الأخلاق ﴿**ولو كنتَ فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك**﴾[٤]، وقلب الضلال حقد وبغضاء، بينما قلب الرسالة يفيض بالحب والنعمى والسماح، وبكل ما نزّله الروح الأمين. ووسوسات الضلال تسعى للتشكيك بالإيمان الذي جاء به الرسول، فتخاله ظلماً وعدواناً وتجبراً وعسفاً، متناسية الخلق السمح الذي كرمه الله، وأودعه فطرة في ضمير الرجال والعباد. ويبقى الرسول أسمى من أي نور شع على الكون، واهتدى البشر به، مثيراً في الكائنات الزهو

(١) سورة الشعراء، ٢٦/ ١٣٧.
(٢) القلم، ٦٨/ ٤.
(٣) محمد حسين فضل الله، يا ظلال الإسلام، ص ١٧٩.
(٤) سورة آل عمران، ٣/ ١٥٩.

والضياء، ورسول الخلق العظيم عند الشاعر هو الذّورة من كل شيء يقول:

«يا رسولَ الخلقِ العظيمِ... هنا نحنُ التفاتٌ إلى الذُّرى وانفتاحُ
أنتَ كلُّ الذُّرى التي تحملُ الشمسَ فيزهو في جانحَيْها الصَّباحُ»[1]

(الخفيف)

نلاحظ هيمنة المكان الذي يعايشه الشاعر، فإذا به مع قومه ينظرون إلى القمم، والذرى العالية، وفي أنفسم توق إلى التحليق في رحاب العلياء، والانفتاح على معطيات الوجود. وإذا ما كانت الحال هي هذه، نراه يبدأ البيت الثاني موجهاً خطابه إلى الرسول بواسطة الضمير (أنت) ويأتي الخبر (كل) ليوحي بكمالية هذه الشخصية العظيمة، وعدم نقصانها، فيما تمثله من قيم وصور. ويضيف الشاعر (الذرى) إلى الخبر (كل) ليتخذ الرسول هوية السمو والعظمة والرفعة وأية ذرى هي هذه؟ إنها الذرى الشماء المتعالية الحاملة للشمس التي لا يعلم مستقرها ومستودعها إلّا الله. وإذا كان الله تعالى سخّر الشمس والقمر للإنسان، فإن الرسول (الذرى) قد شع نوره على الكون بأسره، وفاق ضياؤه. وإن هذا الامتداد النوراني، وعملية الحمل التي قامت بها الذرى، أحضرت في ذهن الشاعر صورة الطائر، المنفتح والمحلق في كل مكان من خلال قوله (فيزهو في جانحيها) فالهاء عائدة للشمس المحمولة، والتي صارت طائراً يطل من جناحيها الصباح، الذي يعلنه نورها زهواً، وفرحاً وسعادة.

وتمتد روحية الأخلاق الرسالية، لتثير في ذات الشاعر تساؤلاً يوحي بالحسرة والأسى، على من لم يهتد بهذه الأخلاق العظيمة، ولم يتزود من ينبوعها وسماحها وعليائها، يقول:

---

(١) محمد حسين فضل الله، يا ظلال الإسلام، ص ١٧٩.

«يا رسولَ الخُلقِ العظيمِ... متى يصحو السُّكارَى مِنْ خمرَةِ الغَافلِيْنا؟»[١]

(الخفيف)

إن هذا التساؤل ينطلق إلى التفكير بمصير الآخر، ومحاولة استنقاذه من خمرة الجهل، والضَّلال والتغاضي عن الحقيقة ونورها.

لقد كان الرسول خلقاً إلهياً يتحرك على أرض الواقع، ولذلك أوصى الناس قائلاً: «أحب عباد الله إلى الله، أحسنهم خُلقاً».

ج ـ الرسول الرحمة:

أفرد القرآن الكريم اهتماماً خاصاً لموضوع الرحمة، وحقيقةُ القول إن الإسلام هو دين الرحمة، وإن القرآن هو كتاب الرحمة والمغفرة، وإن الأنبياء الذين أرسلهم الله تعالى، هم رسل الرحمة، والسلام والحق والعدل. وإن الرحمان الرحيم إسمان يتكرران في كل سورة من سور القرآن، فالرحمة أمر فرضه الله على نفسه وأوجبه على ذاته القدسية ﴿كتبَ على نفسه الرحمة﴾[٢]، ولقد استطاع الشاعر أن يعيش رحمة الله سبحانه، بما اختزن الرسول من شيم وصفات جبله الله عليها، وفطره على الارتباط بها «فحبُّ الله لعباده هو رحمته ولطفه ورزقه وكل رضاه، وفي ضوء هذا علينا أن نتعلم كيف نحب ربنا. نحبه في جماله وهو الذي الذي خلق الجمال، إذا كنا نحب في الجميل جماله، نحبه بقوته وهو الذي يملك القوة التي لا حد لها، نحبه لعمله ولرحمته ولكل صفات الكمال والجلال فيه»[٣].

(١) سورة النمل، ٢٧/ ٣٠.
(٢) سورة الأنعام، ٦/ ١٢.
(٣) محمد حسين فضل الله، الندوة، ج١، ص ٤٦، دار الملاك، ط١.

إن حب الشاعر لله ينطلق من مقومات أظهرها، وأبرز في سياقها رحمة الله، التي رآها في وحي النبي تتخذُ هوية المطر، والثورة والتغيير، يقول مخاطباً رسول السلام والأخلاق:

«وحيُكَ الرَّحمةُ التي تنبتُ القلبَ حناناً وتملأُ الأرض بِرَّا
وتهزُّ الأعماقَ بالأريحياتِ العذارَى تفوحُ ـ كالزَّهْرِ ـ عِطْرا
فهـي فـي السِّلـمِ دمعـةُ لليتـامَـى تتلظَّـى حُـزْنَـاً لتـدفـعَ ضُـرّا
وهـي فـي الحـربِ روعـةُ العـدلِ فـي الإنسـانِ تستنـزِفُ المشـاعِـرَ طُهْـرا»[1]

(وزن الخفيف)

يبدأ الشاعر أبياته بالمبتدأ (وحيك) وقد ساوى بين المبتدأ والخبر (الرحمة) في التعريف، مما جعلهما شيئاً واحداً، فوحي الرسول هو الرحمة، والرحمة هي وحيه وأي رحمة هي هذه؟ إنها الرحمة التي تثير في النفس والقلب الأمل والرجاء، تماماً كالأمل الذي يبعثه الغيث، والمطر في قلوب الناس ﴿**وهو الذي يُنزِّلُ الغيثَ من بعدِ ما قنطوا وينشرُ رحمته**﴾[2] وصورة المطر حاضرة في ذهن الشاعر فالعلاقة بين الفعل (تنبت) والماء علاقة عضوية، فالهوية التي تتخذها الرحمة هي هوية/ الغيث، الذي يجي الأرض بعد موتها، وهذه الهوية تحمل في ثناياها صدى العلاقة القائمة ما بين الصفات الرسالية القرآن، ﴿**فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحي الأرض بعد موتها**﴾[3] فإذا كان الغيث سبباً لحياة الأرض، فإن الرحمة التي يحملها الرسول في عمقه وحبه تنبت القلب، وأي نبات هو هذا؟ هل هو الثمر

(١) محمد حسين فضل الله، يا ظلال الإسلام، ص ١٧٥.
(٢) سورة الشورى، ٤٢/ ٢٨.
(٣) سورة الروم، ٣٠/ ٥٠.

والعشب؟ إنه الحنان والعطف، وهل تكتفي رحمة الرسول بنبات الأرض؟ يأتي الفعل المضارع (تملأ) المعطوف على تنبت بواسطة الـ(و) ليفيد مطلق المشاركة في النبات والعطاء. فإذا ما أنبتت الرحمة الحنان في القلب، ملأت الأرض والكون (براً) والبر يلتقي مع الحنان، ليتماهيا وينشدا الهدف نفسه.

يتابع (عطف) الفعل المضارع (تهز) في البيت الثاني، وهذا التتابع يوحي بعظم الرحمة الرسالية، التي تلجُ الوجدان لهز الأعماق بالأريحيات البكر، التي أنبتت في القلب، لتعطر الأرجاء بشذاها. فالرحمة غيث/ عطاء.

ويأتي البيت الثالث، لينتقل الشاعر بالرحمة من وحي القلب وأعماقه، إلى حركية الرحمة بين زمنين متناقضين هما: زمن السلم/ وزمن الحرب.

فالرحمة في السلم (دمعة لليتامى) والهوية التي يمنحها الشاعر للرحمة هي هوية الأمومة، التي تكفكف الدمع حالة اليتم، والتي (تتلظى حزناً) تعيش الحزن بكل إيحاءاته، وهي تصبو (لتدفع ضراً) ودفع الضر يوحي بالمسؤولية العظيمة الملقاة على عاتق الرحمة/ الأم.

ورحمة الرسول في الحرب (روعة العدل) فمن أرحم من الله تعالى؟ ومن أعدل منه؟ ﴿**ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة لمسكم في ما أفضتم فيه عذاب عظيم**﴾(١)، فالله رحمان رحيم، يأمر بالعدل والإحسان، والإحسان الإلهي ميزان الحق، وهو كذلك بالنسبة لرسول الله(ص) الذي يمثل عدله في ساحة الحرب رحمة لأعدائه، وعفواً عنهم، وصفحاً عما اقترفوه بحقه. وهو ما أكده القرآن الكريم بحق الرسول(ص) ومن معه ﴿**محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم**﴾(٢).

---

(١) سورة النور، ٢٤/ ١٤.

(٢) سورة الفتح، ٤٨/ ٢٩.

هكذا تحرك رسول/ الرحمة بين الناس في السلم والحرب، دمعةً وروعةَ عدلٍ (تستنزف المشاعر طهراً) والفعل تستنزف يرمز لعمق الجرح، ومدى تأثيره، لكنه هنا الجرح الذي يفيض طهراً باستنزاف العدل للمشاعر والعواطف.

وقد يكون للرحمة في حياة الرسول مدلول آخر، هو جوهر العلاقة مع الآخرين، هؤلاء الذين لان الرسول لهم، وحادثهم بقلبه وعقله وروحه، لينفتح معهم على الله تعالى وعلى دينه، يقول شاعر الرباعيات:

«فبِمَا رحمةٍ من اللهِ. . . كنتَ اللّيِّنَ السهلَ في الشُّعورِ الرَّحيمِ
لستَ فظَّ اللّسانِ، لستَ غليظَ القلْبِ، بل كنتَ رحمةً للخصُومِ
. . والتقَى المسلمونَ حولَكَ في روح وديعٍ في كلِّ خُلُق كريمِ»[1]

(الخفيف)

تكاد الأبيات الثلاثة، تنطق بمعاني القرآن الكريم، التي صاغها الشاعر في معرض حديثه عن الرحمة التي تنسم الرسول أفياءها، وعاشها في كل نبضة من نبضات حياته، فالبيت الأول يحمل في ثناياه جوهر الآية الكريمة ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم﴾[2] فالخطاب الإلهي موجه للرسول في مسار تحديد علاقته بأتباعه، الذين كان معهم ليناً سهلاً، يتحسس آلامهم، ويعيش أفراحهم، يحادثهم كأنه فرد منهم يرشدهم، ويهذبهم، ويشاورهم في أمور دنياهم وحياتهم ﴿وشاورهم في الأمر﴾[3] وهو ليس فظ اللسان معهم، ولا غليظ القلب، وإلا لما تجمعوا حوله، وناصروه، وأَحبُّوه، وأيدوه، بل كان

(١) محمد حسين فضل الله، يا ظلال الإسلام، ص ١٧٦.
(٢) سورة آل عمران، ٣/ ١٥٩.
(٣) سورة آل عمران، ٣/ ١٥٩.

يمثل قمة الرحمة، والعطف والعدل حتى لخصومه هكذا رآه الشاعر، وهكذا درسه كما في القرآن الكريم **﴿ولو كنت فظاً غليظ القلب لأنفضوا من حولك﴾**[١] ورحمة الرسول ليست للمؤمنين فحسب **﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيزٌ عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾**[٢]، وإنما هي للخصوم الذين هم رحماء بين الرسول ومريديه.

ويأتي البيت الأخير، ليرسم صورة اللقاء الإسلامي العظيم تحت جنح الرسول وفي ظلال رحمته وأخلاقه، هؤلاء الذين لم ينفضُّوا عنه بل كانوا ألزم للرسول من ظله. تخلقوا بأخلاقه، وتأثروا بسلوكه، وآمنوا بما أنزل عليه **﴿ربنا آمنا بما أنزلت وأتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين﴾**[٣].

د ـ الرسول القدوة:

أظهر القرآن الكريم، شخصية رسول الله(ص) على أنها السلام، والرحمة، والأخلاق والحياة بكل جمالاتها، وعلى عدها الرمز والقدوة، لمن أراد الله تعالى واليوم الآخر **﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً﴾**[٤]. لقد أطل رسول الله من خلال القرآن رسولاً داعية إلى الله بالحق. يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويجاهد في سبيل الله، بالكلمة الحسنى، صابراً محتسباً ذاكراً الله في

(١) سورة آل عمران، ٣/ ١٥٩.
(٢) سورة التوبة، ٩/ ١٢٨.
(٣) سورة آل عمران، ٣/ ٥٣.
(٤) سورة الأحزاب، ٣٣/ ٢١.

شتى لحظات حياته ﴿**فاصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه**﴾[١].

إن التزام رسول الله بالمبادىء الإلهية ـ وما حثّت عليه شريعة السّماء، وما قام به من تبليغ إلهي هادفٍ إلى إخراج الناس من الظلمات إلى النور، وما بشر به الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة، والذين آمنوا بما أنزل عليه وهو الحق من ربهم، فكفّر عنهم سيئاتهم، ووعدهم ووعده الحق ﴿**إن للمتقين عند ربهم جنّات النعيم**﴾[٢] فإذا كان ﴿**لكل أمة رسول**﴾[٣] فإن الأمة التي ينتمي إليها الشاعر رسولها محمد(ص) الذي درسه الشاعر في القرآن الكريم دراسة كوّنت للرسول الأعظم(ص) شخصية القدوة الفريدة التي يذكرها الشاعر قائلاً: «نحن نتصور النبي(ص) إنساناً يختزن في إنسانيته معنى انفتاحه على الله، الذي يحتضن في رحمته كل خلقه. ومن هنا فإن الانفتاح على الله في المعنى الإنساني الذي يعيشه هو الانفتاح على الكمال المطلق، وعلى الرحمة المطلقة، وعلى العطاء المطلق، ولذلك فإني أعد أن هذه الإنسانية المضمخة بمحبة الله هي سر كل ما انطلق به النبي(ص)»[٤].

إن النبي الإنسان مثّل في حدود إنسانيته سمو الروح، فكان المرسل بالحق ﴿**شاهداً ومبشراً ونذيراً * وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً**﴾[٥]، فهل تحمل الحال (شاهداً) و(مبشراً) و(نذيراً) و(داعياً) و(سراجاً) غير الدلالة/ الرمز، الذي جسده رسول الله قولاً وعملاً وسلوكاً؟ وهل ينبغي على الناس

(١) سورة الكهف، ١٨/ ٢٧، ٢٨.
(٢) سورة القلم، ٦٨/ ٣٤.
(٣) سورة يونس، ١٠/ ٤٧.
(٤) مقابلة أجريتها مع الشاعر، بتاريخ ١/ ١/ ١٩٩٧.
(٥) سورة الأحزاب، ٣٣/ ٤٦.

سوى التزود من هذا المعين المتفجر في كل مكان وزمان؟ إن شاعر الرباعيات قد أدرك ذلك، فإذا بالرسول قدوة في الإنسانية، كما ذكر القرآن ﴿**يا أيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم**﴾[١] وقدوة في السيرة وقدوة في الحرب، وقدوة في السلم، وقدوة في الجهاد ﴿**لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم وأولئك لهم الخيرات وأولئك هم المفلحون**﴾[٢] ويكفي أن الرسول كان قدوة الحياة كلها، وإطاعته سبيل للنعمة الإلهية المبتغاة ﴿**ومن أطاع الرسول فقد أطاع الله**﴾[٣].

وهل أن الرسول القدوة اتخذ هذه الأبعاد والجوانب عند الشاعر فحسب؟ لقد عرف أمير المؤمنين الإمام علي(ع) هذه الحقيقة ووعاها، وعاشها إلى جنب الرسول، يعترك الحياة ويصارعها معه في بأسائها وضرائها، ولعل كلام الإمام يظهر بوضوح هذه المسألة، التي شكّلت ضميراً ناطقاً، ووحياً في حياة الإمام فإذا به يصنف الرسول قائلاً: «أرسله بالضياء وقدمه في الاصطفاء فرتق به المفاتق، وساور به المغالب، وذلل به الصعوبة، وسهّل به الحزونة حتى سرح الضلال عن يمين وشمال»[٤] والرسول الذي لم يكن عليه سوى البلاغ قد «بالغ في النصيحة، ومضى على الطريقة، ودعا إلى الحكمة والموعظة الحسنة»[٥]، وأن تكون رباعيات «يا ظلال الإسلام» «مشروع ملحمة إسلامية تتحرك في أجواء الإسلام الروحية والفكرية والعملية. . . وتسير في دروب التاريخ الإسلامي في عملية إستيحاء»[٦] فهذا

(١) سورة النساء، ٤/ ١٧٠.
(٢) سورة التوبة، ٩/ ٨٨.
(٣) سورة النساء، ٤/ ٨٠.
(٤) نهج البلاغة، ج٢، ص ١٩٤، دار المعرفة.
(٥) نهج البلاغة، ج١، ص ١٨٦، دار المعرفة.
(٦) محمد حسين فضل الله، مقدمة يا ظلال الإسلام، ص ١٩.

يعني أن الشاعر قد استوحى هذه القدوة العظيمة، يقول شاعر الرباعيات:

(على وزن الخفيف)

«أنتَ سرُّ الرِّسالةِ الطُّهْرِ... إنّا قدْ وعينَاكَ دعوةً ورسالةْ
وجهاداً حراً يشدُّ على الدُّنيا يديه سعادةً وعدالةْ
وبشيراً تعيشُ كلُّ جنانِ الطُّهرِ في وحيِهِ، وترعَى جمالَهْ
ونذيراً يشتدُّ كلُّ سعيرِ النَّارِ في آيِهِ لظىً وجلالَهْ»[1]

تتنازع النص صور أربع، بدأها الشاعر بصورة الرسول القدوة في الإنسانية، الذي فطر على دعوته فوعاها مع الناس من حوله، ولا سيما المؤمنين أمثاله، دعوة حكمة/ وموعظة حسنة، ورسالةً مثّل الرسول (سرّ طهرها) وصفائها ونقائها، وصورة الرسول القدوة في الجهاد. فبعد أن وعى الشاعر الرسول (دعوة ورسالة) وعاه (جهاداً) وأي جهاد هو هذا؟ هل هو الغزو الذي عرفه العرب؟ هل هو الثأر الذي مثّل عند العرب قمة القتال؟. إنه جهاد الإسلام، هذا الجهاد القائم على الحرية، ونبذ الذات والسعي للشموخ بالمجتمع إلى أرقى درجاته. ويأتي الفعل المضارع (يشد) ليمنح الشاعر بواسطته هوية جديدة للجهاد، هي هوية الإنسان القوي المتين، فالمفعول به (يديه) يواكب هذه الصورة، فبسط اليدين على الدنيا، يوحي بالعظمة وبهذه الحدود اللامتناهية التي يرسمها الشاعر لجهاد الرسول الحر. وكيف يشد الجهاد يديه على الدنيا؟ ولو أردنا طرحنا السؤال بشكل آخر وهو: ما هدف الرسول من الجهاد والقتال؟ تأتي الحال (سعادة) و(عدالة) لتوضح عملية الشد الجهادية على الكون وما فيه، فما جاء به الرسول هو لسعادة البشر ولإقامة العدل فيما بينهم، والاستجابة إليه تعني الاستجابة لما فيه الفرح

---

(١) محمد حسين فضل الله، يا ظلال الإسلام، ص ١٨١.

والحياة ﴿**يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله والرسول إذا دعاكم لما يحييكم**﴾[١] والعدل هو أرقى ما يطمح إليه الناس ويعملون لتحقيقه ﴿**وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل**﴾[٢].

ويأتي البيت الثالث مبدوءاً بالحال (بشيراً) ليرسم الشاعر صورة ثالثة للرسول القدوة، هي صورة الإنسان الذي يحمل البشارة للمحبين. وأية بشارة جاء بها الرسول؟ إن الإجابة على هذا السؤال تستدعي منا الوقوف على ما بلّغ به النبي. وما كلّف بتأديته إلى الناس، وهنا نجد أن الله تعالى قد اختصر هذه العناوين بقوله ﴿**فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوماً لداً**﴾[٣] فالهاء في يسرناه عائدة للقرآن المجيد، الذي بشر الرسول من خلاله المتقين، بما لهم من عظيم فضل ومغفرة، لأنهم آمنوا بالله ورسوله، وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم، وأنفسهم وأطاعوا الله ورسوله. وإذا ما كان الرسول (سر الرسالة الطهر) أسند الشاعر للفعل المضارع (تعيش) (كل) الفاعل المضاف إلى (جنان الطهر) وبما توحيه من كمالٍ ليمنح هذه الصورة الحياتية دلالة السعادة، والطمأنينة والاستقرار في ظل وحي الرسول، حيث تسهر على الاهتمام بهذا الوحي (وترعى جماله). والفعل (ترعى) المتعدي إلى المفعول به (جماله) يمنح (جنان الطهر) هوية المسؤول والقائد الذي يرعى ويهتم بشؤون أفراده، فاهتمام جنان الطهر، ورعايتها هي لجمال الوحي بكل ما توحيه كلمة الجمال من إبداع وانفتاح ونضارة.

ويقابل الشاعر بين صورة الرسول القدوة كبشير للمتقين/ ونذير لمن يحمل العداوة والشحناء والحقد في نفسه ﴿**وأنذر الناس يوم يأتيهم**

(١) سورة الأنفال، ٨/ ٢٤.

(٢) سورة النساء، ٤/ ٥٨.

(٣) سورة مريم، ١٩/ ٩٧.

العذاب﴾[١] فالإنذار للقوم «اللد» يستحضر في ذهن الشاعر الغضب الإلهي، الذي حذر الرسول منه في معرض إنذاره، لأن القرآن ذكَّر به في أكثر من موقع **﴿وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين﴾**[٢].

وإذا كانت (كل جنان الطهر) تعيش في وحي النبي البشير، فإن (كل سعير النار) يشتد في الآيات التي أنذر الرسول القدوة كل من ناوأه وناصبه العداء، ووقف في طرق دعوته بها، حتى ولو كان أقرب المقربين إليه. هذه النار التي سجَّرهَا الله لساعة غضبه، فمن أُنْذِرَ ولم يرعوِ فهو من الذين حقّت عليهم كلمة العذاب. ولعل الشاعر قد اطمأن قلبه لبشارة الرسول(ص) ووعت أذناه حسيس النار فتجنبها، وسعى ليبعد الآخرين عنها، لأنه قرأ ملياً **﴿يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر﴾**[٣].

إن هذه الصور الشعرية الأربع تتكامل مع الآيات القرآنية، فلقد استوحى الشاعر الرسول القدوة الإنسانية والجهادية والمبشر والمنذر، من خلال الدلالات التي وعاها في عمق الآيات الكريمة وشموليتها.

ولا يكتفي الشاعر بذلك كله، فقد حاول أن يبرز سيرة الرسول الأعظم(ص)، كأسوة يجب على أفراد البشر الاقتداء بها، والاستيحاء من نهجها والاستلهام من خطاها لأنها أرقى تجربة إنسانية رائدة، وجدت على سطح الخليقة، بما يمثل الإنسان من خليفة لله تعالى.

يقول الشاعر مذكراً بروحية الرسالة ومدى انطباق مفاهيمها على مصاديق الآيات القرآنية، تنزيلاً وسلوكاً وعملاً:

---

(١) سورة إبراهيم، ١٤/ ٤٤.

(٢) سورة غافر، ٤٠/ ١٨.

(٣) سورة القمر، ٥٤/ ٤٨.

«وسجَا اللّيلُ... فانتبهْتَ... وعيناكَ... التفاتٌ إلى جَلالِ المَساءِ
حاملاً في يديكَ قرآنكَ البكر... وفي روحِكَ إنتفاضُ الحياءِ
ثُمّ مرَّ النسيمُ... وانسابتِ الآياتُ... في صوتِكَ الحبيبِ النائي
أيُّها النَّاسُ كلُّكم... لو عقلْتُم... مبدأُ الخلقِ من تُرابٍ وماءِ
إنَّ هـذي الفـروقَ أضعـفُ مـن أنْ تتجنَّـى علـى طـريـقِ السَّـواءِ
فأخنقوها... ونضِّروا الروحَ بالتّقوى فإنَّ الصباحَ للأتقيَاءِ»[١]

(وزن الرّمل)

إن صوت الرسول يتردد صدىً للوحي المنزل عليه، فإذا ما (سجا الليل) وسجو الليل قد يكون ستاراً لظلام الجهل، والتخلُّف والاستعباد، وإذا ما هجعت عيون الناس جميعاً، ولم تقدر على النهوض سعياً من أجل حقها المغتصب، كان الرسول قدوة في مسلكه، وسيرته وجهاده وحياته وتعاطيه مع الناس. وانتباه الرسول يعني عدم غفلته عن المطالبة بالحق، وحمله لكتابه البكر يمثل دعوة الناس إلى ما يتضمنه قرآنه، وحثهم على سماع صوته الناطق بوحي قرآنه. وبم ينطق الرسول؟ وماذا تحمل نفحات النسيم للمستمعين؟ إن الرسول يدعو الناس إلى قراءة مفهوم إنسانيتهم ﴿**هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة**﴾[٢] فلا فرق بين عربي وأعجمي، وأبيض وأسود، وذكر وأنثى، فالخلق كلهم عيال الله وأحبهم إليه أنفعهم لعياله ﴿**يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم**﴾[٣] فإذا ما عقل الناس هذه الفروق

---

(١) محمد حسين فضل الله، قصائد للإسلام والحياة، ص ٤٧.
(٢) سورة غافر، ٤٠/ ٦٧.
(٣) سورة الحجرات، ٤٩/ ١٣.

وجدوا أنها (أضعف من أن تتجنى على طريق السواء) ومبدأ الإنسانية وشريعة الله تعالى، التي لا تميز بين فرد وآخر إلّا على أساس التقوى، وميزان العمل الصالح، وهو ما جعل الشاعر يطلب على لسان الرسول خنق هذه الفروق، وعيش التقوى لأنه قمة التفاضل.

وهكذا يطل الصباح، موعد المتقين **﴿إن موعدهم الصبح * أليس الصبح بقريب؟﴾**(١) فالليل الساجي مصيره الزوال، وصباح التقوى والإيمان آتٍ ـ لا محالة ـ ليملأ النفوس حباً، وبراً وعدلًا وسماحاً. كما أراد الرسول القدوة الحسنة المعطاءة الذي كان مثالًا لقوله تعالى **﴿أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم﴾**(٢).

لقد استطاع الشاعر الذي عاش الرسول في وجدانه، وفي تفكيره أن يواكب ويلحظ كل الأضواء والظلال التي لمحها في السيرة النبوية، وأراد أن يكون الرسول حاضراً في كل تجربة من تجارب الحياة الإنسانية، فغاص في أعماق المعاني والدلالات التي استوحاها من الآيات القرآنية، ليخرجَ بعد ذلك وعلى يديه لألئ وجوهر تحكي حركية الرسول القدوة ومن معه **﴿الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويحل لهم الطيبات ويحرّم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون﴾**(٣).

---

(١) سورة هود، ١١/ ٨١.
(٢) سورة فصلت، ٤١/ ٣٤.
(٣) سورة الأعراف، ٧/ ١٥٧.

هـ ـ الرسول الإنسان:

للرسول الإنسان حضور مميز، في سياق قراءة الشاعر لسيرة الإنسان الأعظم في القرآن وفي الشعر، فلم يكن الرسول إنساناً عادياً كبقية البشر، ولذلك رأى الشاعر في الرسول الإنسان ما يجسد الإنسانية كلها، يقول شاعر الرباعيات: «فنحن نتصور النبي إنساناً يختزن في إنسانيته معنى انفتاحه على الله»[1] ودلالة الانفتاح على الله توحي بالإطلالة على الكمال المطلق، وعلى المودِع في الإنسان فطرةَ الحبِّ الإنساني العميق، وإذا ما احتضن الله برحمته كل خلقه فإن «الانفتاح على الله في المعنى الإنساني الذي يعيشه هو الانفتاح على الرحمة المطلقة والعطاء المطلق»[2] من هنا إستوحى الشاعر هذه الصفة، وعدَّ الإنسانية المضمخة بمحبة الله هي سر كل ما انطلق به النبي في حياته، وفي سلوكه وسيرته مع الآخرين، كإنسان يحمل رسالة الله التي تمثل معنى إنسانيته، وتمثّل إخلاص الرسول لربه.

فقد كان الرسول إنساناً حمل هذه الرسالة العظيمة التي تجسدت فيه، فإذا به رسالة تتحرّك على الأرض، وتشمل كل معاني الإنسانية: من رحمة وحنان، وعطف وسلام، أفاض الرسول على كل ما حوله، وهو ما مثّل سر شخصيته. «فهو إنسان الله الذي أحب الله كما لم يحبه أحد، وعاش مع الله كما لم يعش معه أحد، ولذلك فإن سره كان هنا، وعندما يكون الله سر إنسان، فإن معنى ذلك أن إنسانيته تتحرك كما هو الينبوع تماماً، الذي يعطي

---

(١) مقابلة أجريتها مع الشاعر، بتاريخ ٥/٦/١٩٩٧.

(٢) مقابلة أجريتها مع الشاعر، بتاريخ ٥/٦/١٩٩٧.

الري والخصب والرخاء، وكما هي الشمس التي تعطي النور والدفء والحياة»[١].

هكذا كانت نظرة الشاعر للرسول الإنسان، الذي استحق بسيرته ما نزله الروح الأمين على قلبه فـ﴿**ما على الرسول إلّا البلاغ**﴾[٢] ومع ذلك تراه قد عاش فرح الأمة وترحها، ﴿**فلا تذهب نفسك عليهم حسرات**﴾[٣] «ولهذا رأينا رسول الله وهو نبينا وإمامنا ومرشدنا قد دخل إلى قلوب الناس قبل أن يدخل إلى عقولهم واحتوى كل الناس بقلب رحيم فكان رقيقاً يتحسس كل آلامهم، واحتوى آذان الناس بكلماته الحلوة الرقيقة، واحتوى حياة الناس بحرصه عليهم»[٤] يتحسس كل التعب الذي تعيشونه ﴿**حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم**﴾[٥].

إن إنساناً يملك هذه الصفات القرآنية التي تظهر عظم شخصيته، لا بد أن يكون كما رآه الشاعر الذي خاطب الرسول الإنسان:

«أنتَ من أنتَ... أنتَ إنسانُنَا الأسمَى... هدانا على الطَّريقِ الطَّويلِ
قولُكَ الوحيُ... دربُكَ الشِّرْعَةُ السمحاءُ عبرَ التكبيرِ والتَّهْليلِ
ومــداكَ الإنســانُ فــي كــلِّ أفــقٍ يتملَّــى شــروقَــهُ كــلُّ جيــلِ
أنــتَ إنســانُنــا الــذي تــرفــعُ القمَّــةُ تــاريخَــه لكــلِّ دليــلِ»[٦]

---

(١) مقابلة أجريتها مع الشاعر، بتاريخ ٥/٦/١٩٩٧.
(٢) سورة المائدة، ٥/٩٩.
(٣) سورة فاطر، ٣٥/٨.
(٤) محمد حسين فضل الله، الندوة، ج١، إعداد عادل القاضي، ص ٥٢٨، دار الملاك، ط١، ١٩٩٧.
(٥) سورة التوبة، ٩/١٢٨.
(٦) محمد حسين فضل الله، يا ظلال الاسلام، ص: ١٨٣.

(وزن الخفيف)

يتكرر الضمير (أنت) ثلاث مرات في البيت الأول، وما دلالة هذا التكرار إلّا لتأكيد الشاعر على عمق الحضور لرسول الله(ص)، ومدى العلاقة معه.

فالشاعر يتبع الضمير (أنت) المبتدأ باستفهام (من أنت) ليوحي هذا الاستفهام تجاهل العارف، ثم يعيد الضمير (أنت) كمبتدأ خبره (إنساننا) وفي إسناد الخبر (إنسان) المضاف إلى ضمير (نا) المتكلمين العائد للشاعر ولكل من ينتمي للرسالة المحمدية، هوية يمنحها الشاعر للضمير (أنت) هذه الهوية ليست جديدة بالنسبة لتركيبة الرسول المادية البشرية، فكلنا في الإنسانية والخلق سواء فالله قد ﴿**بدأ خلق الإنسان من طين**﴾[1]، لكنه اصطفى لرسالته من شاء من أنبيائه، وإذا ما كان اصطفاؤه للرسول محمد(ص) في ختم الرسالات، كان هذا الخاتم يمثل القِمّة الإنسانية، لذلك تأتي الصفة الأسمى التي ألحقها الشاعر بالخبر (إنسان) ليتركنا نفكر في حدود هذا السموّ اللامتناهي، الذي حازه الرسول ليكون الأمة بكل شريعتها في فرد واحد، كما كان إبراهيم الخليل ﴿**إن إبراهيم كان أمة**﴾[2]. ولا يكتفي الشاعر بإسناد (إنساننا الأسمى) إلى المبتدأ (أنت) بل يمنحه هوية جديدة هي الهدى الذي نتساءل عما تحمله دلالتها؟ فالإنسان الأسمى هو ذاك القائد، والمرشد والدليل الهادي إلى الطريق الحق. وإتباع النور الذي جاء به ﴿**يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً**﴾[3] فبرهان الرسول هدى

(١) سورة السجدة، ٣٢/ ٧.
(٢) سورة النحل، ١٦/ ١٢٠.
(٣) سورة النساء، ٤/ ١٧٤.

يجب اتباعه ﴿**وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا**﴾[١] يأتي البيت الثاني وقد بدأه الشاعر بالمبتدأ (قول) المضاف إليه (ك) الخطاب فالقول قول الرسول. وأي قول هو هذا؟ هل هو قول ما لا يفعل؟ يأتي الخبر (الوحي) لينطلق الشاعر بنا في رحاب وأجواز السماء فالرسول ﴿**ما ينطق عن الهوى إن هو إلّا وحي يوحى**﴾[٢] فهل في هذا القول شك؟ ﴿**ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة**﴾[٣] ومن كان قوله وحياً وحكمة سيكون دربه درب الوحي ودرب الحكمة. فإذا بالشاعر يستحضر سبيل الرسالة، بكل سماحها وعبر نداءاتها تكبيراً وتهليلاً ﴿**وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم**﴾[٤].

ويطل الشاعر علينا في البيت الثالث وقد حدد وجهة الدعوة الرسالية فلمن أرسل وعلى أية قاعدة؟ يأتي المبتدأ (مدى) المضاف إلى (ك) المخاطب العائدة للرسول ليوحي بالوجهة المكانية للرسول الإنسان الأسمى فإذا به (الإنسان في كل أفق) ولعل هذه الهوية قد استوحت دلالتها من مضمون قوله تعالى ﴿**وما أرسلناك إلّا كافة للناس بشيراً ونذيراً**﴾[٥] فالرسول لم يتحرّك في مداه المكاني والزمني، ليكون لفرد دون آخر، ولإمة دون سواها. بل كان البشير لمن اتقى، والنذير لمن أعرض ونأى بجانبه. ولذلك أُوحيَ إليه ﴿**وما أرسلناك إلّا رحمة للعالمين**﴾[٦] وأوحت سيرته القرآنية للشاعر بأنه الإنسان الأسمى، الذي مداه الإنسانية، حيث يتملى كلُّ جيلٍ شروق هذه العدالة الإنسانية وهذه الرحمة.

---

(١) سورة الأنعام، ٦/ ١٥٥.
(٢) سورة النجم، ٥٣/ ٤، ٣.
(٣) سورة الإسراء، ١٧/ ٣٩.
(٤) سورة المؤمنون، ٢٣/ ٧٣.
(٥) سورة سبأ، ٣٤/ ٢٨.
(٦) سورة الأنبياء، ٢١/ ١٠٧.

ويأتي البيت الأخير، ليعيد الشاعر بواسطة المبتدأ (أنت) والخبر (إنسان) المضاف إلى (نا) المتكلمين حيث اتخذ بهذه الإضافة بعد الشمول والانفتاح ليمثل الرسول في مسيرة المسلمين الرمز والقدوة وإنسان الله الذي (ترفع القمة تاريخه) إلى أين؟ ولمن؟ يجيب الشاعر (لكل دليل) وفي إسناد الرفع إلى (القمة) أخرجها الشاعر عن دلالتها الموضوعية، وكأن (القمة) ماكانت لتنتظر أحداً كي يرفع تاريخ سيرة الرسول المجيدة، حتى اقتبسها نوراً يستضيء كل طلاب السعادة والكمال بهديه ورشاده. ﴿**يا أيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم فآمنوا خيراً لكم**﴾[1] فهل من ملبٍّ لهذا النداء؟ وهل ممن يعيش الرسول قدوة في الحق والإنسانية؟ يقول الشاعر:

«والصَّلاةُ التي نمارِسُها ـ باسمك ـ لم تنطلِقْ ـ بوحيكَ لحنا»[2]

«يا رسولَ الحياةِ: أنتَ هنا... في الحقلِ.. في يقظةِ الصَّباحِ الرَّغيدِ
فتلمَّسْ أزهارَهُ: هل ترى فيها رُواءَ النَّدى وزهوَ الورودِ
إنَّها تنشدُ الحياةَ ولكنْ كيفَ ترجو الحياةَ خلفَ السُّدودِ
فترفَّقْ بها فقد هزَّها الإعصارُ... في ثورةِ الخريفِ العنيدِ»[3]

(الخفيف)

يبدأ الشاعر بالنداء، والمنادى هو الرسول مضيفاً إلى الرسول كلمة (الحياة) ليتخذ الرسول بهذه الإضافة بعداً دلالياً منفتحاً على الكون كله، فبم يوحي المضاف إليه (الحياة)؟ إنه يحمل كل معاني البقاء والحيوية والنضارة، فإذا ما كان المطر سبباً للحياة ﴿**وهو الذي أرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته**

(١) سورة النساء، ٤/ ١٧٠.
(٢) محمد حسين فضل الله، يا ظلال الإسلام، ص ١٨٢.
(٣) محمد حسين فضل الله، قصائد للإسلام والحياة، ص ٤٢.

وأنزلنا من السماء ماء طهوراً لنحيي به بلدة ميتاً ونسقيه مما خلقنا أنعاماً وأناسي كثيراً﴾[(١)] فإن رسول الله قد أُرسِلَ حياةً للدنيا، وما على وجهها، يأتي الضمير (أنت) المبتدأ وقد حذف الشاعر الخبر (موجود) ليوحي من خلال اسم الإشارة (هنا) أن للرسول وجهة مكانية، فهو ليس في السماء، وليس بعيداً عن الشاعر ومحيطه ومجتمعه، وليس في أي مكان، إنه (في الحقل) وفي (يقظة الصباح الرغيد) وأي مكان هو هذا؟ فالرسول الحياة في (الحقل) حيث الأزهار والعشب والنبات، وهو أيضاً في انبلاج الفجر (ويقظة الصباح) حيث توحي اليقظة بانبعاث وقت جديد، وقيامة الإنسان والكائنات لاستقبال يوم يوحي بالسعادة، فالصبح الرغيد/ عطاء الحياة الرسولية.

ويطل الشاعر في البيت الثاني آمراً على سبيل الدعاء، لأن الأمر في الفعل (تلمس) هو من الأدنى (الشاعر) إلى الأعلى (الرسول) فالشاعر يأمل من الرسول/ الحياة أن يتلمّس أزهار الحقل، وفي تلمسه دلالة فما هي؟ يأتي الاستفهام (هل ترى)؟ ليشير الشاعر إلى ما يوحيه الزهر في الحقل من ندى يبلله لحظة الصباح، وزهو يعتريه عندما تطل عليه خيوط الشمس الأولى، ولعل تساؤل الشاعر يوحي بالذبول والعفاء، وانتصار أزهار الحقل لأنامل الرسول/ الحياة نضارة وجوده.

وحين يتلمس الرسول أزهار الحقل، يتحوَّل القفر إلى واحة ويعم الرخاء الأرض ومن عليها، يقول:

«فإذا القفرُ واحةٌ: تبعثُ الظلَّ مديداً على خطوطِ البيدِ

(١) سورة الفرقان، ٢٥/٤٨، ٤٩.

وإذا بالرَّخاءِ: يحتضِنُ الأرضَ، ليطويَ ذكرى العهودِ السُّوْدِ»[١]

(وزن الخفيف)

تطالعنا في البيتين صورة (الموت/ الحياة) فالقفر/ الواحة هو قبل الرسول/ صحراء قاحلة لا حياة فيها، وإذا ما أخرج الرسول الناس من ظلمات الجهل إلى نور الإيمان والتقوى بدعوته، فإنه بأخلاقه وسيرته ورحمته ولينه قد جعل الصحراء واحة يتنسم الناس فيها نعيم الجنة. ويأتي الفعل المضارع (تبعث) لتصبح الواحة مصدراً للحياة والظلال، التي لا تقتصر على حدودها، وإنما تمتد كامتداد الرسالة لتشمل البيداء ومن عليها. والظل الذي تبعثه الواحة مديداً يوحي بالظل الإلهي، لأنه بفعل الرسالة ﴿**ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكناً**﴾[٢] فمن دخل الواحة دخل ظلاً ظليلاً ﴿**لهم فيها أزواج مطهرة وندخلهم ظلاً ظليلاً**﴾[٣] فصورة الظل هي صورة الحياة، وإذا ما كان الرسول رسولًا للحياة فإنه بعث في خلايا الكون دم البقاء وحول القفر إلى واحة تذكرنا بالجنة التي ﴿**تجري من تحتها الأنهار أكلها دائم وظلها**﴾[٤] وهو ما يوحي بـ(الرخاء) فامتداد الظل أوحى بالرخاء والطمأنينة، وأي رخاء هو هذا؟ إن الفعل (يحتضن) يمنح الرخاء هوية الأمومة المليئة بالعطف والرحمة والحنان، وماذا يحتضن الرخاء؟ إنه يضم الأرض إلى صدره، الأرض التي صارت واحة بفعل الحياة التي يبعثها الرسول بوحي رسالته، ويبثها في خلايا الوجود الذي تخبط بالعهود السوداء، عهود الظلم والفساد والجاهلية، وجاء الرسول بما يحمل من بشرى، ليجعل

---

(١) محمد حسين فضل الله، قصائد للإسلام والحياة، ص ٤٢.
(٢) سورة الفرقان، ٢٥/ ٤٥.
(٣) سورة النساء، ٤/ ٥٧.
(٤) سورة الرعد، ١٣/ ٣٥.

الرخاء أمّاً تحتضن الأرض، ومرحلة تطوي ذكرى الفترات العصيبة، ليعيش الناس الحرية والهناء والسعادة ويذكروا آلاء الله.

ويشكّل البُعدُ عمّا جاء الرسول به، نأياً عن العدل والحق والمعرفة وصراعاً بين مبادىء الحياة، وخموداً وعيشاً بين الشهوة والنساء:

«يا رسولَ الحياةِ: شكْوىً طوينا الدَّرْبَ في اللَّيلِ في ظِلالِ الجحودِ
وجرينَا في البحْرِ... والأفقُ يقتادُ شعاعَ الصَّباح نحو الخُمودِ
وتركنا في البرِّ زورَقَكَ الهادِي وسِرْنا بزورقٍ مِنْ وُعودِ
هكذا... نحنُ مسلمونَ... ولكن بينَ كأسِ الهوى وحُمْرِ الخدودِ»(١)

(وزن الخفيف)

ويسعى الشاعر للخروج من هذا المأزق، وتلمّس الطريق الذي سنّه الرسول للعدالة الإنسانية، والحق الذي أرسل به مؤكداً على أن الرسول/الحياة سيبقى نهج الوعي، الذي تلهج الشفاه به في كل صلاة ودعاء ونشيد:

«سوفَ نجري، ومشعلُ الحقِّ يهدينا إلى نهجِكَ العظيمِ السَّديدِ
وسيبقَى صداكَ يبتدِعُ الوعي بأعماقِنا لفجرٍ ولُوْدِ
وصدَى الحقِّ يقظَةٌ وحياةٌ يسكُبُ الحبُّ عطرَها في النَّشيدِ»(٢)

(وزن الخفيف)

إن تكرار كلمة (الحق) يوحي بالمعاناة في ظل الباطل، الذي يسود الدنيا، لا سيما بعد ذهاب الرسل، الذين جاهدوا في سبيل سيادة الحق،

(١) محمد حسين فضل الله، قصائد للإسلام والحياة، ص ٤٤.
(٢) محمد حسين فضل الله، قصائد للإسلام والحياة، ص ٤٥.

وخذلان الباطل ﴿**لقد جاءت رسل ربنا بالحق**﴾[1].

ولعل الفعل (نجري) يوحي بشدة الشوق إلى نهج الرسل، ولا سيما رسول الحياة محمد(ص) الذي صار صداه في النفوس خيالًا خلّاقاً (يبتدع الوعي) شوقاً إلى (فجر ولود) جديد مليء بالأمل والزهو. وأن يتردد الحق في أعماق النفوس، فليس ذلك إلّا دليل نهضة، وانبعاث، وحياة تجعل الحب نبعاً دافقاً، يسكب عطر الحياة الرسالية في نشيد الكون، والإنسان.

(١) سورة الأعراف، ٧/ ٤٣.

خلاصة عامة

لقد وفق الشاعر في صياغة السيرة النبوية شعراً، هذه السيرة التي قرأها في القرآن، ووفق مدلول الآيات القرآنية، حيث استلهم من حياض الكتاب الصفات التي حبكتها الأنوار الرحمانية لشخصية الرسول، ولقد أدت جميع النصوص الدلالات التي أرادها الشاعر في سياق حديثه عن عظم الرسول، في أخلاقه، وسلامه، وسلمه، وحربه، ورحمته، وحرصه، وإنسانيته، وحركيته. وأن يحيط الشاعر بكل الجوانب التي اختزنتها نفس الرسول، وهو ما أكده قائلاً: «أنا أعِدُّ أن الإنسان الذي يعيش مع رسول الله، لا يستطيع أن يؤطر نظرته بأي إطار تقليدي، لذلك فإنني عشت معه في إنسانيته الرسولية، وكنت عندما أجلس معه مع كل ما هو فيه وما نتذكره فيه، أشعر في وجدان مليء بالحركة، والوجدان، والحياة، والإخلاص، والروحانية، والصدق، والأمانة، والانفتاح على الإنسان كله، والحياة، كلها. لهذا فإنني أشعر بالتجدد كلما تذكرته، وأسمو كلما خطر في بالي، كما لو كان وجداني يعيش العطر، والسحر، والجمال حيث لا أملك نفسي أمامه، إلّا أن أشعر بأنني أعيش جنة الله في الأرض»[1]. إننا نجد أن الشاعر قد لخص كل الأبعاد الإنسانية والعملية في حياة الرسول، الذي عاش في الصحراء، لكنه بسيرته وأخلاقه وسموه الإنساني حوّل هذه الصحراء القاحلة إلى جنة ينعم الشاعر

(١) مقابلة أجريتها مع الشاعر، بتاريخ ٥/٦/١٩٩٧.

بفيئها، وآلائها الدائمة. فهو حتى عندما انطلق في حياته، في الثقافة الدينية والفقهية كان يتمثّل الرسول في وجدانه الديني، وفي حركته الفقهية، ويستوحيه لأنه كان يستوحي رسالة الله تعالى.

إن الشاعر لم يرَ في الرسول إنسان الله فحسب، بل رأى فيه الداعية، والمبلِّغ الذي أراد ربط الأمة بالله لا بالفرد. لأنه لم يكن على الرسول إلّا البلاغ والتذكير. يقول شاعر الرباعيات «وهكذا رأينا كيف كان النبي(ص) يربط قومه بالله سبحانه وتعالى، ويعلّمهم بأن ارتباطهم به ليس ارتباط الشخص بالشخص، ولكنه ارتباط الإنسان بالرسالة. ولذلك فإنه يقول لقومه إن اتباعهم له يمثّل المظهر لحبهم لله»[1] ﴿**قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله**﴾[2] أتبعوني لا بصفتي الشخصية ولكن بصفتي الرسالية. ولذلك رأينا القرآن الكريم يتحدث عن الرسول على أساس أنه لا يمثل شَخْصاً في علاقة الأشخاص به ﴿**ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين**﴾[3].

لقد استطاع السيد الشاعر أن يبحر في يم الرسول، ويؤوب وقد حصّل في رحلته سيرةً خلَّدها كتاب الله بأحرف من نور وتربيةً روحيّةً خالصةَ الثقة بالله تعالى. لكن السؤال هو: «إذا كانت أبيات الشاعر صدى للآيات القرآنية فما الجديد الذي جاء به؟ وما جدوى نصوصه الشعرية؟ وهنا يهمنا أن نطل على أثر الشخصية العظيمة لرسول الله (ص) في الواقع المُعاش، من خلال مبحث الرسول وواقع العصر.

---

(١) محمد حسين فضل الله، جزء من مقابلة أجريتها، بتاريخ ٥/٦/١٩٩٧.
(٢) سورة آل عمران، ٣/ ٣١.
(٣) سورة الأحزاب، ٣٣/ ٤٤.

الفصل الرابع

بين ماضي الرسالة وحاضر الأمة

بين ماضي الرسالة وحاضر الأمة

أ ـ الرسول وواقع العصر:

لم يتبنَّ الشاعر شخصية الرسول الأعظم محمد(ص) كما صورها القرآن فحسب، بل وعى فعالية هذه الشخصية العظيمة في الحياة، ودعا إلى اتخاذها نموذجاً في أي آن ومكان. طالباً من خلال فهمه للأمانة التي أوكلها الله وعرضها على رسله، أن يكون هؤلاء الرسل قدوة المسيرة في كل صغيرة وكبيرة. يقول شاعر الدعوة الرسالية: «لا يزال الناس يقرأون الرسول بحثاً وتحليلاً وفكراً، ويبقى الرسول الأمي، يعطي للعالم أعلى أنواعه الثقافية، ويحرّك فيه أعمق مواقع الفكر حيث يمتد فكره حتى يرث الله الأرض ومن عليها، لأنَّ فكرهُ وحي من الله تعالى ووحي يمثل الامتداد في كل مواقع الإنسان في الحياة، لأنه الوحي الذي ينطلق من خالق الإنسان»[١] فإذا ما كان الرسول إنساناً قد اختصر الإنسانية بما منحه الله، فإن الخالق العظيم أعلم وأخبر بمن خلق وما أعطى ومنح ﴿**ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير**﴾[٢]

(١) محمد حسين فضل الله، الندوة، ج٢، ص ٧٠، دار الملاك، ط١.
(٢) سورة الملك، ١٢/ ٦٧.

ويعتبِرُ الشاعر أن الله قد كتب رحمته لمن يتبع الرسول قولاً وعملاً «فالله يكتب رحمته لمن يتبعه لا لمن ينتمي إليه انتماء الكلمة، ولا لمن ينطلق معه بعيداً عن حالة الاتباع»[١] هذه الحالة التي تعني أن يكون رسول الله دائم الحضور في حياتنا، لأن نسيان تجربته الرسالية، يعني ضياع الماضي والحاضر والمستقبل، وتلك هي قصة العبادة التي يريدها الله «حيّة متحركة منفتحة على كل النشاطات الفكرية، والعلمية للإنسان في الحياة التي تحتوي الزمن كله. ليكون في خدمة الله فيما يريد النبي أن يدعو إليه وأن يثيره في أفكار الناس ليقرّبهم إلى الحياة من خلال قربهم إلى الله، في عملية إنذار بالعقاب، وبشارة بالثواب»[٢].

لقد انطلق الشاعر، من سيرة الرسول، الذي عده رمزاً للأحرار ليستوحي واقع الأمة وآفاق تطلعاتها، وليطل على الجيل الذي أراده قوياً، يلهب ساحات الصراع.

١ ـ النبي رمز الحرية:

إذا كان لنا في رسول الله أسوة حسنة، فما الأسوة التي رآها الشاعر في اتخاذ الرسول رمزاً للحرية؟ وما الدعوات التي أطلقها ليبدع حياةً عزيزةً يسودها العدل والسلام والرخاء؟.

يقول:

«يا نبيّ الأحرارِ... حرِّرْ ندائي من حياةٍ... مخنوقَةِ الأصداءِ
وازرعِ النُّورَ في دمِي... إنَّ نجواي... حروفٌ مغمُوسةٌ بدمائي

(١) محمد حسين فضل الله، الندوة، ج٢، ص ٧٠، دار الملاك ط١.
(٢) مقابلة أجريتها مع الشاعر، بتاريخ ١/١/١٩٩٧.

مُدَّني بالحياة... تبدِعْ ميلادَكَ... فجراً مُعطَّر الأجواءِ»[١]

(وزن الخفيف)

إن النبي محمد(ص) يتخذ من خلال إضافة المنادى: «نبي» الأحرار هوية الرمز. وهذا البعد يوحي أن النداء الذي يطلقه الشاعر، يمهد لجملة من القضايا التي يعيشها في حياته وواقعه، فهو لا يقوى على الكلام والمناداة في ظل حياة مثقلة بقيود التعسف والظلم والاستبداد، وخنق الأصوات الثائرة. وهو يأمل من رسول الله(ص) أن يزرع نور الإيمان، والهدى والتقوى في دمه، ليصبح هذا الدم مداداً للعطر والعطاء، ويأتي فعل الأمر (حرر) والمتعدي إلى المفعول به (ندائي) ليمنح النداء هوية الإنسان المقيد، ومِمَّ يحرره؟ من (حياة مخنوقة الأصداء) فالحرية تجعل الإنسان يتنفس الهواء الطلق، بينما الأسر يضيق الفضاء ويخنق (الأصداء) فتتخذ الأصداء بعد الأسرى الذين لا يقوون على الصراخ والكلام.

ويعطف الشاعر فعل الأمر (ازرع) على الفعل (حرر) ليتماهيا في دلالة تحمل بعد التغيير فالتحرير يعقبه العمل/ الزراعة وما يزرع؟ إن المفعول به (النور) قد اتخذ الهوية النباتية التي لا بد لها من حقل تتلقى فيه مقومات الحياة، ويأتي الجار والمجرور (في دمي) ليوحيا بدلالة الحقل حيث الزرع والري والإخصاب.

ويبدأ البيت الثالث بفعل الأمر (مدّني) الموحي بالحاجة إلى المساعدة، وإلامَ يحتاج الشاعر؟ إن الجار والمجرور (بالحياة) يشكلان دلالة الحاجة، فحياة الشاعر قبل ولادة الرسول (مخنوقة الأصداء) وهي من أثر

(١) محمد حسين فضل الله، قصائد للإسلام والحياة، ص ٤٦.

الولادة (حية) (تبدع) ميلاد النبي(ص) والفعل المضارع يوحي بخلق ما لم يكن موجوداً، فالإبداع لله تعالى.

وماذا تبدع الحياة التي أمد الرسول الشاعر بها؟ يأتي الحال (فجراً) وهو دلالة النور بعد الظلام، والحرية بعد الاستعباد والقيد، والحياة بعد الموت، والأمل بعد اليأس. فالفجر ليس فجراً عادياً إنه (معطر الأجواء) فلحظاته الأولى تَفَتُّحٌ للأزاهير، والورد وبراعم الأغصان المعطرة لأجواء الفجر والصباح. ولهذا إن النبي رمز الحرية الذي لا بد أن يبقى هادياً للزمن.

٢ ـ حرية الإسلام:

حاول الشاعر أن يوضح صورة العدو الداعي إلى الجهل، والغي والضلال/ مقابل النور المتمثّل بنهج الرسول، وتحرير الإسلام للنداءات المخنوقة الأصداء وذلك بالمقارنة بين واقع العدو ونداء الرسالة، يقول الشاعر:

«وعلى مفرقِ الطَّريقِ... عوَى البغيُ... بأعراق أُمّةٍ عمياءِ
يستثيرُ الظَّلامَ والحِقْدَ... والشرَّ... ليطويَ بها لهيبَ النداءِ
غيرَ أنَّ النِّداءَ... ما زالَ راعِداً... وما زالَ صارخاً بالدُّعاءِ
أيُّها الجاهِلون... عودُوا إلى النُّورِ... فهذي طلائعُ الأضواءِ
حرِّروا رأيكم... يحرِّرْكُم الإسلامُ... من جاهليةٍ جوفاءِ»(١)

(وزن الخفيف)

يستهل الشاعر أبياته بدلالة مكانية (وعلى مفرق الطريق) والمفرق يوحي بتقاطع الطرق، فإذا سارت الأمة في غير طريق الرسول والإسلام فماذا

---

(١) محمد حسين فضل الله، قصائد للإسلام والحياة، ص ٤٦.

يحصل؟ يأتي الفعل (عوى) وفاعله (البغي) ليتّخذ الظلم/ البغي من خلاله هوية الذئب المفترس، وأين (عوى البغي) (بأعراق أمة) إن حرف الجر (بـ) يفيد الإلصاق فإذا ما زرع الرسول النور في دم الشاعر، فإن (البغي) عوى (بأعراق أمة عمياء) وفي الصفة عمياء هوية الإنسان فاقد البصر فطريق الرسول/ نور، وطريق البغي/ ظلام، وأما الفعل المضارع (يستثير) فهو يوحي بتحريك النوازع، وإثارة الغرائز، والبغي (يستثير) (الظلام والحقد) فالمفعول به (الظلام) قد خرج عن هويته الأساسية، ليتخذ هوية الإنسان الأعمى و(الحقد) يوحي بالكراهية الشديدة و(يستثير) (الشر) بما يدل عليه من فساد. فـ(البغي) الذئب/ ظالم. همه إثارة الفتن والشرور لماذا؟ (ليطوي) فلام التعليل تبين السبب، (بها) أي (الظلام والحقد والشر) (لهيب النداء) الذي حرره الرسول. فالنداء يتخذ بالإضافة هوية الشعلة المضرمة، ويأتي الاستثناء (غير أن النداء) (ما زال راعداً) وهي صيغة مبالغة فالرعد يدوي في السماء بقوة تفيد الشدة و(ما هو) الدعاء؟ (أيها الجاهلون) والجاهل هو من لا يضع الأشياء في مواضعها.

(عودوا إلى النور) إن فعل الأمر (عودوا) دلالته طلب الرجوع، فإلى أين؟ (إلى النور) الذي يمثله الرسول/ الرمز **﴿واتبعوا النور الذي أنزل معه﴾**[1].

ويستأنف الشاعر (فهذي) فـ/ اسم الإشارة دلالة مكانية خبره (طلائع الأضواء) بما توحيه الطليعة لمن يأتي في المقدمة (فالأضواء) صارت مواكب تقود الركب إلى النور والخلاص.

إن الدعاء ما زال يصرخ (حرّروا رأيكم) وفي تعدية الفعل (حرروا)

---

(١) سورة الأعراف، ٧/ ١٥٧.

للرأي، خروج بالرأي عن دلالته إلى هوية المأسور المقيد التابع، وتقييد الرأي والفكر دلالة التبعية. (يحرركم الإسلام) فالإسلام لم يعد ديناً، إنما منقذاً ومخلصاً يحرر الناس (من جاهلية جوفاء) وهي صفة تخرج الجاهلية إلى فراغ الحياة كلها.

ومن المحرر؟ إنه المسلم الأعظم، رسول الله الذي يبدد عتمات الظلام، فإذا ما (عوى البغي) تحرّك الشيطان ليخوف أولياء الله والناس، وليقود الركب إلى الظلم والقهر والاستبداد فـ(البغي) ليس بغياً عادياً، إنه بغي الكفر مقابل الإيمان الذي جاء به الرسول، وإذا ما كان البغي (يستثير الظلام) ليخرج الناس من النور إلى الظلمات، وليملأ قلوبهم بالأحقاد والشرور، ساعياً إلى خنقِ النداء الإلهي، وإطفاء جذوته، فإن نداء الرسالة (ما زال راعداً) (صارخاً بالدعاء) ﴿**يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلّا أن يتم نوره ولو كره الكافرون**﴾[1] فظلام الكفر يقابله نور الإيمان ويبقى نداء الداعي الرسالي (عودوا إلى النور) ﴿**قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً**﴾[2] والتماس النور وتحقيقه سبيل إلى الحرية الفكرية العقلية (حرِّروا رأيكم) وصولاً إلى العدالة والحق (يحرركم الإسلام) ممثلاً برسوله، وممَ يحررهم؟ (من جاهلية جوفاء) تمثلها سلطة المستعمر والبغي.

٣ ـ الأمة الأسيرة:

لا يكتفي الشاعر بذلك، بل يحاول أن يحيط بكل سلبيات الواقع، فإذا ما استفاق التاريخ على النّداء الرعاد الذي غيّر معالم الصحراء وأناسها، نسيت الدنيا ومن فيها تلك الانجازات العظيمة، لتعيش سرايا الرسول أسيرة

---

(١) سورة التوبة، ٩/ ٣٢.

(٢) سورة الحديد، ٥٧/١٣.

في قبضة الأعداء، وهي لا حول لها ولا قوة، لأنها ابتعدت عن قيم رسالتها وحركية نبيها:

«يا نبيَّ الأحرارِ... هذي سراياكَ... أسارَى في قبضةِ الأعداءِ
خدعُوها باسم (الحمايةِ) وامتدَّتْ يدٌ بالسلاسلِ الصَّمّاءِ
ترهقُ الشَّعْبَ بالقيودِ وتهوي بسياطِ اللّظى على الضُّعفاءِ»[١]

(وزن الخفيف)

إن التنازع بين الحقلين الدلاليّين/ الحرية/ الأسر، يظهر صورة الأمة الضعيفة حيث يطل الشاعر في هذا النص على (طلائع الأضواء) وسرايا الرسول (نبي الأحرار) وفي إضافة النبي إلى الأحرار يتخذ النبي هوية الرمز (هذي سراياك) بما توحي السرايا من جموع وأتباع. فالخبر (أسارى) يوحي بضعف الأمة ووهنها، وعدم قدرتها على التحرك وأين؟ (في قبضة الأعداء)/ السجن والأسر.

ويأتي الفعل الماضي (خدعوها) والمتعدي إلى ضمير (ـه) العائد للسرايا، ليفيد دلالة المكر التي اتبعها الأعداء (باسم الحماية) بما فيها من دلالات الدفاع والحفظ والصون. و(امتدت) هذا الفعل يوحي بالتوسع والسيطرة والشمول، فما الذي امتد؟ (يد بالسلاسل الصماء) فالفاعل (يد) يتخذ هوية القوة الغلبة «يد الله فوق أيديهم» وبم غلب الأعداء الأمة؟ إن الجار والمجرور «بالسلاسل» يتخذ هوية الوسيلة والأداء لممارسة الحماية/ القهر، وما توحيه من ظلم، وتعسف، وتأتي الصفة (الصماء) لتمنح اليد هوية الصخر، أو أشد قسوة، فلا رحمة ولين ورأفة. فالفعل المضارع (ترهق)

(١) محمد حسين فضل الله، قصائد للإسلام والحياة، ص ٤٩.

يعطي يد الحماية هوية الظالمين المستبدين، وقد عداه الشاعر إلى (الشعب) السرايا (بالقيود) والقيد حاجز يشلّ الحركة. وتأتي (واو العطف) ليشارك الفعل (تهوي) دلالة الفعل (ترهق) تعسفاً وقهراً، ولتتخذ يد الحماية أيضاً هوية الجلاد.

إن المضاف إليه (اللظى) يمنح السياط بُعْدَ النار الملتهبة والهاوية (على الضعفاء) والضعيف من لا حول له ولا قوة.

إن أمة الشاعر هي واحدة من الأمم التي خدعت بمن أرادوا حمايتها والدفاع عنها، فإذا بالشعب الذي أراده الله ورسوله خير الأمم يُرهقُ (بالقيود) ويثقل كاهله بسياط اللظى الظالمة.

وإذا ما حقق الشعب والأمة ما يصبوان إليه، من تحرر واستقلال، عادت اليد الغريبة لتعيث في الأرض فساداً، ولتذكي نار الشحناء، والحقد والعداوة من جديد، تاركة الأمة تعيش نشوة الانتصار الزائف، والكلام الذي لا يسمن ولا يغني من جوع، والأسر تحت عروش الحكام والزعماء الطواغيت، يقول السيد الشاعر:

«ثُمَّ عادَتْ... باسمِ التحرُّر... تدعونا... لأحضَانِهَا... وراءَ غَطاءِ
وربِحْنا استقلالَنا... وملأنا الأفْقَ بالشِّعرِ... والهوى والغِناءِ
وتوارَى الدَّخيلُ خلفَ سِتارٍ مِنْ نفَاقِ الحكَّامِ والزُّعماءِ»[١]

(وزن الخفيف)

إن الفعل (عادت) دلالة على رجوع (يد الحماية) تحت عنوان آخر، (باسم التحرر) بما في التحرر من استقلال، وانطلاق. فالفعل المضارع

---

(١) محمد حسين فضل الله، قصائد للإسلام والحياة، ص ٤٩.

(تدعونا) يوحي أن هناك داعٍ/ ومدعو، فمن اتخذ هوية الحامي صار داعياً، وأما الشعب المرهق فقد تحرر من القيود والسياط، وها هو يلبي دعوة (يد التحرر) (لأحضانها) والحضن هو المكان المليء بالعاطفة والحنان، لكنَّ لأحضان يد الحماية مكاناً فأين هو؟ (وراء غطاء) وهو ما يوحي بنوايا الأعداء المستترة والساعية إلى مبدأ الفرقة والسيادة، على مقدرات الأُمّة.

ويأتي الفعل (ملأنا) والمتعدي إلى (الأفق) ليمنح الأفق هوية الوعاء أو البحر، وبمَ ملأناه؟ (بالشعر) وهو دلالة إنشاد الكلام، وقول ما لا يفعل **﴿والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم في كل وادٍ يهيمون، وأنهم يقولون ما لا يفعلون﴾**[(١)] ويعطف الشاعر على (الشعر) (الهوى) و(الغناء) وهما يصاحبان الشعر، وتتكامل إيحاءاتهما مع دلالته حيث اللهو ومتاع الدنيا، وهو ما يريده المستعمر من الأمة لتنسى قضاياها المصيرية. وأما الفعل (توارى) فهو يوحي بالاستتار والإختفاء، وحجب الشخص نفسه عن الآخرين، فمن الذي توارى؟ إنه الدخيل/ المستعمر، بما يمثل من حماية ودعوة تحرر (خلف ستار) و(وراء غطاء) (من نفاق الحكام والزعماء) والنفاق هو قول الزور والبهتان، وهو ما يدل على تسلط الدخيل باسم الطغاة الحاكمين الذين تحوّلوا إلى أداة لخدمة الأهداف الاستعمارية.

إن واقع الاستقلال الذي ينتقده الشاعر، ليس إلّا تنصيب أدوات (الحماية الغربية) الطامعة بالأمة والوطن، لحكام وزعماء يتلقون الأوامر بطريقة مباشرة من الدخلاء، الذين حوّلوا الأمة إلى أمم، والشعب إلى شعوب، والوطن إلى أوطان، وهو ما يثير الألم والشقاء في نفس الشاعر، لأن الدخيل (الشيطان) استطاع أن يحقق رغباته، ويشرذم الواقع، ويحيل

---

(١) سورة الشعراء، ٢٦/ ٢٢٥ و٢٢٦.

الحياة ظلاماً دامساً، وتسلطاً لا يعرف الرأفة والرحمة، واستعباداً لا سبيل إلى الحرية بعده، مبعداً الأمة عن رسولها ونهجه.

ويبقى للأمة أن تتخذ من رسولها رمزاً للحرية، ولحظة لاسترداد الأنفاس، لأن الواقع المتردي الذي وصلت إليه بعيد كل البعد عن عظمة الرسالة وحركيتها، ومقاومتها للواقع المشين، أو تفاعلها معه.

٤ ـ نظرة الأمة لرسولها:

إذا ما كان رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم، وإذا ما انطلق الرسول ليأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويحل الطيّبات ويحرّم الخبائث، ويضع الإصر والأغلال عن أمته، كان حقاً على هذه الأمة أن تتبعه، عملاً وسلوكاً في واقعها، حتى تنال ما ناله من آمن بالرسول وعزره واتبعه ﴿**فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه، أولئك هم المفلحون**﴾[١] ففلاح الشاعر وأمته يحصل من خلال العودة إلى تاريخ الرسالة المجيدة وهداها السمح، يقول الشاعر: (على وزن الخفيف)

«غيْرَ أنَّا هنا... وقدْ ألهَبَ الفجرُ أناشيدَنا... بوحيٍ مُضَاءِ
ورأيناكَ... في الذُّرى... تصرعُ الظُّلْمَ... بسوطِ العقيدةِ الشمَّاءِ
ولمسناكَ والفتوحاتُ في كفَّيْكَ... تأبى طبيعةَ الخُيَلاءِ
في سَمَاحٍ... لا يبتغي النَّصْرَ إلاّ لتبيدَ الحياةُ... ركبَ الفَناءِ
سوفَ نجري على خُطاك بروحٍ تتلّظى على نشيدِ الإباءِ
ونعيدُ التاريخَ... يستصرِخُ الأنصارَ في روعةِ الضُّحى الوضَّاءِ»[٢]

(١) سورة الأعراف، ٧/ ١٥٧.
(٢) محمد حسين فضل الله، قصائد للإسلام والحياة، ص ٥٠.

يهيمن على النص حقل دلالي يوحي بالنصر والغلبة، فالأفعال (ألهب، تصرع، تأبى. لتبيد، تتلظى، يستصرخ) تحمل دلالة القوة والعزم، وقد أسندها الشاعر إلى (الفجر، الظلم، طبيعة الخيلاء، الحياة، بروح، التاريخ) لتتخذ هويات جديدة فما هي؟

إن الفعل (ألهب) يخرج (الفجر) عن هويته الكونيّة، ليمنحه دلالة كونية أخرى، وهي الشمس أو النار، ويأتي المفعول به (أناشيدنا) ليتخذ هوية الخشب المُشْتَعلِ وبمَ ألهب الفجر أناشيدنا؟ (بوحي مضاء) إن حرف الجر (الباء) يفيد التعليل، وتأتي الصفة مضاء ليتخذ الوحي بعد النور/ الهدى، الذي يقود الأمة إلى الصراط المحق المستقيم. ونطل على البيت الثاني (ورأيناك) فالفعل (رأى) قد يكون بالقلب أو النظر، أين؟ (في الذرى) بما توحيه من علو وسمو، فالذرى هي القمم العالية، فالرسول ليس وراء ستار أو غطاء، إنه أمام أمته وأنصاره، كيف رأيناك؟ (تصرع الظلم) إن الفعل (تصرع) يوحي بالقتل، فهل الرسول مأمور بالقتل؟ إنه القتال/ الجهاد، ويأتي المفعول به (الظلم) ليتخذ هوية القتيل المصروع. والظلم مما اعتاد عليه أولياء الشيطان ﴿**فقاتلوا أولياءَ الشَّيطان إنَّ كيدَ الشَّيْطانِ كانَ ضعيفاً**﴾[1] فهم يعيثون فساداً في الأرض. وبمَ يصرع الرسول (الظلم/ الفساد)؟ ليس (بسياط اللظى) بل (بسوط العقيدة الشماء) لقد اتخذت العقيدة من السوط هوية جديدة وهي السلاح ونور اليقين. وأما الصفة (الشماء) فهي توحي بعظمة العقيدة الرسالية ورفعتها. ويتخذ الفعل (لمسناك) بعد الرؤية الروحية القلبية وعلى أي حال؟ و(الفتوحات في كفيك) والفتح دليل النصر (في كفيك) بما توحي الكفان من دلالة مكانية لحمل سيف القتال وراية الفتح. يتابع الشاعر

---

(١) سورة النساء، ٤/ ٧٦.

فيقول: «تأبى طبيعة الخيلاء» فالفعل المضارع (تأبى) يوحي بالرفض وقد تعدى إلى (طبيعة الخيلاء) وهي دلالة الغرور بالنصر والفتح والجهاد. فالدخيل صورة الإدعاء والتكبر والتسلط/ والرسول الحرية والتواضع والنصر.

إن (في سماح) دلالة على ما يتمتع الفاتح به من شيم وخلق عظيم، أبى عليه الكبرياء، ولله ﴿الكبرياء في السماوات والأرض﴾[1] هو لا يبتغي النصر) من أجل الهيمنة والتسلط بل (لتبيد الحياة ركب الفناء) لقد خرجت الحياة عن نسقها الموضوعي واتخذت هوية الريح الصرصر من الفعل (لتبيد) المتعدي إلى (ركب الفناء) فالفناء لم يعد فناءاً عادياً إنه قافلة أبادتها ريح الحياة التي ستعيد الحرية والحق والعدل للأمة المقهورة.

ويتخذ الرسول دلالة الرمز/ القوة فيؤكد الشاعر قائلاً: «سوف نجري على خطاك» والفعل نجري يوحي، بالسرعة والحث على الحركة والانطلاق. (بروح تتلظى) فالفعل (تتلظى) يمنح الروح هوية الجذوة، وكأن الجري سبب حرارة شديدة (على نشيد الإباء) فالنشيد لم يبق على هويته، وإنما صار تنوراً أو موقداً، وقد أضافه الشاعر إلى (الإباء) ليكون (سوط العقيدة) وفتوحاتها وسماحها، بما يوحيه الإباء من أَنفة وشموخ. وينهي الشاعر أبياته (ونعيد التاريخ) والفعل المضارع (نعيد) متعد إلى (التاريخ)، وعودة التاريخ تعني الرجوع إلى الماضي. وهو ما في الوحي المضاء، ومصرع الظلم، وفتوحات النصر وإبادة ركب الفناء، ويأتي الفعل (يستصرخ) ليخرج (التاريح) إلى هوية (المنذر/ المستغيث) أنصاره ومتى؟ (في روعة الضحى الوضاء) (فالضحى الوضاء) هوية الدين الحنيف، الذي جاء به النبي الأعظم(ص).

---

(١) سورة الجاثية، ٤٥/ ٣٧.

إن الواقع الذي هيمن على الأمة هو واقع الذل، والهوان والسقوط في مهاوي الضياع، وواقع الظلم الذي ساد الأرض، وإذا ما كان الله يريد العزة لرسوله وللمؤمنين، ﴿**ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين**﴾[١] ويأبى الذل لهم أو الظلم، ﴿**ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار**﴾[٢] ومن يحمل الذل والظلم فقد خاب سعيه وعمله، وخسر دنياه وآخرته ﴿**وعنت الوجوه للحي القيوم وقد خاب من حمل ظلماً**﴾[٣] فإنه ووسط هذه الأجواء يستوحي الشاعر تاريخ الرسول الأعظم و(قد ألهب الفجر أناشيده) وبم ألهبه؟ إن الوحي المضاء هو إطلالة الرسول النبي القدوة الأسوة، بكل صور العظمة (يصرع الظلم) بهدي الحق والعدل، حاملاً (الفتوحات في كفيه) ومن خلال نفس (تأبى طبيعة الخيلاء) شرعها السّماح والعفو، فإذا بالشاعر الذي قرأ واقع الرسول وعصره، وواقع أمته وعصرها، يجري على خطى النبي الأعظم، متذكراً أنصاره الخلص، الذين آزروه ونصروه وعزروه وثبتوا معهم فنالهم فضل الله وحسن عاقبته، لأن طاعته طاعة لله تعالى ﴿**ومن يطع الرسول فقد أطاع الله**﴾[٤].

إن النصوص التي استوحاها الشاعر من سيرة الرسول العظيمة، جعلته يرفض أي واقع يريد أن يخنق فيه شعلة الإباء مما دعاه للاحتفال بالرسول كونه يمثل الإنسان الكامل، والقرآن المتحرك «لِيعِشْ رسول الله على أرض الواقع في عقولنا عقلاً إنسانياً منفتحاً على الحق، وليعش في قلوبنا عاطفة إنسانية تتحرّك في الخط العاطفي على أساس الحق، وليعش رسول الله في

(١) سورة المنافقون، ٦٣/ ٨.
(٢) سورة هود، ١١/ ١١٣.
(٣) سورة طه، ٢٠/ ١١١.
(٤) سورة النساء، ٤/ ٨٠.

حياتنا حركة للدعوة إلى الله، وللجهاد في سبيله... وليكن كل واحد منا رسول الله(ص) ولو بنسبة الواحد إلى الألف، وليكن فينا شيء من أخلاقه، ومن تقواه، ومن روحانيته، ومن حركته، ومن بطولته في سبيل الله، فذلك هو معنى المولد ومعنى الاحتفال بالمولد»(١).

٥ ـ معارك الرسول وأثرها في واقع الأمة:

لقد عاشت أمة الشاعر الحرب نصراً وهزيمة في واقعها، وقد كان لمعارك الرسول حضور بارز لتغيير مسار الهزيمة النفسية والمادية، ولاستلهام النصر والغلبة. وهو ما فجّر في ذات الشاعر شوقاً إلى لحظات العز، والكبرياء زمن الرسول، لتتخذ معركة «بدر»/ النصر و«أُحد»/ الهزيمة، بعداً في عصر الشاعر المليء بالحروب، والوقائع والانتصارات والهزائم، يقول الشاعر مستوحياً واقعة «بدر» وقيادة الرسول أمته إلى النصر:

«قِيْلَ بدرٌ: ولا يزالُ لدى التّاريخِ منْها مواسمٌ وعُطورُ
يجتليها غدُ الكِفَاحِ بروحٍ يزدهيها ـ بوحيهِ ـ التَّكبيرُ
ويثيرُ السُّمارَ في سَمَرِ الأبطالِ مِنْها مواقفٌ وصقورُ
ويمدُّ الحياةَ ـ بالصُّوَرِ الحسناءِ فيها، التَّمْثيلُ والتَّصويرُ»(٢)

(وزن الخفيف)

تطالعنا هيمنة للأفعال المضارعة في هذه الأبيات، موحية بالوصف البارز لواقعة «بدر» وإيحاءاتها ودلالاتها، فتجعل زمن الشاعر وأمته امتداداً لزمن الرسالة وأحداثها.

(١) محمد حسين فضل الله، الندوة، ج٢، ص ٦٦، دار الملاك، ط١.
(٢) محمد حسين فضل الله، يا ظلال الإسلام، ص ١٣٦.

يبدأ الشاعر أبياته بجملة خبرية (قيل بدر) والفعل (قيل) صيغة مجهول تتركنا نعيشُ جهل القائل والمحدِّث عن واقعة (بدر)، (ولا يزال) فعل مضارع ناقص دال على البقاء والاستمرار أين؟ (لدى التاريخ) فالظرف (لدى) يمنح (التاريخ) هوية الحافظ لأحداث معركة بدر، فجهل القائل جعل التاريخ ينقل لنا ما حصل؟ وما بقي؟ فلا يزال (مواسم وعطور) والمواسم دلالة على أزمنة الحصاد، والجنى، والخير «فبدر» تتخذ هوية الحقل الخصب، والعطاء الوافر، والزرع الموسمي الذي لا نهاية له، فإذا ما عدنا إلى «بدر» جنينا ما شئنا من (مواسمها) وتنشقنا (عطورها) والعطور توحي بكثرة الأزهار والورد، وهو ما يمنح أرض بدر هوية الحقول والجنائن، المليئة بمواسم البطولات وعطور النصر ﴿**ولقد نصركم الله ببدر**﴾[1].

يؤكد الشاعر هذا الإيحاء، فيأتي بالفعل المضارع (يجتلي) والمتعدي إلى (ها) الضمير العائد لـ(بدر) وما الذي يجتليها؟ إنه (غد الكفاح) لقد خرج الغد عن هويته الزمنية، ليتخذ بعد المستوحي، والمستلهم تاريخ (بدر). ويأتي المضاف إليه (الكفاح) ليمنح الغد دلالة الشجاعة والنضال. وكيف يجتلي غد الكفاح بدراً؟ إن الجار والمجرور (بروح) يؤكدان على هوية الغد الإنسانية التي اتخذها من الفعل (يجتلي) ويطل الفعل (يزدهيها) والمتعدي إلى الروح، لتتخذ هذه الروح هوية الفرح السعيد، وليخرج (التكبير) عن نسقه بوصفه نداء إلى دلالة المفرح والمسعد. مما يجعل الأفعال تشيع مناخ النصر، والقوة في هذا الحقل.

يأتي تركيب (ويثير السمار) فيعطي المواقف والصقور بعداً جديداً، إذ يصبح كل منهما مرشداً ملهماً فالفعل (يثير) يوحي بالتشويق، والغربة، وقد

---

(١) سورة آل عمران، ٣/ ١٢٣.

عداه الشاعر إلى (السمار) ليتخذ المفعول به هوية المعتبر. ومتى تكون الإثارة؟ (في سَمرِ الأبطال) الذين يمثلون القدوة ويتخذون هوية الطيور التي تسود الفضاء.

إنَّ حركيّة الهول قدوة للحياة كُلها وسبيلُ الصّراطِ المستقيم والدعوة «لمصلحة القيمة الإيجابية ضد القيمة السلبية، والنور ضد الظلمة، لأن رسول الله يعيش الحضور الكبير جداً عندما يتحرك معنا في رسالته»(١).

والنصر لا يمثل عند الشاعر نهاية المطاف، فقد تكون للهزيمة دلالاتها في واقع الأمة وتاريخها ماضياً وحاضراً ومستقبلاً، وهو ما استوحاه الشاعر من معركة «أحد» التي كانت هزيمةً، وعظةً، يقول شاعر الرباعيات:

واستراحَتْ للذِّكرياتِ أحاديثُ السَّرايا في نكبَةِ الأوطانِ
هي أُحدٌ زادُ السلوِّ لمَنْ رامَ سُلُّواً في ثورةِ الأحزانِ
نتغنَّى بها إذا ما انهَزمْنا في نشيدٍ مُنَوعِ الألوانِ
لنداوي جُرْحاً ـ ونمسَحَ بالتّاريخِ دمعَ الملوّعِ الحيرانِ(٢)

(وزن الخفيف)

إذا كان الشاعر قد بدأ أبياته السابقة بالفعل (قيل) المجهول، فالملاحظ في مستهل الأبيات أنه أسْنَدَ الفعل (استراحت) إلى (أحاديث) ثم جعله يتعدى إلى الجار والمجرور (للذكريات).

لقد قدم الشاعر (للذكريات) على الفاعل (أحاديث) لإظهار أهمية حال (الذكريات) بما توحيه من عبر، وعظات «إن في ذلك لذكرى لأولي الألباب»

(١) مقابلة أجريتها مع الشاعر، بتاريخ ١/ ١/ ١٩٩٧.
(٢) محمد حسين فضل الله، يا ظلال الإسلام، ص ١٤٠.

وفي إسناد الفعل (استراحت) إلى (أحاديث) اتخذت الأحاديث هوية المرهق المتعب، وأضاف الشاعر (أحاديث) إلى (السرايا).

ويبدأ البيت الثاني بضمير الشأن (هي) للدلالة على أهمية المبتدأ (أحد) واقعة الهزيمة (زاد السلو) فالخبر (زاد) هوية جديدة تتخدها (أحد) وهي دلالة الطعام أثناء السفر في الدنيا، والتقوى للآخرة «وتزودوا فإن خير الزاد التقوى» ولكن (أحد) ليست طعاماً يشبع الجسد، وإنما «زاد السلو» فالمضاف إليه يوحي بالتأسيس لدلالة الزاد الجديدة، ولمن هذا الزاد؟ يجيب الشاعر (لمن رام سلوى في ثورة الأحزان) وفي إضافة الثورة إلى الأحزان نقمة على واقع الذل والهزيمة. ويخاطبنا الشاعر في البيت الثالث (نتغنى بها) والتغني يوحي بالإنشاد الحزين بالواقعة ومتى نتغنى؟ (إذا ما انهزمنا) والفعل انهزمنا يحمل إيحاءات النكبات التي ألمت بأمة الشاعر وكيف؟ (في نشيد) بما يدل عليه من شجو حزين (منوع الألوان) فالنشيد صفته التوزيع الموحي بالتعدُّد، والألوان تحمل دلالات الهزيمة كلها من أحمر قانٍ، إلى أسود فاحم.

ويهتم الشاعر بالفعل المضارع (نداوي) المسبوق بلام التعليل، ليبيّن سبب استلهام هزيمة أحد، فهي ليست الجرح الوحيد في خاصرة الإسلام والأمة، فجراحات الهزيمة أكثر من أن تحصى، و(جرحا) هوية جديدة تتخذها الهزيمة الموجعة المؤلمة المبكية (ونمسح بالتاريخ)/ الهزائم، وهو ما يعطي التاريخ هوية أداة المسح، فهو لم يعد الأم الرؤوم التي تكفكف دمع أطفالها، بينما نحن (نمسح بالتاريخ) بما يوحيه من ذكريات ومواقف ورؤى (دمع الملوع الحيران) والملوّع هو المصاب بالنكبات المتتالية المفجعة المؤلمة. إن الشاعر يريد من الأمة أن تستوحي الرسول في وقائعه ومعاركه التي خاضها، فتستلهم النصر وتتعظ بالهزيمة.

إن موت الرسول لا يعني موت الرسالة، فهي قيم، ومبادىء، وذكر حفظهُ الله تعالى. ﴿إنا نحن نزّلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾[١] ومعارك الرسول قد تمثلها حروب تخوضها الأمة، التي يجب أن يكون لها في رسولها أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر.

٦ ـ أخوة الأنبياء:

عاينت عينا الشاعر، كيفية إطلالة الناس على ميلاد الأنبياء، الذين أرسلهم الله بالبينات والبلاغ المبين، وإن كان الله تعالى لا يفرق بين أحد من رسله، ورسوله والمؤمنون ﴿آمن الرسول بما أنزل إليه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا﴾[٢] فعلى أَتباع الرسل الهداة، أن يعيشوا في واقعهم هذه الروحية العظيمة، ولا سيما السائرين على درب المسيح والهادي البشير ﴿وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد﴾[٣] وهو ما أراده شاعر الرباعيات في واقع حياته، يقول:

«ما بينَ ميلادِ المسيحِ وهجرةِ الهادي البشيرِ
عِشْنا الحياةَ نُمارسُ الأديانَ في الخوفِ الكبيرِ
وكأنَّما عيسَى وأحمدُ يلهوانِ على المصيرِ
الدِّينُ حقٌّ والحياةُ تعيشُ فيه معَ النُّسورِ
ويظلُّ إسلامُ الخُطى للهِ قاعدةَ الأمورِ

(١) سورة الحجرة، ٩/١.
(٢) سورة البقرة، ٢/٢٨٢.
(٣) سورة الصف، ٦/٦١.

ويعيـــشُ أحمـــدُ فـــي هُـــدى عيســـى كبُشْـــرى للـــدُّهِـــورِ
ويفيـــضُ بـــالإنجيـــلِ والقُـــرآن ينبُـــوعُ الصُّـــدورِ»[١]

(وزن مجزوء الكامل)

إن الظرف (بين) يشيع في البيت الأول جواً من المناخ الزمني، الممتد من (ميلاد المسيح) و(هجرة الهادي البشير) ويتخذ الرسول الأعظم(ص) هوية جديدة هي (الهادي) ونسأل ما بين الميلاد والهجرة: كيف عاش أتباع المسيح والهادي؟ «عشنا الحياة نمارس الأديان» فالفعل المضارع (نمارس) يدل على القيام بعمل متواصل ويأتي المفعول به (الأديان) ليوحي بهوية هذه الأعمال، فإذا بها شعائر الله/ الأديان؟ (في الخوف الكبير) مما يشيع جواً من مناخ الرعب، والخشية من تنازع أتباع الأنبياء، وقتالهم وحروبهم، ويتناول الشاعر في البيت الثالث صورة (عيسى) و(أحمد) الأخوين في دين الله، وكأنما (يلهوان) واللهو دلالة اللامبالاة والتخلي عن القضايا الكبرى. وأية قضية تسمو على المصير؟ هذا ما لا يعرف؟!

و(الدين حق) «هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق» فلِمَ ممارسته بخوف؟

يأتي الفعل المضارع (تعيش) ليمنح الحياة دلالة إنسانية فيها معاني الحركة والحيوية. ويظهر حرف الجر (في) مع الضمير (ـه) مكان العيش ومع من؟ (مع النسور) فـ(مع) توحي بالمشاركة، والعزم، فإذا ما انطلق الخائفون المرجفون مع (الدين) لم يعودوا ضعفاء، وصاروا نسوراً تهيمن على الفضاء، وتشمخُ فيه.

(١) محمد حسين فضل الله، قصائد للإسلام والحياة، ص ٢٣٧.

إن المضاف إليه (الخطى) لا يبقي الإسلام على هويته الموضوعية، فقد اكتسب منه دلالة السائرين على صراط الله المستقيم، وإذا ما كان الإسلام دين الله فإن (إسلام الخطى) يوحي بأخوة المقتدين بالأنبياء، ووحدانية مصيرهم، والدعوة إلى الكلمة السواء ﴿**قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواءٍ بيننا وبينكم ألّا نعبد إلّا الله**﴾[(١)].

و(يعيش أحمد) ملة من قبله ﴿**قل إنني هداني ربي إلى صراطٍ مستقيم ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً**﴾[(٢)] و(في هدى عيسى) مما يمنح الهدى بُعْد السكن، حيث المودة والرحمة فـ﴿**ما المسيح ابن مريم إلّا رسول قد خلت من قبله الرسل**﴾[(٣)] ويأتي هذا العيش (كبشرى للدهور) فالكاف حرف جر، يفيد التشبيه، والبشرى دلالة السرور والطمأنينة والارتياح وهي ليست للبشر فحسب، وإنما (للدّهور) بما توحيه من أزمنة ممتدة بين ميلاد المسيح وهجرة الهادي البشير.

(ويفيض بالإنجيل والقرآن ينبوع الصدور) فالفعل (يفيض) أسنده الشاعر إلى (ينبوع) الذي اتخذ بالإضافة هوية جديدة فهو ليس (ينبوع) الطبيعة وإنما (الصدور) وإذا ما كان القلب ينبوع الصدر الذي يضخ الدماء في شتّى أنحاء الجسم، فإن التعدية إلى (الإنجيل والقرآن) قد منحتهما دلالة الماء المحيي، فالينبوع مصدر خير وعطاء، وهو دليل الحياة. وفي القلوب بهدى عيسى وأحمد تَفَجُّرٌ لينابيع الأخوة والمحبة والسماح بوحي الإنجيل والقرآن، مَثَلُ محمَّدٍ والسائرين على نهجه ﴿**ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في**

---

(١) سورة آل عمران، ٣/ ٦٤.
(٢) سورة الأنعام، ٦/ ١٦١.
(٣) سورة المائدة، ٥/ ٧٥.

الإنجيل كزرع أخرج شطأه فازره فاستغلظ فاستوى على سوقه﴾[١] وهل ينمو زرع ويستوي ويستغلظ دون ينبوع يفيضُ بالماء ويمنح الحياة؟

إن الاختلافات التي يعيشها الناس، تركت في نفس الشاعر وروحه الأسى والحزن، فلماذا الخوف في ممارسة شعائر الدين؟ و**﴿لا إكراه في الدين﴾**[٢] ولماذا الافتراء على الأنبياء وهم أخوة ودينهم واحد؟ **﴿سنّة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلاً﴾**[٣]. فالدين حق، وصراط الله المستقيم.

لقد قرأ شاعر الرباعيات السيرة في القرآن الكريم، وفهمها إجابة لحاجات عصره وواقعه وتحدياته، على مستوى التشريع وعلى مستوى الدعوة، لأن رسالة النبي(ص) لا عمر لها، وهو ما يؤكده الشاعر: «إن الماضي عندما يكون رسالة الله فهو ليس ماضياً إنما هو حقيقة، لأن هناك أشياء في التاريخ لا يمكن أن يلغيها التاريخ ولا يمكن أن يحاصرها التاريخ لأنها لم تنطلق من التاريخ وإنما من عمق الحقيقة[٤]» فالحقيقة هي السيرة القرآنية، التي لا لبس فيها، وهي التي لا تزال تتحرّك في شتى مناحي الحياة وقضايا الكون، فالرسول الذي أرسل للناس كافة، لا بد وأن يعيش متطلبات هؤلاء الناس الذين يعيشون الرحمة والهناء والعدل في رحاب الرسول. فالسيرة ضرورة لأنها تقدم لنا براهين حية مجسمة متحرّكة في واقع الحياة، وهي ترجمان القرآن، والمرجعية لمعالجة قضايا الواقع وشؤون العصر.

فعلى هدى الرسول ينساب رضا الشاعر، فيرتقي في آفاق الدنيا، نتيجة

---

(١) سورة الفتح، ٤٨/ ٢٩.
(٢) سورة البقرة، ٢/ ٢٥٦.
(٣) سورة الإسراء، ١٧/ ٧٧.
(٤) محمد حسين فضل الله، الندوة، ج١، ص ٣٩٣.

هذا الهدى، ملتقياً مع كلّ محبٍّ للنبيّ ومقتدٍ بالأنبياء: (على وزن الرمل)

«يا رسولَ اللهِ حسبي أنّني عبرَ ذكْراكَ أناجي الأنبياءَ
النبيُّونَ هنا في الملتقَى في رسالاتِكَ يحيَونَ الصَّفاءَ
وعلى هديكَ ينسابُ الرِّضا في نجاوانا صباحاً ومساءَ
وها نحنُ على الدَّرْبِ التي عرَّفَتَنا كيف تجتَازُ السَّماءَ
نتملَّاكَ كياناً للهُدَى ملأَ الدُّنيا إنطلاقاً وارتقَاءَ»[١]

ينادي الشاعر الرسول بحرف النداء (يا) مما يوحي بقرب المنادى (رسول الله) ويأتي بما يدل على اقتناعه وتسليمه بما وصل إليه، من خلال (حسبي) وماذا حسبه؟ (أنني عبر ذكراك أناجي الأنبياء) إن الظرف (عبر) له بعد المناسبة وإيحاءاتها، فالشاعر عبر ذكرى الرسول يؤكد على مبدأ التولي، والالتقاء مع كل النبيين. وهو ما يشيعه الفعل (أناجي) فالمناجاة أسلوب دعاء، وجهة الرسول (المنادى) ووحيه (الأنبياء) فـ(النبيون هنا في الملتقى في رسالاتك) تتخذ الرسالات بعداً مكانياً يلتقي النبيون فيه (يحيون الصفاء) فالفعل (يحيون) ينفتح على آفاق الحياة كلها، ومَنْ كالنبيين في الأعمال الصالحة؟ ويأتي المفعول به (الصفاء) ليوحي بالجو المهيمن على (الملتقى) حيث لا يعكره ضغينة أو رشح نزاع.

(وعلى هديك) جار ومجرور يحملان بُعْدَ السنَّة النبوية وصراطها المستقيم ﴿**وهذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله**﴾[٢] (ينساب الرضا) إن الفعل المضارع (ينساب) يمنح (الرضا) هوية الماء/ الينبوع وأين ينساب الرضا؟ (في نجاوانا) وهو ما يجعل النجاوى

---

(١) محمد حسين فضل الله، قصائد للإسلام والحياة، ص ٢٤٧.
(٢) سورة الأنعام، ٦/ ١٥٢.

تصبح أودية، وسهولاً لأن انسياب الماء مكانه الطبيعة وهو لا يتوقف أو ينثني عن المسير، (صباحاً ومساء) فالظروف توحي بالاستمرار، وإذا كان النبيون (يحيون الصفاء) فماذا يحيا الشاعر وأمته؟.

(وهنا نحن على الدرب) قدم الشاعر (إسم الإشارة) هنا محدداً من خلاله ملتقى الأمة/ مقابل ملتقى الأنبياء، وتتخذ (الدرب) من الفعل (عرفتنا) هوية المرشد الدليل وماذا عرَّفَتنا؟ (كيف تجتازُ السماء) إن الفعل (تجتاز) يوحي بالعبور والمرور، وقد عداه الشاعر إلى السماء، ليحلّق في أجواء الطريق إلى الله تعالى، فاجتياز السماء معرفة بطرقها وسُبُلِها وهو ما أرسل النبي لأجله.

وما الرسول المكلّف بأمر السماء، ووحيها إلّا هادٍ لصراط الله، وهذه الدلالة تتخذها (الدرب) التي استلهمها الشاعر والأمة. ويأتي الفعل (نتملاك) يخبر عن حالنا، فأنت رسول الله الرمز والأسوة. وماذا نتملّاك؟ (كياناً للهدى) إن الهدى لم يعد إحساساً بالإيمان، ووحياً من الله، فقد جسده الشاعر وأعطاه حيزاً مكانياً فما هو؟ إن رسول الله(ص) صار (كياناً للهدى) فهو رسالة الله تتحرك على أرضه بإيحاءاته كلها. ولا بد أن تشمل الرسالة الوجود، وهو ما يوحيه الفعل الماضي (ملأ) وفاعله الهدى، والامتلاء دلالة الفيض والشمول، وعدم النقصان، فالرسول مبعوث للناس كلهم بشيراً ونذيراً. وإذا ما كان خاتم الأنبياء فإنَّ هداه (ملأ) الدنيا. وماذا (ملأها)؟ إن التمييز (إنطلاقاً) يبين غموض الفعل (ملأ) بما يوحيه من حرية وهداية و(ارتقاء) وهو دلالة السمو، والعلو والعظمة ومعرفة أسرار السَّماء، ودرب رسالات الأنبياء، وصراط الله المستقيم.

إن الشاعر يتخذ من ذكرى الرسول مناسبة لمناجاة الأنبياء كلهم، مؤمناً

أنهم يحيون صفاء دعوة النبي محمد(ص). ولقد سمع الشاعر وأطاع، فسار على درب الرسول مستمسكاً وهو يعيش حياة الضياع والضلال، يسعى وراء ملذات الحياة وقرارات دنياه، فيقول: (على وزن الخفيف)

«يا رسولَ الحياةِ نضِّرْ قصيدي بنثارٍ من فجرِكَ المنشُودِ
علَّني أستحِثُّ لمحةَ ذِكْراكَ ... لجيلٍ يحيا حياةَ الشَّريدِ
وأغنيِّهِ: كيفَ كنتَ... وكانتْ بسمةُ الفتحِ في فمِ المولودِ
كيفَ كانَ الهُدى يهزُّ عروشَ الظّلمِ... في فتكَةِ الرِّماحِ المِيْدِ»[1]

يبدأ الشاعر أبياته كعادته بواسطة أسلوب النداء (يا رسول الحياة) فمنح الرسول هوية جديدة، إنه (رسول الحياة) بما توحيه الحياة من حيوية ونضارة وبقاء، فالرسول باق ما بقيت الحياة، ويأتي نداء الشاعر (نضر قصيدي) إن الفعل (نضّر) يوحي بالإشراق والاخضرار، وهو ما يقوي هوية الرسول الجديدة، فالحياة دليل على وجود النضارة والزهو، ويتعدى فعل الأمر (نضِّر) إلى (قصيدي) ليتخذ القصيد بُعد الأرض أو السوار. وبمَ يأمل الشاعر أن ينضر القصيد؟ يأتي الجار والمجرور (بنثار) الموحي بخلاصة الذهب. وإذا ما كان الذهب يلمع تحت نور الشمس ويبهر ويضيء، فإن (النثار) يتخذ هوية الشعاع المنير من الإسناد الذي أقامه الشاعر بحرف الجر (من) والاسم المجرور (فجرك) وفي إضافة (ك) الضمير المختصة بالرسول ليس فجراً عادياً إنه (المنشود) ونشدان الشيء يعني الحاجة إليه، والشوق إلى تمثّل لحظاته. فالصفة توحي باللذة/ الرغبة، بالعودة إلى بينات الله ورسوله ﴿**هو الذي ينزل على عبده آيات بيّنات ليخرجكم من الظلمات إلى النور**﴾[2].

---

(١) محمد حسين فضل الله، قصائد للإسلام والحياة، ص ٤١.
(٢) سورة الحديد، ٥٧/ ٩.

يبدأ البيت الثاني بأداة الترجي (علّني)، فماذا يرجو الشاعر؟ يأتي الفعل (استحث) المتعدي إلى (لمحة ذكراك) ليخرج اللمحة عن نسقها الموضوع ويمنحها هوية إنسانية، وهو ما يوحي بالتفاعل بين الشاعر واللمحة والإشارة السريعة. ففي الحث دعوة إلى النشاط وزيادة الجهد وفي إضافة (لمحة) إلى (ذكراك) إشارة إلى سرعة حضور صاحب الذكرى ولمحتها.

ولمن يستحث الشاعر لمحة ذكرى الرسول؟ (لجيل) يعايشه الشاعر، «ويحيا حياة الشريد» حيث تتخذ الحياة بإضافتها إلى «الشريد» بُعْدَ الضياع، والجهل وعدم المعرفة، ويبيّن الشاعر من خلال المفعول المطلق (حياة) نوعية هذه الحياة. ويلاحظ في النصّ وجود اتجاهين متناقضين للحياة: حياة الرسول/ الفجر وحياة الجيل الشريد/ الظلام.

ويأتي الفعل (أغنيه) بما يحمل من دلالات الحث على تمثّل ما في الأغنية والنشيد، فـ(ـه) الضمير عائدة للجيل، وماذا يغني الشاعر جيل أمته؟ يتابع فيقول: «كيف كنت... وكانت بسمة الفتح في فم المولود» إن الفعل الماضي (كنت) يوحي بسيرة الرسول/ الحياة، حيث الفتح يتخذ من البسمة هوية الإنسان السعيد. فأين هو الفتح؟ إنه (في فم المولود) حامل بشارات النصر والفتح، وهو فمُ (المولود) النبي/ رسول الحياة/ وقدوة الأحرار وكأن ولادة النبي كانت إيذاناً بزوال الممالك وهز عروش الطواغيت في الصحراء وجوارها.

(كيف كان الهدى يهز عروش الظلم) لقد أخرج الشاعر (الهدى) عن دلالاته حين أسند إليه الفعل المضارع (يهز) فالاهتزاز يوحي بالتصدع والزلزلة والارتجاج، فالهدى لم يعد كما كان وإنما صار زلزالاً يهز ما على

الأرض، وإذا ما استوحى الشاعر بسمة النصر في فم المولود/ الرسول، والذي جسّد كيان الهدى فإن (عروش الظلم) توحي باستبداد الملوك، والطغاة المهيمنين. وبمَ يهز الهدى عروش الظلم؟ إن الجار والمجرور (في فتكة) يوحي بوسيلة الاهتزاز، فإذا هي (الرماح الميد) وأي إيحاء يسمو على صفة الرماح الميد؟ التي كان لها أبعد الأثر في هز عروش الظالمين، وتقويض أركانها، وإقامة هدى الله وشرعه مكانها. إن جدلية (الحياة/ الولادة) و(الحياة/ الموت) تهيمن على النص، فولادة الرسول(ص) نضارة لما في الكون، ونور هدى، ونصر مؤزر وإبادة للظالم/ وولادة جيل الشاعر، حياة شريد لا يعرف سبيله، وصلاحه.

ويأمل الشاعر من الأجيال بعد عصر الرسول، أن تنشد الحياة كما عاشها النبي الأعظم(ص) حتى لا تكون في واقعها أمة سوء وفساد، وسعي وراء الملذات، ومتاع الحياة الدنيا، وما متاع الحياة الدنيا من الآخرة إلا قليل، يقول الشاعر: (على وزن الخفيف)

«علَّهُ ينشدُ الحياةَ ـ كمَا سِرْتَ ـ . . . طليقَ الخُطى نقيَّ البرودِ
فهو يحيا هنا. . . وراءَ ستارِ اللَّيلِ. . . جرياً ما بينَ خَمْرٍ وغِيْدِ»[1]

يستهل الشاعر بيته الأول بـ(عل) أيضاً ويأتي ضمير (ـه) ليوحي أن الرجاء يختص بالجيل الذي أنشده الشاعر ماضي الرسول الأغر، وقارنه بواقع جيله. إن رجاء الشاعر أن يستحث الجيل ذكرى الماضي الأغر فالفعل المضارع (ينشد) دلالة اللهفة والطلب فإلامَ يتلهف الجيل؟ وما يطلب؟ إن المفعول به (الحياة) يخرج الفعل (ينشد) عن دلالته المادية، ليمنحه بُعداً معنوياً. فحياة الرسول رسالةٌ، ووحيٌ ونهجٌ (كما سرت) فـ(كما) توحي

(١) محمد حسين فضل الله، قصائد للإسلام والحياة، ص ٤١.

بالتشبيه، والفعل الماضي (سرت) يطل على السيرة الفكرية، والعقائدية، الجهادية لرسول الله(ص). وتأتي الحال (طليق) لتضيء إيحاء الحرية على السيرة والمسير. وهو ما نستلهمه من المضاف إليه (الخطى) المادية. فالسير على الخطى دلالة على الامتداد بالنهج، وتمثُّل الصراط السوي، الذي يعد رجاء المؤمنين.

وتواكب الحال (نقياً) ما قبلها، فحرية الحركة وعدم خشية أي شيء دلالة على الطهارة والصفاء، والنقاء ليس نقاءاً عادياً إنه (نقاء البرود).

(فهو يحيا هنا) نستوحي من الفعل يحيا طريقة العيش، وهويتها المكانية، وإسم الإشارة (هنا) كناية عن الأرض والواقع. فكيف يحيا الجيل بعد رسول الله(ص)؟ يتابع الشاعر (وراء ستار الليل) بما يدل على تخلّفٍ وواقعٍ متردٍّ. فالظرف (وراء) يحمل دلالة المنزلة وتحديدها، وهو مضاف إلى (ستار الليل) وإذا بالليل الغطاء، والحجاب يستر الجيل ويخفيه. وستار الليل ظلامٌ وجهل وغبنٌ، وأما الحال (جرياً) فهي توحي بلهفة الجيل وشوقه، لا إلى نشدان الحياة ـ كما رآها الرسول وجسّدها ـ بل التسابق (ما بين خمر وغيد) مما يوحي بتهافت الأجيال على الشهوات، والملذات، ومتاع الدنيا من الخمر والنساء.

هذا الواقع يدفع الشاعر إلى إطلاق الحكم الناتج عن فهمين متناقضين للحياة، مذكراً أن لهو الشباب، وجريه وراء نزواته، خاتمته الهاوية فيقول:

(على وزن الخفيف)

«ليسَ يَـدْرِي أنَّ الشَّبـابَ إذا لـمْ يُلهِـبِ الشَّـوْطَ بـالصِّـراعِ العنيْـدِ
سـوفَ يهـوي إلـى قَـراراتِ دُنْيـاهُ جـريحـاً فـي أُفقـهِ ٱلمحـدُودِ»[1]

(١) محمد حسين فضل الله، قصائد للإسلام والحياة، ص ٤١.

يتخذ (الشوط) من الفعل المضارع (يلهب) هوية الميدان الحربي، حيث تستعر نار القتال والصراع، وأي صراع هذا؟ إنه (العنيد) بما تدل عليه هذه الصفة من ثبات راسخ لا يهتز، ولا يتزحزح. فالشباب يجب أن يفيض بالقوة، والعنفوان والإقدام والشجاعة، وإلّا فما مصيره؟

نستوحي من الفعل المضارع (يهوي)/ صورة السقوط، وقد تعدى (إلى قرارات دنياه) بواسطة الجر، ليتخذ البعد المكاني، والأمكنة السحيقة كالوديان. ومن يهوي إلى الأرض هل يبقى سالماً؟ يطل الحال (جريحاً) ليوحي بما أصاب الشباب الهاوي إلى (قرارات دنياه) بضعف الإرادة ووهنها، وعجز الجيل عن اتخاذ قرار حاسم يمنحه العزة والكرامة، فالذي بين الخمر والغيد (أفقه محدود) وهو ما يجعلنا نستلهم من ضيق الأفق ومحدوديّته دلالة الأسر، والقيد حيث لا جيل (طليق الخطى نقي البرود) ولا هو (يهز عروش الظلم) بل رضوخ للأمر الواقع، وقرارات شيطانية محدودة، تؤدي إلى الضياع، والتخاذل والهزيمة.

فالشباب الذي يريده الشاعر، هو الشباب المليء بالقوة والحيوية، الساعي إلى الحرية، لا شباب الخنوع والشهوات والضعف، ولن يتحقق ذلك إلّا بإنتهاج السيرة النبوية قولاً وعملاً.

خلاصة عامة

لقد استطاع الشاعر أن يقدم شخصية الرسول شخصية توحي بكل مظاهر الروحية، والعظمة والإبداع والإيحاء، كما أرادها القرآن الكريم، الذي لم يقف عند حدود معينة لهذه الشخصية الفريدة النادرة، بل أرادها أن تتحرك في شرايين الحياة، لتنبض وحياً يستوحي الناس منه كيفية العيش، والدعوة، وأساليب ومناهج العلاقات الإنسانيّة والكونيّة. لنفهم كيف نحارب؟ وكيف نسالم؟ وقد أحسن الشاعر في العودة إلى القرآن ليكون شعره مصداقاً للمفاهيم التي أظهرها كتاب الله لشخصية الرسول. ومن أين لنا أن نعرف السيرة التي لا غبار عليها؟ ومن أين نهتدي بتجربة الرسول في واقعنا وعصرنا؟ أليس من القرآن الكريم «لأنّ الله أصدق القائلين، يعرف رسوله بما لا نعرف به رسوله، ولأن الله كان يتابع بالقرآن حركة الرسالة فالقرآن، على ضوء ذلك كتاب الرسالة، وهو كتاب السيرة التي هي رسالة أيضاً»[1].

وهل من يعرف الرسول أكثر ممن خلق الرسول؟ ﴿**ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير**﴾ وهو ما عالجه الشاعر في شتى نصوصه الشعرية، التي قدمت صورة متناسقة لشخصية لها كل الأثر في الحياة والكون: ماضياً وحاضراً ومستقبلاً. «لأنّ أمة يكون محمد رسولها وقائدها ونبيّها هي أمة

(١) محمد حسين فضل الله، الندوة، ج ١، ص ٢٠، دار الملاك، ط ١.

تحمل من المسؤولية على أكتافها الكثير من الأثقال وليست الأمة التي تحاول دائماً أن تعيش الإتكال»[١].

فهل تستوحي الأمة هذه السيرة في واقعها، لتعيش النصر والغلبة والقوة والعنفوان؟ ولتطل على الحياة خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله ورسله حق الإيمان واليقين. فالشاعر السيد يرى في السيرة النبوية تأريخاً مشرقاً، ووحياً إنسانياً، على الأمة أن تستهديه وتقتديه سيرة وسلوكاً وجهاداً. والمقارنة بين قصيدتيه من «وحي الميلاد النبوي» في ديوان «قصائد للإسلام والحياة» و«يا رسول الله» في ديوان «يا ظلال الإسلام» تظهر الجوانب التي ارتكز عليها في فهمه لوحي الرسالة، يقول السيد فضل الله: «أما قصيدة «من وحي الميلاد النبوي» فقد انطلقت في جوّ مليء بالقضايا الحادة، لأنها كانت في العراق، في أقسى ساحات الصراع التي يقودها الإسلام مع خصومه، والتي يقودها ويخوضها الشعب مع حكامه. لهذا كانت المسألة كيف يمكن أن تستوحي من الميلاد النبوي كل القضايا، التي يمكن لك أن تعيشها في واقعك مقارناً بالواقع الذي أطلقه النبي، والذي عاشه وتحرّك فيه؟ لذلك كانت انطلاقة هذه القصيدة من وحي الواقع في إنفتاحنا على ذكرى الميلاد. ولذلك انفتحت على قضايا واقع الأبعاد السياسية، والتحديات الفكرية، حيث أنها كانت تتعرض لكل الكلمات السلبية التي توجّه للإسلام وللدين. فكأنها تعيش حركية التحدي وردّ التحدي في هذا المجال. وأما قصيدة «يا رسول الله» في ديوان «يا ظلال الإسلام» فكانت تجربة ملحمية، أي أن مطوّلة «يا ظلال الإسلام» كانت في وجداني تخطيطاً لملحمة إسلامية. ومن الطبيعي أن الشعر الملحمي ينطلق

---

(١) محمد حسين فضل الله، الندوة، ج١، ص ٣٩٦، دار الملاك، ط ١.

من التأريخ أكثر مما ينطلق من الواقع»[١].

هل يريد الشاعر تحريك وحي الرسالة ومبادئها في ساحات التحدي والصراع؟ وهل يمكن للأمة والأجيال اللاحقة أن تعيش الرسول قمة في الكمال الإنساني؟ وروحية في سعيها الروحي؟ لأني أعتقد أن الشاعر حاول من خلال شعره توجيه الجيل نحو الإعداد الروحي، مستلهماً روحية العلاقة مع الله تعالى ورسوله الأعظم.

(١) مقابلة أجريتها مع الشاعر، بتاريخ ٢٣/ ٤/ ١٩٩٦.

الفصل الخامس

لغة السيد فضل الله الشعرية
ونموذج عن الإِيقاع الموسيقي

المبحث الأول: لغة السيد فضل الله الشعرية:

تعتبر اللغة أساس الحضارة البشرية، وتمثل الوسيلة الرئيسة التي تتواصل بها الأجيال، وعن طريقها تنتقل الخبرات والمعارف والمنجزات الحضارية بمختلف صورها، وعن طريقها أيضاً لا ينقطع الإنسان عن الحياة بموته، ذلك أن اللغة تعينه على الإمتداد تاريخياً ليُسهم في تشكيل فكر وثقافة وحياة الأجيال التالية.

وإذا ما تعرّض أرسطو قديماً للمجاز في اللغة وخصوصاً العلاقة العامة بين المجاز وأثره في التواصل أو التخاطب، فإن هناك تميزاً بين اللغة المطلقة واللغة الشعرية، حيث تسعى اللغة الشعرية إلى حصول الانحراف وخرق نظام اللغة المعتاد، كما يعبر جان كوهين في كتابه «بنية اللغة الشعرية»[١].

إن الحديث عن اللغة الشعرية يقودنا إلى محاولة فهم ما امتازت به لغة

---

(١) جان كوهين، بنية اللغة الشعرية، ص ٦.

السيد فضل الله الشعرية، فالسيد يرى أنه لا بد في النثر والشعر من مواكبة تطور أساليب التعبير، لكن اللغة الشعريّة تمتاز عن النثر بالموسيقى والانزياح الذي يؤدي إلى هدم اللغة، وإعادة بنائها وبناء عالم جديد ينتج واقعاً جديداً ينتمي إلى عالم الشعر.

«إن الشعر لا بد أن ينطلق من خلال أساليب البلاغة، والفنون التعبيرية التي تتضمن إيحاءات تتجاوز المعنى اللغوي إلى المعنى الشعري»(١) ولهذا لا بد من الحديث عن لغة السيد فضل الله الشعرية ومعجمه الشعري، لا سيما أن الشاعر السيد قد عاش في بيئة النجف الأشرف، حيث تتواصل الحلقات الشعرية بين الموروث القديم منذ العصور الأدبية الأولى، والمُحْدَثِ الجديد الذي يواكب السيد نشأته وخاض غمار تجاربه «فالنجف من أعرق البيئات الثقافية الإسلامية قدماً، ومن أغزرها مادة، علمياً وأدبياً، وأرحبها صدراً في تقبل الجديد المفيد، فكراً وأسلوباً، مادة ومنهجاً، وأوسعها أفقاً في مسايرة التطورات الأدبية في العالم العربي. فهي إلى جانب محافظتها على أصالة الفكر الإسلامي لم تتزمّت فترفض المعاصرة، وإنما أخذت من وسائلها وأسبابها ما رأته الضروري النافع.

من هنا كانت الشخصية النجفية ـ دارساً ومدرساً ـ أعمق وعياً في تفاعلها مع التطورات الفكرية وأرهف حساً في معايشتها لأحداث العصر اجتماعياً وسياسياً»(٢).

أ ـ معجم السيد فضل الله الشعري.

يمثل المعجم الشعري، مادة أساسية في التجربة الشعرية التي تحمل

---

(١) مقابلة أجريتها مع الشاعر، بتاريخ ٢٣/ ٤/ ١٩٩٦.
(٢) د. عبد الهادي الفضلي، مقدمة ديوان يا ظلال الإسلام، ص ٨.

الإيحاء ودلالة الكلمة وهويتها الجديدة، ولا بد أن تسهم قراءات الشاعر وثقافته بإغناء هذه المادة وجعلها مواكبة للتطور الإنساني والحضاري، لاسيما أن هذا التطور يُدْخِلُ اللغة إلى ساحة الصراع من خلال المصطلحات الجديدة إلى لا بد للشاعر من التأثر بها، وفهم دلالاتها وإيحاءاتها لتكون جزءاً من تجربته الشعرية، لا سيما أن الشاعر يجب أن يعيش في قلب الواقع ـ كما ألزم السيد الشاعر نفسه بذلك ـ.

لم يكن معجم السيد فضل الله مقتصراً على كلمات محددة، فقد تنوّع معجمه الروحي، فضم العديد من الكلمات التي تنطوي تحت لواء حقول عديدة، فقد حوى حقل المفردات التي تنتمي إلى عصر النهضة كلمات مثل «تذوي، فؤادي، ظمآن، ضللت، يخفق، يوحي، تبسم، الجحيم، يصهر، الوهم، تاه، الحقول، الصباح، الطهر، النور، الدرب، موحش، الكون، الذبول، الربى، السهول، ظلال، أفق، النجوم، طريق، التفكير، المساء، الليل، يقود، صنعت، النهار، لغتي، اضطرب، الأرض، وحدي، بحيرة، أحبّك، الحياة، الشوق، الضباب».

أما الكلمات التي شغلت حيزاً كبيراً أثناء لحظات المناجاة والدعاء والطمأنينة فكانت «رب، رحماك، إهدني، صراطاً، حيرة، أمراً، غريب، روحي، أحلامي، الآمال، الشعور، الحزن، الألم، يناجيك، ابتهال، نشيد، الدموع، حنان، نداه، دعاء، السبيل، كيف، قلبي، صوفياً، رمزي، الهوى، الهادي، الخطو، العلاء، راج، غفران، عالم، هائم، صفاء، السماء، الإسراء، فمنك، إلهي، هو الله، الله أكبر، الأبرار، هداك، ربّاه، أبكي، أغنّي، آثام، الموت، الحياة، حقيبة، الحقيقة».

وفي حقل النور والضوء تطالعنا ألفاظ مثل «الشعاع، المضيا، الثريا،

شعلة، نورك، الصباح، النجوم، المشع، الفجر، سناء، الضحى، نار، تنوّر، الشمس، النهار، الضياء، مضاء، المشرق، النور، قمراء».

وأما في حقل الماء فنجد الألفاظ مثل «الحياة، المحيط، شراع، عذب، ماج، يموج، لجّة، زورقي، المجداف، الموج، هائج، الضفاف، زورق، الشاطىء، نبع، بحيرة، الينبوع، استحم، الشراب، الندى، ورداً، الغيوم، ماء، شلال».

وتطالعنا في حقل الطبيعة كلمات كثيرة مثل «الليل، نسيم، الحقول، البُلْبُل الصباح، ألوان، النجوم، السهول، الربى، ظلال، الضباب، الغيوم، أفق، الريح، الشمس، المساء، الفضاء، ليلة، يورق، الزنبق، شذا، صفاء، زرقة، بحيرة، الربيع، جنائن، الخضر، الصحراء، السفح، الخصب، الذرى، جنّة، العطور، عبير، القطوف، رمال، واد، الطيور، البوادي، زهرة، الثمار، الورود، البر، الجديبة».

أما الكلمات التي انضوت تحت لواء حقل المجردات فالملاحظ تكرار الشاعر لها مثل «روح، الأوهام، حياة، الهدى، فكرة، الآمال، المنى، الأحلام، الروح، الدرب، طريق، هائم، الأحلام، الأماني، الينبوع، الطهر، الدجى، قلبي، عمري، الهدى، يهوي، الحياة، الصحراء، الضحى، المساء، النداء، الله وحي، نور». وقد فرضت أجواء العلاقة الروحية مع الله والرسول، ولجوء الشاعر إلى أسلوب النداء، وما يستدعي الدعاء، من كلمات تتكرر دائماً بين الداعي المنادي الشاعر/ والمدعو المنادَى الله أو الرسول.

ب ـ التركيب عند السيد فضل الله.

لم يترك الشاعر السيد لغته المعجمية كما هي، ولكنه عمد إلى التركيب

عابثاً به، مما جعله يخرج إلينا بلغة جديدة، كانت خلاصة ما أراده من اللغة.

وسأبحث كيفية التركيب عند الشاعر، لنرى إن كانت تعبّر من خلال دلالاتها الجديدة، عن رؤياه، وعما أراده من إخراج للكلمة من خلال نماذج تتناول أنواعاً مختلفة من التركيب عنده.

١ ـ إسناد الفعل إلى الفاعل:

يقول السيد محمد حسين فضل الله:

«وتموتُ السُّنونُ... تذبلُ كالوردةِ في الحقلِ.. في رِياحِ الخَرِيفِ»(١)

لقد أسند الشاعر الفعل «تموت» إلى الفاعل «السنون» والفعل «تذبل» إلى الفاعل نفسه، فأعطى الفاعل أبعاداً جديدة، فلم تعد السنون زمناً عادياً، إذ أخذ من خلال الفعلين بعداً جديداً ووهجاً خاصاً نقله من معناه المعجمي، وأعطاه خصوصية مغيرة لهويته الحقيقية. من خلال اتخاذه بعد الإنسان المعمّر والوردة. يقول في موضع آخر:

وطافتِ الأوهامُ... في عالِمي وزمجَـرَتْ أشبـاحُهـا الظَّـالمَـة(٢)

أسند الشاعر الفعل «طافت» إلى الفاعل الأوهام، والفعل «زمجرت» إلى «الأشباح» مما أحدث إبدالاً في هوية هذه الأشياء فاتخذت بعد الناس الحجيج الذين يطوفون حول الحرم، أو الفراش الذي يدور حول الضوء، وبعد الوحوش التي تجوب الفلوات باحثةً عن فريستها، فالأوهام جردت الوحوش/ الأشباح لتهيمن على كيان الشاعر. وكل ذلك نتيجة الإسناد الذي

(١) محمد حسين فضل الله، قصائد للإسلام والحياة، ص ٢٥.
(٢) محمد حسين فضل الله، قصائد للإسلام والحياة، ص ٢٨.

أحدث تغييراً وزلزلة في بناء اللغة، ليعيد الشاعر تركيبها وفق دلالات تنتمي إلى عالمه الخاص.

يقول في مكان ثالث: (على وزن الخفيف)

بَعْثَرَتْ خطوهُ الحياةُ فلم يملِكْ طريقاً. . . إلى مجال الخلودِ[1]

أسند الشاعر الفعل «بعثرت» إلى الفاعل «الحياة» مما أحدث هزة في اللغة نتيجة تبدل هوية الحياة التي صارت «ريحاً» تبعثر «الخطو» كالأوراق، وهذا الانتفاء جاء من خارج حقل التوقعات ليبرز شاعرية البيت.

٢ ـ إسناد الخبر إلى المبتدأ.

يقول السيد فضل الله:

كلُّ هذي الهمومِ أطيافُ ماضٍ عبثَتْ فيهِ لوعةُ الكبرياءِ[2]

(وزن الخفيف)

يطالعنا في هذا التركيب إسناد الشاعر الخبر «أطياف» إلى المبتدأ «كل» مما منح الهموم في هذا الإسناد بعداً غير عادي، أخرجها عن نسقها الموضوعي، فلم تعد الهموم مآسِياً وآلاماً يقاسيها الشاعر، بل اتخذت خاصية جديدة، تتراءى للشاعر أينما قلب طرفه ونظر، يقول: (على وزن الخفيف)

وحياتي شِلْوٌ تناهبَهُ الريح وألوى بجانبيه الذبولُ

أسند الشاعر الخبر «شلوٌ» إلى المبتدأ «حياتي» فأحدث فجوة شعرية لدى المتلقي الذي لم يتوقع أن تصير الحياة بكل ما فيها من رؤى وأحلام،

(١) محمد حسين فضل الله، قصائد للإسلام والحياة، ص ٤٣.
(٢) محمد حسين فضل الله، قصائد للإسلام والحياة، ص ١٧.

«شلواً» تناهبه الريح وهو ضعيف هزيل، وبذلك استمدت الحياة من خلال هذا التركيب بعداً إيحائياً وهوية جديدة أخرجَتْها عن كليتها لتخصص لها الهوية «الحيوانية» بما في هذه الهوية من دلالات وأبعاد.

وإذا ما أراد الشاعر الحديث عن عظمة الرسالة، نراه يخاطب الرسول فيقول:

وتمرُّ السنونُ ـ بعدكَ ـ والإسلامُ يخطو على هُداكَ الحبيبِ(١)

(وزن الخفيف)

أسند الشاعر الفعل يخطو (الخبر) إلى المبتدأ «الإسلام» مما جعلنا نرى الإسلام إنساناً يتخذ من الرسول قدوة ومثالاً أعلى، احتذاه، وسار على هداه، وفي هذا الإسناد تخطت اللغة الشعرية اللغة العادية من خلال الإيحاء والدلالات التي أكتسبتها الكلمات بالإسناد الجديد.

٣ ـ إسناد الصفة إلى الموصوف.

يقول السيد الشاعر: (على وزن السَّريع)

فجِئْتُ في صوفيَّةٍ حُرَّةٍ تُمِدُّني بالشُّعلةِ الهاديَة(٢)

أسند الشاعر الصفة «حرة» إلى الموصوف «صوفية» مما يمنح الصوفية الرحابة والاتساع، لتكون لحظة المناجاة لله خالية من قيود النفس وشوائبها خصوصاً حين المثول بين يدي الله. وأسند الصفة «الهادية» إلى الموصوف «الشعلة» مما أكسب الشعلة هوية جديدة أخرجتها عن نسقها الموضوعي كونها ناراً ومنحتها خاصية الهادي الذي يبدد ظلمات الطريق

(١) محمد حسين فضل الله، قصائد للإسلام والحياة، ص ١١.
(٢) محمد حسين فضل الله، قصائد للإسلام والحياة، ص ١٧٨.

ويهدي الركب، ويحدد المعالم.

ويقول في موضع آخر:

أدعُوكَ في شِعْرٍ: يرشُّ النَّدى على رُؤَاهُ الخضرِ... أحلامِيَهْ[١]

(وزن السريع)

يطالعنا في هذا التركيب إسناد الشاعر الصفة «الخضر» إلى الموصوف «رؤى» حيث أحدث هذا الإسناد فجوة بين الصفة والموصوف، فالرؤى لم تعد مجرداً وإنما اتخذت بإسناد الصفة «الخضر» هوية نباتية، مما جعل الشعر حقلاً تتواكب فيه الظلال والندى والأحلام والرؤى.

ويخاطب الشاعر الرسول محمد(ص) قائلاً:

أنتَ روحُ الإسلام... أيُّ سلامٍ لمْ يفِضْ وحيُهُ مِنَ الينبُوعِ
من ربيعِ المشاعرِ البيضِ، في روحِ النبوّاتِ، من جمالِ الرَّبيعِ[٢]

(وزن الخفيف)

أسند الشاعر الصفة «البيض» إلى الموصوف «المشاعر» مما أحدث صورة توحي بالطهر والجمال والروعة، «فالمشاعر» اكتسبت الصفة «البيض» دلالة النقاء والصفاء، فالصفة «البيض» لم تُبقِ «المشاعر» مجرد أحاسيس وإنما أضاءت الموصوف فأبرزت جوانب جديدة لم نكن نتوقعها.

٤ ـ المضاف والمضاف إليه.

اتخذت الكلمات في تراكيب الشاعر أبعاداً دلالية مغايرة للواقع من

(١) محمد حسين فضل الله، قصائد للإسلام والحياة، ص ٢٨.
(٢) محمد حسين فضل الله، قصائد للإسلام والحياة، ص ٢٨.

خلال الإضافة، والعلاقة بين المضاف والمضاف إليه، يقول الشاعر:

ثُمَّ جاءتْ أخرَى... على صهوَةِ العُمْرِ... بزهوٍ مرنَّحٍ مشْغُوفِ(١)

(وزن الخفيف)

منحت إضافة «صهوة» إلى «العمر» الكلمة المعبرة عن مرحلة زمنية يعيشها الإنسان، وهجاً وأبعاداً دلالية مغايرة للواقع من خلال الإضافة، والعلاقة بين المضاف والمضاف إليه، يقول الشاعر:

ضُمَّني في بحيرةِ الحلمِ الورديّ في غفوةِ الرؤى السَّمحاءِ (٢)

لقد اتخذت «البحيرة» بُعداً جديداً من خلال إضافتها إلى «الحلم الوردي» وإضافة «غفوة» إلى «الرؤى» فلم تعد البحيرة مكاناً للترفيه، أو للسباحة، بل اتخذت هوية الأمل والمتلقي بين الله والشاعر، وأما الرؤى فقد اتخذت هوية إنسانية حوّلتها إلى معنى مغاير لمعناها المعجمي.

ويتخذ الليل بُعداً إنسانياً من خلال الإضافة، يقول الشاعر:

إنَّني هُنا تمزِّقُ قَلْبي في خُطى اللَّيلِ وحْشَةُ البَيْداءِ(٣)

أضاف الشاعر «خطى» إلى «الليل» وهذا الإسناد أفرز لغة شعرية، فالليل صار إنساناً، وقد اتخذ هذه الهوية الإنسانية بإسناد الإضافة الذي أقامه الشاعر بين «الخطى» و«الليل». إضافة لإخراج «الوحشة الى بعد حيوانّي مفترس».

٥ ـ التعدية إلى المفعول به.

---

(١) محمد حسين فضل الله، قصائد للإسلام والحياة، ص ١٦٩.
(٢) محمد حسين فضل الله، قصائد للإسلام والحياة، ص ١٨.
(٣) محمد حسين فضل الله، قصائد للإسلام والحياة، ص ١٨.

يقول الشاعر: (على وزن الخفيف)

فمضَــــى يَصْهَــــرُ العـــــذَابَ نشِيــــداً
ويَصُــــوغُ الآهــــاتِ لحْنــــاً شَجيّــــا[(١)]

إتّخذ (العذاب) هوية الحديث من خلال الفعل المضارع (يصهر) واتّخذت (الآهات) بُعْد السّوار من خلال الفعل يصوغ، ليخرج المفعول به عن دلالته الأساسية ويتّخذ بلغة السيّد مفهوماً آخر وهويّة مغايرة لحقيقتِهِ.

المبحث الثاني:

نموذج إيقاعي موسيقي من شعر السيد فضل الله

يغلب على قصائد السيد فضل الله وزن «الخفيف» وإذا ما كان ديوان «قصائد للإسلام والحياة» يتأرجح من حيث الوزن المتعدد، فإن ديوان «يا ظلال الإسلام» وهو رباعيات عدّها الشاعر «مشروع ملحمة إسلامية تتحرك في أجواء الإسلام الروحية والفكرية والعملية»[(٢)] قد نظمت كلها على وزن الخفيف «ويرجع ذلك إلى ما يتمتع به البحر الخفيف من انسياب هادىء في تدفق الألفاظ، وارتباط بعضها بالبعض وقدرة على استيعاب السرد التاريخي، وعلى عرض الصورة الشعرية في إطار الأسلوب اللفظي الخلّاب... وهو أسلوب ينحو في ألفاظه وأخيلته عند «شاعر الظلال» إلى سمة حضارية خالصة»[(٣)].

إن الشاعر يحاول أن ينفي خصوصية هذه الظاهرة فيقول «لا أعتقد أن

---

(١) محمد حسين فضل الله، قصائد للإسلام والحياة، ص ١٨.
(٢) محمد حسين فضل الله، قصائد للإسلام والحياة، ص ١٠.
(٣) د. عبد الهادي الفضلي، مقدمة ديوان يا ظلال الإسلام، الطبعة الثانية ص ١٦.

هناك استغراقاً في وزن معين على مستوى الالتزام بالوزن. ولكن ربما كانت ثقافتي الشعرية في قراءاتي، كان، يغلب عليها مثل وزن الخفيف. وقد كتبت الشعر الحرّ المتنوع التفعيلات، وكتبتُ بعض الأوزان الأخرى»[١].

لذا كان لا بد من عرض نموذج شعري، نتناول من خلاله الإيقاع في شعر السيد فضل الله، لا سيما النماذج التي ترتبط «بالاتجاه الروحي» في هذا الشعر، يقول السيد فضل الله:

(الخفيف)

١ ـ فِي يديْكَ الحَياةُ، ربِّ، فَهَبْ لي في ٱلمَدى أنْ أعيشَ عُمْراً طَوِيْلا
٢ ـ مُطْمئِنــاً بــالحــقِّ يمــلأُ دنيــايَ سَــلاَمــاً منضَّــراً مَــوْصُــولا
٣ ـ قـدْ يعيـشُ الفتَـى طُمـوحَ الجبـالِ الشـمِّ حتـى يُعَـانِـقَ المُسْتحِيـلا
٤ ـ غيْــرَ أنَّ الحيــاةَ تحتضِــنُ الحُلْــمَ ـ كَبِيــراً يستلهِــمُ التَّنــزِيــلا
٥ ـ ويُثِيـرُ الـدُّنيـا علـى ٱلـوَاقِـعِ الحـيِّ لتحيـا الحيـاةَ حُلمَـاً جَمِيـلا[٢]

تحديد الرؤيا من خلال الوزن وجوازاته:

يبنى حلم الحياة بالتأمل في علاقة مع الله. التأمل يستدعي الهدوء، انفعال هادىء. لذا رأينا أن انفعال الشاعر الذي بدأ بالدعاء قد أخرجه من النغمية الأصلية للخفيف، التي يسيطر عليها البطء بنسبة (واحد) قصير إلى (٣) طوال، إلى نسبة مغايرة هي (واحد) قصير إلى (إثنين) طوال تقريباً مما يدلنا على رغبة الانفعال في الظهور، ونلاحظ أن الحركة البطيئة ١٥ كانت

(١) مقابلة أجريتها مع الشاعر بتاريخ ٢٣/٦/١٩٩٦
(٢) محمد حسين فضل الله، قصائد للإسلام والحياة، ص ٢٤٠.

مسيطرة، يقابلها (٨) قصار وهي ما يطرأ على الوزن من جوازات، هذا الاستواء في الانفعال يشير بوضوح أن الشاعر قد دخل بؤرة التأمل الذي يستدعي الهدوء الذهني، والسوية الانفعالية.

إذاً، الرؤيا/ التأملية الهادئة اتخذت شكلاً هادئاً في لحظة دخولها في مجال التأمل.

إن وحدة القصيدة تستدعي وحدة الرؤيا وتماسكها، هذا ما نتج عن تمتع البحر الخفيف من انسياب هادىء في تدفق الألفاظ وارتباط بعضها بالبعض، حيث لا يمكن فصل أبيات القصيدة لأنها ترتبط لفظاً ومعنىً.

إن العودة إلى أبيات القصيدة الخمسة، تبين لنا أن غلبة المشتقات في النص (العيش، طويلاً، مطمئناً، الحق، سلاماً، منضراً، موصول، طموح، المعانقة، المستحيل، احتضان. التنزيل، لحياة، جميل...) يدلنا أنها تتخلى عن الحركة. مما يفسر لنا سيطرة البطء في القصيدة على السرعة. كما أن فعل الأمر لا يرتبط بزمن، كأفعال المضارع الواردة (يملأ، يعيش، تحتضن، يُثير...) والتي أسند الشاعر إليها (دنياي، الفتى، الحلم، الدنيا) وهو ما يوحي باتساع المكان الذي يعادل اللامكان. مما أشاع مناخاً يتماهى مع الرؤيا/ التأمل التي عاشها الشاعر.

رأي أخير

يبقى السؤال: ماذا قدّم هذا البحث، وأضاف إلى المكتبة العربية/ الإسلامية، والقارىء العربي/ المسلم؟

لا أدّعي، أنني أحطت من خلال هذا البحث بشعر المرجع الفقيه السيد محمد حسين فضل الله، وخصوصاً، ما يتعلق بالاتجاه الروحي عنده، ولكنني أستطيع أن أخلصَ إلى بعض النتائج المتعلقة بهذه الدراسة ومنها:

أ ـ الإطلالة على الجانب الآخر في شخصية السيد محمد حسين فضل الله، وهو الجانب الشعري عندهُ، فهو إلى جانب كونه فقيهاً، ومرجعاً دينياً، وعالماً إسلامياً، ومفكراً حركياً على مستوى العمل الإسلامي، شاعرٌ مرهف الحسّ، وشعره «يحافظ على معادلة: (الهدف ـ والفنّ) حيث يتعانق الهدف العظيم والفن الأصيل والصدق الشعوري الذي يعشق الفكرة ويذوب فيها»[١].

ب ـ أثر النص الديني المقدّس/ القرآن، والنبوي/ السيرة في شعر السيد، حيث جاءت نصوصه مستوحاة من النص القرآني، وفهمه لصورة الرسول الأعظم محمد(ص) في القرآن، والسيرة. وهذا الأثر الموروث من خلال البيئة الدينية التي عاش السيد في محيطها، وتأثر بأجوائها ومفرداتها، وواكب أحداثها. . . فالقرآن بالنسبة إليه كتاب المعرفة الأول، وغذاء الروح

(١) د. شلتاغ عبّود، حدائق الشعر الإسلامي المعاصر، ط١، دار الملاك، بيروت ٢٠٠٢، ص ٣٢.

الإسلامية «إن القرآن هو كتاب الحركة الإسلامية، فهو لاحق كل تطورات الدعوة، وكل تطورات التحديات التي كانت تواجه المسلمين في الحرب والسلم، وفي كل نقاط الضعف والقوة في المجتمع الإسلامي، في البيت وفي السوق وفي العائلة، ليدفع بالقرآن إلى أن يتحرّك في شتى مناحي الحياة... في الجانب الاقتصادي والسياسي والاجتماعي والروحي»(١).

ج ـ صورة الإسلام للشعر. هذه الصورة التي لا يزال الكثيرون يثيرون التساؤلات والشكوك والظنون حولها، من أن الإسلام يحارب الشعر ويقف موقفاً سلبياً منه ومن تجاربه المختلفة. حيث استطاع «السيد» أن يقدّم صورة إسلامية مغايرة لما ألِفَهُ الكثيرون في ما يتعلق بموضوع الشعر إسلامياً روحياً، أو غزلياً، أو وجدانياً، أو سياسياً، أو اجتماعياً... فهو لم يدع اتجاهاً شعرياً إلّا وخاض غماره محاولاً أن يبلي به بلاءً حسناً «إن الشعر لا بدّ أن يكون إنساناً (أن نؤنسن الشعر)، أن يعبر عن الإنسان في أحلامه وتطلعاته في آلامه ومشاكله التي يواجهها، فليس للشعر وظيفة، خارج نطاق أن يكون تعبيراً عن الإنسان في كل حركته وأوضاعه، ولا أتصور أن للشعر مهمة تبشيرية بل إنني أفهم أن يكون التبشير نتيجة للشعر لا شيئاً يفرض نفسه على الشعر»(٢).

د ـ إيمان السيد العميق وانطلاقاً من التزامه الإسلامي. إن للروح زاداً وتوجهاً فطرياً إلى بارئها، وهذا الزاد ليس صلاةً وصياماً وزكاةً وحجاً فحسب، إنه الولاء، وقداسة الإيمان، وتقوى المعرفة، والخضوع لجلالِ الخالقِ وعظمته، والرحمة والمحبة، والاعتراف، والابتهال، والمناجاة،

(١) محمد حسين فضل الله، من عرفان القرآن، ط١، ص ٥٢.
(٢) محمد حسين فضل الله، حوارات في الأدب والشعر، ط١، قم، ص ٦٧.

والهُدى، والخشوع، والإقرار بالمشيئة الإلهية، والحيرة والقلق والأمل، والدعاء، والتوسل، والطهارة، والقدسية... فقد نقعُ على كلمةِ «الروح» في معظم قصائد «السيد» وهو ما يشير إلى حالة الصراع النفسي التي كان يعيشها دوماً بين جسدٍ يعيش واقع الأرض، وروح تسعى للمجرد المطلق حيث الكمال، فروح المسلم طليقةٌ، بتول، حُرة، تمتاز بسرٍّ إلهيّ يسمو ويرتقي إلى أنوار الهدى، ومشارق التُقى، وروعة الصلاح... وهو ما ينسجم مع تعاليم الدين الإسلامي الحنيف المرتكزة على تغذية عُنصري الحياة، الجسد/ والروح.

هـ ـ تعبير السيد بشعره ـ ولا سيما الروحي منه ـ عن هموم الجماعة، وقضايا الواقع، فالملاحظ أنه وفي لحظات انفعاله الشعوري، ودعائه وتوسله ومناجاته، كان يعيش الأمة وقضاياها، ومعاناتها، ومشاكلها وهمومها. وهذا ما جعله يرفض الأدب الإسلامي الروحي المجرد والتقريري الانفعالي «إنَّ معنى أن يكون الأدب إسلامياً روحياً، أن تتعامل مع اللفتة واللمسة والإيحاء، ومع كل الكلمات التي تحمل المعنى بطريقة تصل فيها مشاعر الكلمة إلى أعماقك قبل أن تصل إلى آذانك»[١].

و ـ تجربة السيد الشعرية هي تجربة الصورة، وهي عنصر أساس في قيمة التجربة وأصالتها وعمقها. والحق أن مخيلة السيد فضل الله الشعرية مخيلة خصبة ومكثفة، استطاعت استيحاء كل المعاني القرآنية في رسم شخصية الرسول الأعظم(ص)، لتصوغها شعراً. «إذ قلما تجد قصيدة أو مقطعاً من شعره يخلو من التصوير ولكنه ـ في الواقع ـ تصوير جزئي عبر الاستعارة أو التشبيه أو التركيب المعبر عن صورة مستحدثة. ويقل في ديوان

---

(١) محمد حسين فضل الله، حوارات في الأدب والشعر، ط١، قم، ص ٦٧.

السيد التصوير القصصي أو المشهد التركيبي وهو المشهد الذي تُمثله صورة واحدة متنامية، كما يقل في الديوان صوت الحوار أو الاستفادة من الفنون الأخرى[١].

ز ـ اللغة المتميزة الشعرية عند المرجع السيد محمد حسين فضل الله، هذه اللغة الإسلامية الروحية التي استثمر الشاعر الرمز الموضوعي بها، وهو الرمز الذي يستثير التراث بما فيه من طاقات تفجر الوعي لدى الجمهور المسلم، خاصةً الرموز الحية في نفوس المسلمين من مثل رمز محمد/ رسول السلام، والحرية، ونبي الأحرار، رسول الحياة، رسول الخُلق العظيم، وما يقابل ذلك من رموز الشر والحقد من رمز أبي جهل، وأبي لهب، الشيطان، المستعمر الدخيل. . .

ح ـ الهمّ والحركية الإسلامية، حيث بدا السيد مدافعاً عن قضايا أمته، منافحاً عنها، فهو حتى في لحظات عمره الروحية لم يبتعد عن أن يكون في قلب الواقع، مغيراً وثائراً وداعية ومبتهلاً وخاشعاً وحاثاً على الاستفادة من روحية الإسلام، وقيم دعوته، وفضائل شرفه وأخلاقه.

ط ـ إن البيئة الشرقية عامة/ العراقية على وجه الخصوص، والنجفية تحديداً، لم تكن بمنأى عن الأحداث السياسية التي عصفت بالعالم العربي الإسلامي، وقد تصدى الشعراء كل بمنظاره ورؤاه وأيديولوجيته وعقائده وموروثه وما تأثر به ليكون حاضراً على مستوى الحدث. هكذا شهد السيد انطلاقة حركة الحداثة وكان سبَّاقاً إلى المساهمة بها، والمشاركة في رفد تيارها، والاطلالة على ما جاءت به على صعيد الحركة الشعرية.

---

(١) د. شلتاغ عبّود، حدائق الشعر الإسلامي المعاصر، ط١، ص ٣٣، دار الملاك، ٢٠٠٢م.

ي ـ فهم السيد الدين الإسلامي، فهماً مغايراً لما هو سائد في وسطه ومحيطه، هذا الفهم الذي جعله يضج بالحركة والنشاط والحيوية، خصوصاً أنه من الدُعاة إلى الله في اتجاهات حياتِهِ كلها.

ك ـ شعر السيد حلقة متواصلة من شعر سلسلة الشعراء العرب الملتزمين بالإسلام روحاً ومنهجاً، وشعره وإن جاء كلاسيكياً في معظمه إلّا أنه أكد قدرة الموروث على مواكبة متغيرات الحياة.

ل ـ الموسيقى الهادئة الرخية التي امتازت قصائد السيد بها، وهذا الهدوء مُتأتٍ من اللغة الهامسة ومن البحور ذات النبر الرخيّ مثل البحر الخفيف الذي يستأثر بالكثير من قصائد السيد.

وبشكل عام فإن السيد يوفِّق في شعره بين عناصر الكيان الإنساني بشيء من التوازن فلا يطغى العقل على العاطفة، كما لا تطغى العاطفة على العقل بل يؤدي كل مكون من مكونات الذات الإنسانية وظيفته. وهذا يتسق ونظرية الأدب وفق المفهوم الإسلامي، في الوقت الذي تغلو فيه مذاهب الأدب في أوروبا فيتجاوز العقل أو العاطفة أو الشعور أو اللاشعور على غيره من مكونات الوجود الإنساني، مما يجعل التجربة الفنية غير واقعية وغير معبرة عن الكيان الإنساني ذي النسب المتزنة[١].

وفي الختام يمكنني القول ـ ولو من خلال ما بيّنا من مباحث ـ أن السيد وباتجاه قصائده الروحيّ قد أعطى لهدفه العقائدي الإسلامي حقَّه كما أعطى للفن حقّه من العناية والصدق والانفعال، وبهذا يتحقق المطلب المنشود بين الهدف والفن. ليتكاملا في اتجاهٍ روحيٍّ رسمْتُه ريشةُ الشاعر المرجع السيّد محمد حسين فضل الله.

---

(١) د. شلتاغ عبّود، حدائق الشعر الإسلامي المعاصر، ط١، ٣٣، دار الملاك، ٢٠٠٢.

نماذج من قصائد سماحة

السيِّد تُمثِّلُ إتجاهه الروحي في الشعر

«إنَّ الشِّعر يعني لي الإحساس بالحياة بطريقة موسيقيّة في الكلمة والوزن وفي الاستغراق بجمالات الحياة ».

في رحَابِ الروح

يا ظِلال الإسلامِ . . . هل يَلتقي الإيمانُ بالصّدقِ في اهتزازِ الدُّروبِ
هـل تَفيضُ الأرواحُ بـالنّـورِ إنْ عِشْنَـا الـدّيـاجـي على ضِفـافِ الغُـروبِ
هــل يَطــوفُ الهُـدوءُ بِـالْفِكـرِ إنْ جُنّـتْ ريـاحٌ واسْتَسلَمـتْ للهُبــوبِ
إنّهـــا فِتْنـــةُ الحيـــاةِ تَهُـــزُّ الْيَقَظـــةَ البِكـــرَ فـــي شُغـــافِ القُلـــوبِ

***

إنّهــا الفِتنــةُ التــي تَمــلأُ الــرّوحَ فتــونــاً . . . بــالْمغــريــاتِ وسِحْــرا
وَحيُهَـــا . . . أن تَمُـــدّ كَفَّيْــكَ لِلــدُّنيــا خُشــوعــاً للطِّيبــاتِ وَشُكــراً
أنْ تُنَــاجــي الأحــلام وَرديّــة الأشــواقِ، أن تُنْبِــتَ الأمــانــيّ زَهــرا
أن تضيــعَ الطــريــقُ فــي التّيــه إمّــا سِــرتَ نحــوَ السّــراب تَطلُــبُ نهــرا

***

إنّهـــا قصـــةُ الضِّيـــاء إذا عَـــانَقَـــتِ الليـــلَ فـــي غـــرام كَئيـــبِ
كــلُّ مــا عِنـدَهَــا أحــاديــثُ تــاريــخ الصَّبــابــاتِ فــي غِنــاء النّحيــبِ
وَشَكـــاوَى تَلتَـــاعُ فِيهَـــا اللُّبـــانَـــاتُ فَيَـــرْتَـــاعُ وجـــدُهـــا لِلمَغيـــبِ
وَنَجَـــاوى لِلهَـــائِميـــنَ، تَضـــمُّ الأريحيّـــاتِ فـــي جحيـــمِ اللَّهيـــبِ

هِـي روحُ الإيمـانِ تمتـدُّ فـي الأعمـاق، وَحيـاً على خُطـى الإغـراءِ
لَـمْ يَشُقْهـا الـوحـيُ الـذي يَحضِـنُ اللَّـذةَ فـي أريحيـة الأهْـواءِ
إنّمـا استسلمـتْ لِشـوقٍ إلهـيّ يَضُـمُّ الحيـاةَ فـي الـلألاءِ
وَاطمـأنّـتْ للنُّـورِ يَهمـي علـى فِكـرٍ خصيـبٍ مُعْشَـوشِـب الأَرْجَـاءِ

* * *

هـيَ رَوْحُ الإيمـانِ تَحيـا . . . فَلِلْقُـوّةِ عُـرْسٌ فـي مَـوعِـدِ الأبطـالِ
لَـمْ تَغـبْ عـن عُيُـونِهَـا فَـرحَـةُ الضَّـوءِ ولـم تـرتعـدْ لِهَـوْلِ اللّيـالـي
يَنْعَـمُ الفجـرُ عنـدَهـا . . . فَعلـى بَسْمَـاتِـهِ الحـبُّ فـي رَبيـعِ الجَمـالِ
ثُـمَّ تَغْفُـو الحَيَـاةُ بيـنَ ذِراعيهَـا لِتحكـي بَـراءَةَ الأطفـالِ

* * *

هـيَ رُوحُ الإيمانِ . . . تضرى . . . فَلِلْكبـر صُراخٌ علـى مَـداهـا وَذُعـرُ
تَفْـرُشُ القلـيَ بـالـرّيـاحيـن حتـى يَعبَـق الخُلـق بـالشَّـذا فَهـوَ عِطـرُ
وتمـوت «الأنـا» فَتَنْهـلُّ أنـداءٌ ويحيـا خيـرٌ ويـزهـقُ شـرُّ
ويعيـشُ الإنسـانُ فـي الجَنـةِ الخضـراءِ مـن رُوحِـهِ فيشـرق فجـرُ

* * *

هـيَ روحُ الإيمـان تَحنُـو فلِلنّجـوى حَنـانٌ علـى دروب الطُّفـولَـةْ
كـلُّ أنغـامهـا عنـاقيـدُ حُـبٍّ أزْهَفَـتْ رُوحَهـا ظـلالُ الخميلَـةْ
تُـوقِـظُ الفِكـرةَ الطهـور فَـلا تلمـحُ فـي الأُفْـقِ غيـرَ روحٍ بتـولَـةْ
وَعلـى دربهـا تُـزغـردُ للـرّحمـةِ ألطـافُهـا العِـذَابُ الجَميلَـةْ

* * *

أيُّ معنًى لِلْقَلبِ أن يَجمدَ الإحساسُ فِيه على شَفيرِ الصُّخور
يَركضُ اللّيلُ بالمآسي وفي عينيه هولٌ مِنْ لسعةِ الزّمهرِير
وَعلى موعِد الاسى تُولدُ الآلامُ في ظِلّ عالم مذعورِ
وَتضِجُّ الجِراحُ... عبرَ احتِضَارِ الروحِ كالموت في ظلامِ القُبورِ

***

وتَظَلُّ العُيُونُ تَضْحَكُ لِلْبَلْوى وَتلهو بِشَهْقَةِ الآلام
إنَّها قَسوةُ الجَلامِدِ لَا تُنْبِتُ عُشْباً فِي لَوْعَةِ الاحلام
قَدْ تَعِيشُ الصُّخُور وَحْيَ اليَنابِيعَ إذا فَجّرتهُ رُوحُ الغَمَامِ
غَيْرَ أَنّ الإِنْسَانَ يبقى أمامَ البُؤْسِ صَلباً فِي نَزْعَةِ الإجْرَام

***

هيَ رُوح الإيمانِ، تَفْتَحُ للشّمس هداها، فَلِلْقُلُوب صَفاءُ
لَا تُعاني زَيْفَ المَشاعر، مَهما هَدْهَدتْها، على اللّظى، الأهواءُ
وحيُها الصدقُ... تحضِنُ الأريحيّاتِ كَما يَحضِنُ الحياةَ الاخاءُ
لَيس للغُشّ في رؤاها، امتدادٌ فَعلى وحيها يَرِفُّ النّقاءُ

***

هِيَ روحُ الإيمانِ تَصفو... فَتصفو الروحُ لِلروحِ فِي حَنانٍ وطُهرِ
تَلْتَقِي فِي رِحابِها، كلُّ ألطافِ الهُدى السَّمح في انسيابٍ وَسِحْرِ
وَتُنَدّي كلَّ الجَفَافِ الّذي يُرْهِقُ وحيَ الحياةِ في كلِّ صَدرِ
حَسْبُها أنّه تَضُمُّ بعينيها طُيوفَ السَّنَا على كلِّ فجرِ

***

هِـيَ روحُ الإيمـان تَخطـو علـى الـدّرب، فلِلـدربِ فَـرحـةُ الأشـذَاءِ
وَحَكـايـا الـربيع، فـي الملتقـى الأخضـر، عَـن جَنّةِ الـذُّرى الخَضـراءِ
أينمـا سِـرتَ فَـاليـنـابيـع دَفـقٌ مِـن حَيَـاةٍ فيّـاضـةٍ بـالعطـاءِ
وَعلـى مـوعِـد الـرِّسَـالاتِ، يَخطـو الصَّحـوُ حُلْـواً مُهَفْهَـفَ الأفْيَـاءِ

***

هـيَ رَوحُ الإيمـان تَصْمُـدُ فـي وجـهِ الأعـاصيـرِ، فـي جُنـون الشُّـرورِ
تَتَحَـدّى نَـوَازعَ الضَّعْـفِ... تَمتـصُّ ارتعـاشَـاتِ رُعبِهَـا المَقْـرورِ
وتُثيـرُ النّـارَ الحَبيسـةَ فِـي القَلْـبِ لهيبـاً فـي هَمهمـاتِ الصُّـدورِ
فـإذا بـالحيـاةِ وعـيُ صبـاحٍ وَهُـدى يَقظـةٍ... وَوَحْـيُ شعـورِ

***

يـا لِـروحِ الإيمـانِ تَنسـابُ فـي الإحسـاسِ حتـى يَفيـضَ بـالإيمـانِ
وَتُنـاجِـي كـلَّ البَـلايـا التـي تُـرعِـبُ بـالعُنـفِ رَوعَـةَ العُنْفُـوانِ
بـالْهُـدى الأريحـيِّ، بِـالصّبـرِ يَمتـصُّ بـإيمـانِـهِ شُحـوبَ الـزّمـانِ
فَتعُـودُ المشـاعـرُ السُّـودُ، بيضَـاءَ كَـزهـوِ الـورودِ فـي نيسـانِ
هِـيَ روحُ الإيمـان... يَـا للسّـلامِ الـرّحـبِ يمتـدُّ فـي غـدِ الإنسـانِ
كـلُّ تكبيـرةٍ مـن القَلْـبِ، مِـنْ عُمـقِ النُّبـواتِ، مـن نَـداء الأذانِ
هـيَ وحـيٌ مُنضَّـرٌ يَـرْفَـعُ الحـبَّ صـلاةً للـواحـدِ الـديّـانِ
وَيُثيـرُ الشُّعـور، فـي وحـدةِ الحـقِّ، علـى دربِ وحيـهِ الـرَّحمـانـي

***

أيّهذا الإنسان... مَن أنت هل تَلمحُ في الأفْقِ كَيفَ تَلهو الأماني

كيفَ تَدعوكَ للخَيالِ الذي يحملُ للفكرِ جنّة الألوانِ
في شرودٍ تطوفُ فيه الرّمالُ الحمرُ في عالمٍ رحيْبِ المغاني
وَتَظَلُّ الأيّامُ تَشرُدُ بالعُمرِ بعيداً على جَناحِ الزّمانِ

***

أيُّهذَا الإنسانُ مَن أنْتَ... هَلْ أَنْتَ وَليدُ الشُّرورِ والأضغانِ
تُولَدُ النَّارُ في عروقِكَ... في وحي نَجاواك... في لَهِيبِ الأغاني
شهوةٌ توقدُ الخطايا... واحلاماً تَلَظّى... في موعِدِ النّيرانِ
وحروباً لا تُغمدُ السيفَ، إن لم يَرعُفِ السيفُ بالدّم الريّان

***

أيُّهذا الإنسانُ... مَن ذا يُناديكَ؟ أتُصغِي لوسْوساتِ المكانِ
إفتحِ الرُّوحَ لِلحقيقةِ... حدّقْ بالنُّسيماتِ في ربيع الجِنان
وَتلفّتْ... فَقد تطوفُ على خَطوِكَ في الليل خِدْعَةُ الشّيطَانِ
أصْغِ للصّوتِ... إن للصّوتِ سِرَّ النورِ إن عاشَ في هدى الرحمنِ.
أيُّهَذَا الإنْسَانُ من ذَا يُنَادِيكَ... وَمَاذَا لَدَيْكَ من أشجَانِ
قَد يَثورُ الضَّجِيجُ في الساحةِ البَيضَاءِ حَتى تضجَّ بِالألحانِ
وَيضيعَ النّداءُ في صَرَخَاتِ الإثم، عبرَ الوِهَادِ والوِدْيَانِ
وَيعيش الإنسان حيرتَهُ الكُبرى... مَع الشَّكِ في الغدِ الحيرانِ

***

إفْتَحِ الرُّوحَ للحقيقة... إبْدأ رِحلةَ النُّورِ في مَدَى الإيمانِ
إن فِي كُلِّ خَطْوةٍ من خطاها مَوعداً لليقينِ والإذعانِ

وعلـى وَحيهـا المنضّـرِ بـالألطـافِ تَهتـزُّ نُعْمَيَـاتُ الحَنـانِ
إنّهـا الـرَّوعـةُ الّتـي يَخْشـعُ التـاريـخ فيهـا، فِـي قصـة الإنْسَـانِ

* * *

أيُّهَـذَا الإنْسَـانُ مـن ذا يُنَـاجيـكَ.. أتُصغـي لِـدَعْـوَةِ القـرآنِ
إنَّـهُ الله... واهـبُ النُّـورِ سـرُّ الـرُّوحِ فـي كـلِّ صـرخـةٍ لـلأذانِ
كُـلَّ آيـاتِـهِ الهُـدى فِـي اللّيـالـي السُّـودِ إن جُـنَّ مَـوعـدُ الطُّغْيَـانِ
وَرِسَـالاَتُـهُ السَّـلامُ الّـذي يَمنَـحُ أرواحنـا نعيـمَ الجِنَـانِ

* * *

أيُّهـذا الإنسـانُ... قَـد يَـزْدَهِيْـكَ المَـرَحُ الحُلُـو فِـي اللّيَـالـي المِـلاحِ
قَـد تغطّـي عَيْنَيْـكَ... فـي كبـريـاءِ العُمُـر الغِـرّ غـاشيـاتُ النَّجـاحِ
رُبمـا صَفّقَـتْ لِطلعتـكَ الـدُّنيـا وَغَنّـت لمَجـدكَ الطَّمـاحِ
غَيـرَ أنّ الإيمـانَ يُـوحـي لنجـواكَ... بِـوحـي الهـدى وَسِـرِّ الفَـلاَحِ
إنـه أنْ تعيـشَ فـي العُمـق... فِـي وعـيٍ رَحيـبٍ مُنَـورٍ مِمْـراحِ
كـلُّ مـا عنـدُه، إذا امتـدَّ فـي الـذاتِ غـرورُ الـذرى وزهـوُ المِـراحِ
أن يُثيـرَالهُـدى لِيَنْسَـابَ بِـالطُّهْـرِ فَيهمـي فـي روعـةِ الأرواحِ
رَبِّ هَـبْ لـي نَفسـي لأنْـزَعَ مِنهـا دَنَـسَ الـرِّجـس فـي نِـداء السَّمـاحِ

* * *

إنَّهـم يَحسَبُـونَ فـيَّ القَـداسـاتِ، كَمـا الفَجـرُ فـي الفَضَـاءِ الـرّحيـب
غَيْـرَ أنّـي وَأنْـتَ تَعْـرِفُ أعمـاقـي... أُعـانـي مِـن وَسْـوَسَـاتِ الـذُّنُـوبِ
وأُقـاسـي مـن الخَطَـايَـا التـي يَحْجُبهـا الليـلُ فـي الظُّـلامِ الكَئيـبِ

فَتَغَمّـدْ يـا ربِّ كـلَّ خَطـايَـايَ بِعَفْـوٍ يمحـو لَـديـكَ عُيُـوبـي

* * *

إنّهـم يحسَبـونَنِـي المَثَـل الأعلـى . . . فَهَـبْ لِـي انطـلاقَـةَ العَليـاءِ
وَابعـثِ الـرُّوحَ فِـي كيـانـيَ هـدّاراً قـويـاً فـي عـزمـةِ الأقـويـاءِ
لِيَهُـزَّ الضَّعْـفَ الـذّليـلَ بـأعمـاقـي، وَيَهـوي على بَقَـايَـا العَيَـاءِ
وَيعـودَ الإنسـانُ فـي روعـةِ اليَقْظَـةِ رُوحـاً علـويَّـة الإيحـاءِ

* * *

أيُّهـذا الإنسـانُ قـد يَيْـأسُ العمـرُ بعينيـكَ فـي ظـلالِ العـذابِ
قـد يمـوتُ الحُلُـمُ المنضّـرُ فـي قلبـكِ إنْ أطبَقَـت بقـايـا الضَّبـابِ
فَتعـودُ الاحـلامُ تَحيـا مَـعَ المـوتِ وتَغفـو مَـا بيـنَ ظِفـرٍ ونـابِ
وَتمـرُّ الحيـاةُ فـي الليـلِ كـابـوسـاً ثقيـلاً فـي أُمنيـاتِ الغِيـابِ

غيـرَ أن الإيمـانَ، يَهْتـزُّ بـالنـورِ، وَيحيَـا بـالطَّيبـاتِ الغَـوالـي
ليـس للمـوتِ والحيـاةِ انطـلاقُ الحُلُـمِ العَـذبِ في جُفـونِ اللّيـالـي
إنمـا المـوتُ أن تعيـش مـع الشّيطـانِ روحـاً مجنـونـةَ الآمـالِ
تَمـرحُ المُغـريـاتُ فيهـا سـرابـاً لامعـاً فـي غِـوايـةِ الأعمـالِ

* * *

إنمـا المـوتُ . . . أن تُبَعْثِـرَ كـلَّ الأرِيحيـاتِ فـي جُنـونِ الـرمـالِ
وَتُثيـرَ العِصْيـانَ فـي خُطُـواتِ العُمْـرِ كـالخَمـر فـي عـروقِ الـدّوالـي
كـلُّ يـومٍ يَمـرُّ . . . تَبْتَـدِعُ الشَّهْـوَةُ فِيـهِ للعُمْـرِ ألـفَ سـؤالِ

وَيغيبُ الإنسانُ عَن موعِدِ الله فَيهوي في وَهْدَةِ الأوحالِ

* * *

إنّ سرَّ الحياةِ في العُمر أن تُسْلِمَ لله في الدُّروبِ الطَّويلهْ
وَتُحيّي كلَّ المَعاني التي تُومِضُ بالطُّهرِ في القُلوب النَّبيلهْ
في مجالٍ يَمْتَدُّ بالخَير والرّحْمةِ في كلِّ خَطوةٍ مسؤولَهْ
وَجهادٍ يَشْتَدُّ في كلِّ أُفقٍ يَتحدّى بِالكِبرياءِ رَسولَهْ

* * *

إنَّ مَعنى الحيَاةِ، أنْ تولَد اليَقظةُ في رُوحِكَ الكبيرة فجرا
تَنحني الكِبرياءُ فيها أمام الحقِّ في موعد الرسالةِ فَخْرا
وَعلى اسم الله العَظيمِ يعيشُ الحُلُمُ العذبُ، بِالمحبة طُهرا
حَسْبُها أنّها انطِلاقَةُ تَارِيخٍ يَشُدُّ الخُطى إلى الله جَهرا

* * *

عِشْ إذا شِئْتَ لِلحياةِ التي تبذُلُ لله كلَّ جَهدِ المُطيعِ
في ابتهالٍ تَحيا العبادة في تسبيحه الطُّهرَ في جلالِ الخُشوعِ
فإذا كانَ عُمرُ دنياك للشَّيطانِ نهباً في ذِلَّةٍ وَخُضوعِ
فَلْتَكُنْ كلُّ امنياتِكَ للموتِ لِتَنأى عَنِ المصيرِ الفَظيعِ

* * *

أيُّهذَا الإنْسانُ قد يَغرقُ العُمرُ بِنَجواكَ في فراغٍ كَسولِ
كلُّ سَاعاتِهِ ضَياعٌ وأحلامٌ كُسالى في عالمٍ مَخْبُولِ
وَخُطاهُ، اللّهوُ الذي يُرْهِقُ اليَقَظةَ يَجتاحُ كلَّ وحي جميلِ

. . . وَتَمُرُّ الحياةُ في دربِهِ حيرى الأماني في وحشةِ المجهولِ

***

أنْتَ لَم تَنْطلقْ. . . لِتسبَحَ في موجِ الدَّياجي في غمرةٍ عَمْياءِ
سِرُّ دُنياكَ أن تعيشَ الرّسالات وَتجري في موكب الأنبياءِ
في الرِّحابِ الفِساحِ في جَنَّة الله. . . عَلَى كلِّ دَعوةٍ خَضراء
حُلمُها. . . أن يُنَضِّرَ الحُلُم القُدسيُّ أحلامنا بِوحي السَّماءِ

***

فلْيَكُنْ لِلحقيقةِ البِكرِ هذا العُمرُ في وَحيِهِ وَفِي حَرَكَاتِهْ
وَلْتعشْ فِي القُلوبِ كلُّ الحِكاياتِ العَذارى عَلى هدى أُمْنياتِهْ
إنّهُ الله. . . واهبُ العُمرِ، فَلنحمِلْ إلَيْهِ الضَّميرَ في صَلَوَاتِهْ
وَلْتُفَرِّغْ أيّامُنا لِنجاواه لِنَحيَا على هُدى آياتِهْ

***

رُبَمَا تَلْتَقِي العِبادةُ في عينيكَ رُوحاً تَسيلُ بينَ الدموعِ
في خُشوعِ الصَّلاةِ. . . في رِقة النَّجوى وَخَفْقِ الإيمانِ بين الضُّلُوعِ
وَحنينٍ للنُّور في العالمِ القُدْسِيِّ في رَوعَةِ الجَلالِ الرَّفيعِ
وَسُجُودٍ لله، يَستقبلُ الألطافَ بالحُبِّ في ابتهال الخُضُوعِ

***

غير أن الشيطانَ قد يُرْهِقُ الرّوحَ بأَهواء عالمٍ مَسحورِ
وَحيُهُ العُجْبُ. . . يَستثيرُ طُموحَ الذّات فَخراً في وسوسات الصّدورِ
وَنَجاواهُ تَلْتَقي بِاللُّبانَاتِ العَذارى في فِتنَةِ الْمَبْهُورِ

فـإذا بـالصـلاةِ، ألـوانُ أهـواءٍ تُنـاجـي بـالعُجـبِ وحـيَ الشُّـرورِ

* * *

أنـتَ قـد تمنـحُ العَطـايـا إذا جُنّـتْ ريـاحُ البَـلاء فـي الآفـاقِ

واستثَـارَتْ آلآمُـهُ كـلَّ قلـبٍ أريحـيٍّ فـي لـوعـةِ الإشْفَـاقِ

وَتَهـادى فـي سَـاحَـةِ الفَقْـر صـوتُ الجُـوعِ يَشكُـو مَـرارةَ الإرْهـاقِ

وانتخَـى المحسنـون فـي أريحيّـات النّـدى السّمْـحِ فـي مـدى الإشـراقِ

* * *

قَـد تعيـشُ العَطـاءَ فـي أنّـةِ البَلْـوى فَتهمـي بِـالخيـر روحـكَ طُهـرا

وتَفِيْـضُ الـدمـوعُ، فـي لـوعـةِ اليُتـم، فتنهَـلُّ بـالمحبـة بِـرّا

غَيـر أنّ النّـوازعَ السُّـودَ تَشتَـدُّ، وَتقسـو بِـالكبـريـاء وَتَضْـرى

فـإذا بـالعَطـاءِ يَمْتَـنُّ فـي وحـيٍ وضيـعٍ يَـزدادُ بـالفَخـرِ كِبـرا

* * *

أيُّهـذا الإنسـانُ... هـلْ عِشـتَ وحْـيَ الله بِـالخير فـي رحـاب العَطـاءِ

كلمـةُ الحُـبِّ والسّمـاحَـةِ خيـرٌ مـن عطـاءٍ يَمتـدُّ بـالإيـذاءِ

هَل تَلمَّستَ، في يَديكَ - الجِنان الخُضر تَرتاح في الرُّبى الخَضْراءِ

كَيْـفَ يَهمـي النَّـدى عَليهـا فَتهتـزُّ، وَتـزهـو بـالـزهـرِ والأشْـذاءِ

* * *

هَـلْ لَمحـتَ الصّخـورَ مَلسـاءَ سَـوداء، تُغطّـي صَعيـدَهـا بـالتُّـرابِ

وَتعيشُ الورودُ فيها، وَيَنمو الزّرعُ فيها بالنُّعمياتِ العِذابِ
ثُمَّ يَهمي السَّحابُ، يَنْهَلُّ بالوابِلِ حتَّى يجفَّ ضَرعُ السَّحابِ
وَتَعودُ الصخور مَلساءَ.. لا تَنْبِتُ فيها إلا وُرودُ السّرابِ

***

إنَّها قِصَّةُ العَطاءِ الذي يُورِقُ بالطَّيِّباتِ في الأعْمَاقِ
كُلُّ أحلامِهِ، مَعَ الله، في كُلِّ انطلاقٍ منوَّرٍ خلاّقِ
هُوَ سِرُّ الهُدى إذا امتدَّ في الرُّوحِ بِوَحْيٍ منضَّرٍ خَفَّاقِ
فَيعودُ الإنسانُ، في أُفْقِهِ الرّحْبِ، كَياناً يَموجُ بالإشراقِ

***

وَهُنَاكَ الإنسانُ... قَلْبٌ يَفِرُّ النورُ مِنْهُ، فَيَنْتَشي بِالظَّلامِ
هَمُّهُ في الحياةِ، أن تَخْضَعَ الدُّنْيَا لاحْلامِهِ وَراء الغَمَامِ
رَبُّهُ ذاتُهُ يُصَلِّي لَهَا الشِّعرَ عَلى هَدْيِ رَقْصَةِ الأنْغَامِ
وَرُؤاهُ... أنْ يَحْضِنَ الغَدَ تَاريخَ العَطَايَا فِي قصةِ الإعلامِ

***

رَبِّ هَبْ لي اليَسارَ فِي المالِ إِمَّا امتدَّ رِزقي بِلُطْفِكَ الأريحيِّ
لَا تُشَوِّهْ جَلالَ عُمريَ بالإقْتَارِ في دَربيَ الطَّهورِ الأَبيِّ
وَاحْتَضِنْ كلَّ نُعمياتيَ بِالحُبِّ الإلهيِّ، في سَماحٍ نَدِيٍّ
لِيَعيشَ الهُدَى بِعُمْقِ أحاسيسي شُعوراً حَيَّاً بِروحٍ رضيِّ

***

إنّـه الفقـرُ فتَنـةُ العُمْـرِ، سِـرُّ المَلـق الغِـرِّ فـي الحَـديـثِ الكَـذُوبِ
تُـولـدُ المُغْـريـاتُ فـي عمـق عَيْنَيْـهِ كـأحْـلامٍ مُسْتَهـامٍ طـرُوبِ
فَتُثِيـرُا لحيـاةَ فـي رُوحِـهِ الحَيـرى ضَبـابـاً مَضمَّخـاً بـالطيـوب
حُلْمـه المـالُ... وَحْيُـهُ الـذَّهـبُ الأصْفَـرُ يُغـري حَيـاتَـه بـالـوُثـوبِ

* * *

بـاسمِـهِ... تَبـدأُ الأمـانـي لِتَـرتَـاحَ بِـأعْمـاقِـهِ... وراءَ الغُيـوبِ
وعلـى دَربِـهِ تسيـرُ الخُطـى العَميَـاءُ عَـدْواً إلـى الغِنـى المـرْغـوبِ
فـإذا بـالعطـاءِ يَستنـزِلُ الآيـات مَـدْحـاً مـن شَـاعـرٍ مَـوهـوبِ
سَـرّهُ... أن يَـرُشَّ بـالعِطْـرِ دربَ المَـالِ، فـي روعـةِ الخَيـالِ الـرّحيـبِ

* * *

وَتَعُـودَ الأقـزامُ فـي لُعْبَـةِ المَـدحِ... عَمـاليـقَ عـالـمٍ مجنـونِ
كـلُّ مـا عنـدهُ، إذا اهتـزَّتِ القِمَّـةُ فـي وعْيِـهِ، حَـديـثُ المُجُـونِ
ربُّـهُ المـالُ... فَهْـوَ سِـرُّ المَعَـانِـي البِيْـضِ لِلنّـورِ فـي صفـاء العُيـونِ
وعلـى هَـدْيـه تَسِيـرُ السَّـرايـا هَـادِراتٍ فـي دَاجيـاتِ السِّنيـنِ

* * *

أيُّهـذا الإنسـانُ قَـد يُـولَـدُا لشَّـكُّ بِعَيْنَيْـكَ... فِـي غِمـارِ الظُّنـونِ
فـابْتَهِـلْ فـي ضـراعـة الـرّوح.. لله.. بـوحْـيِ ا لهُـدى وَسِـرِّ الحَنيـنِ
أن يعيشَ الوجدانُ كُلَّ حُضورِ الحقِّ في الروحِ... في سُمُوِّ اليَقينِ
أن تُنـاجيـكَ فـي الضُّحـى كُـلُّ آيـاتِ النُّبـواتِ فـي صَفَـاءِ السّكـونِ

أنـا يَـا رَبِّ هَـا هُنَـا وَعلـى الـدَّربِ. . . خُطَـى الخَـابِطِيـنَ فـي الأوحـالِ
هَـؤُلاءِ الـذيـنَ يُـولـدُ فِيهِـمْ كـلَّ يـومٍ. . . لِلشَّـرِ، وَحْـيُ خَبَـالِ
يُـزْهِقُـونَ الحيـاة، بِـالْفِكْـرَةِ الشّـوْهَـاءِ، تَغْـوِي فـي مـوعِـد الآمَـالِ
وَيَمُـرّونَ، كـالـذِّئـابِ، عـى الـدُّنيـا كعصْـفِ الـرّيـاحِ بيـنَ الـرّمـالِ

* * *

قَـد يَعيشُـونَ إن أثـارت نجـاوى الـرّكـبِ للسّـائـريـنَ وَحـيَ الضَّـلالِ
وَيَغشُّـون، بـالحـديـثِ وبِـالـرأيِ، وُجـوهَ الأقـوالِ وَالأفْعـالِ
وَيضيعـونَ فـي صَحَـارَى الـرمَـالِ السّـودِ، فـي التِّيـهِ فـي جُنـونِ اللّيـالـي
فـي قُلـوبٍ تَـرتـاحُ لِلْحِقْـدِ إن تخفـقْ بـأعْمَـاقِهَـا هُمـومُ الـرِّجَـالِ

* * *

إنَّهُـمْ يُـزْهِقُـونَ كـلَّ العُيُـونِ الخُضْـرِ، إنْ أشْـرَقَـتْ بِـوَحْـي الجَمَـالِ
بِـالحَكَـايـا السّـوداء، عـن رَوْعـةِ القُبْـحِ إذا امْتَـدّ فـي خُطَـى الأغْـوَالِ
كَيْـفَ تَحْيَـا الحَيَـاةُ إن عَـاشَ فِيهَـا الـزَّيْـفُ حُـرّاً علـى امْتِـدَادِ الخَيَـالِ
كيـف تـرتـاع فـي الظـلام حكـايـات السـرايـا فـي ملتقـى الأهـوالِ

* * *

وإنّا هَا هُنا. . . عَلَى الدّربِ. . . قَلْبِي لَكَ في وَحْيِهِ وفي رَعَشَاتِهْ
فَلْيَعِشْ في هُدَاكَ، في العُمْقِ، في طُهْرِ الحَنايا، في مُلْتَقَى خَطَراتِهْ
لِيمـرَّ الـرَّوحُ الطّهُـورُ خَفيفـاً كـالنَّسيـم العَليـل، فـي رَفـرَفـاتِـهْ
وَيَطُـوفَ القُـدْسُ المُنَـوَّرُ فِيـهِ حَـوْلَ فجـرِ الإنْسَـانِ فِـي صَلَـواتِـهْ

وأنَـا هَـا هُنَـا، تُـرَوِّعُ قَلْبِـي فـي خُطَـى الليـل نَـزْعَـةُ الإجْـرَامِ
قَـد يَثُـورُ الإحْسَـاسُ، قَـد تَجْمَـحُ النَّفْسُ فَتَـزْهُـو بِـرَوعَـةِ الأوهـامِ
فِـي طُمـوحٍ يُـرْضِـي اللّـذَاذَاتِ. يَحيَـا لِلْغِـوَايَـاتِ فـي طَـرِيـقِ الحَـرَامِ
كـلُّ مـا عِنْـدَهُ هَـوى النَّفْـسِ، فَـالـدُّنْيَـا لَـدَيْـهِ، إغْفَـاءَةُ الأحْـلاَمِ

***

رَبِّ سَـدِّدْ فِكْـرِي، لِيُـورِقَ فِيـهِ كـلُّ غُصْـنٍ منضَّـرٍ بـالسَّـلامِ
يَمنـحُ الفِكْـرَةَ الـوَضِيئَـةَ لِلسّـارِيـنَ فـي التِّيـهِ فـي دَيـاجـيَ الظَّـلامِ
رَبِّ هَبنـي، رُوحَ السّمـاحِ لألْقـى الغُـشَّ بـالنُّصْـح في دَمـي وَعِظـامِـي
لِتعـود الحَيَـاةُ فِـي خَـاطِـرِي رُوحـاً نقيّـاً كَخَفْقَـةِ الإلْهَـامِ(١)

***

(١) محمد حسين فضل الله، ديوان يا ظلال الإسلام، ط١، دار التعارف، ص ٢١٥ - ٢٢٩.

ربِّ رحماك(١)

(الخفيف)

رب رحمــاك إنَّ روحـــي تـــذوي وفـــؤادي يـــذوب شيئـــاً فشيّـــا
وأرانـــي أعيـــش فـــي غمـــرة الأو هـــام ظمـــآن لا أرى لـــي ريّـــا
ما أنا، ما الحياة، ما الروح عندي غيـــر ســـرٍّ يبـــدو لـــديّ خفيّـــا
لا أرى فـــي الحيـــاة إلا خيـــالا مضمحـــلاً تحسّـــه مقلتيّـــا

* * *

رب رحمــاك قــد ضَلَلْــتُ طــريقــي والهــدى فـاهـدنـي صـراطـاً سـويّـا
أنــا مــالـي أسعــى، وأَلتمِسُ الــدر ربَ ولا أبصـــرُ الشعـــاعَ المضيّـــا
أنـــا فـــي حيـــرةٍ أفكـــر فـــي ذاتـــي كـــأنـــي أتيـــتُ أمـــراً فـــريّـــا
أنـــا يـــا رب تـــائـــهٌ وغـــريـــب لا يـــرى فـــي الحيـــاة وِرداً هنيّـــا

* * *

(١) قصائد للإسلام والحياة، ص: ٩ و١٠.

أنـا مـالـي وللمحيـط فكـم يجنـي علـى فكـرتـي ويقسـو عليّـا
جئتـه والحيـاة تبسـم نحـوي والأمـانـي تمـوج بيـن يـديـا
وشعـاع الآمـال يبعـث فـي رو حـي شعـاعـاً مـن المنـى عبقـريـا
وشـراع الأحـلام يخفـق فـي قلبـي فيـوحـي لـي الخيـال السنيـا
أتهـادى مـا بيـن أحـلامـي البيـضِ وأشـدو مـع الـدجـى والثـريـا
فـإذا بـي أرى الحيـاة ظـلامـا وصبـاحَ الأحـلام ليـلاً دجيّـا
والأمـانـي تمـوت فـي قبضـة الحـز ن.. وتـذوي علـى لظـى شفتيـا
وأرانـي أعيـشُ فـي سجنـه الـدا جـي.. وحيـداً بيـن الأنـام شقيـا
رب رحمـاك أنـت قـدرت لـي ذا ك.. فهـب لـي إن شئـت قلبـاً رضيـا
رب رحمـاك مـا لقلبـي وللحـز ن ولمّـا يَـزَلْ كـروحـي طـريّـا
صغتَـه مـن عصـارة الألـم الـذا وي فـؤاداً مـن الأسـى شـاعـريـا
ثـم أودعـت فيـه مـن روعـة الـوحـي خيـالاً عـذب المـوارد حيّـا
وبعثـت الشعـور فيـه رقيقـا وسكبـت الشبـاب فيـه فتيـا
فمضـى يصهـر العـذاب نشيـداً ويصـوغ الآهـات لحنـاً شجيـا
ويـنـاجيـك فـي ابتهـال مـع الليـل فتهمـي الـدمـوع مـن نـاظـريـا
لـم يجـد فـي الـوجـود قلبـاً حنـونـا فَـأَنِلْـهُ حنـانـك العلـويـا
هكـذا هكـذا يعيـش بـدنيـا ه يعـانـي شقـاءه السـرمـديـا
ثـم يـذوي علـى الضلـوع مـن الـوجـد ويلقـي نـداه فـي أذنيـا
خفقـةً خفقـةً ويهـوي مـع الـرو ح فيلقـى هـدوءه الأبـديـا

النجف ٧/ ٦/ ١٣٧١هـ

صوفية شاعرِ

(الخفيف)

ربِّ - إني وفي انتفاضات آهاتي جراحٌ، وفي حشاي نصولُ
أتلظّى بين الجحيم وفي روحي نداءٌ، إليك كيف السبيلُ
تاه بي عالمي إلى حيثُ لا أدري، فدنياي وحشةٌ وذهولُ
ودعاءٌ، في هدأة الليل يستهديك، والدرب موحشٌ مجهولُ
كيف أَسمو إلى الحقيقة حرّاً وكياني مقيّدٌ مغلولُ
وحياتي شلوٌ تناهبه الريح، وألوى بجانبيه الذبولُ
وصراعٌ في أفق نفسي، يجتاح شعوري به سؤالٌ طويلُ
عذّبتْني أوهامه زمناً مرّ تعاصت عليّ فيه الحلولُ
ما حياتي هنا.. ونحن على الكون ظلالٌ ستمَّحي وتزولُ
رنّحتنا الغيوم، في هدأة الليل فماجت بنا الربى والسهولُ
ومضينا مع الضباب كما يرتع في وحشة المكان النزيلُ
هكذا نحن، حيرةٌ يرقص الوهم عليها، وتستطيل السدولُ
ربِّ هبني برد اليقين فقلبي شعلةٌ ماج حولها التَّضليلُ

* * *

ربّ: هذا الليل البهيم هدوءٌ شاعريٌّ طلقٌ وأفقٌ جميلُ

ونسيمٌ يموجُ في سرحةِ الروحِ نديٌّ ـ كما تشاء ـ عليلُ
وشعاعٌ ترقرقت فيه ألوانٌ من السحر رجرجتها الحقولُ
نورك الحُرُّ: منه ينبثق الطهر، ويندى به الصَّباحُ البليلُ
يبعث الشاعر المدلّه صوفيّاً يناجيك: والنجوم مُثُولُ
أنت رمز الهوى المشع بدنياه.. وأنت الهادي وأنت المقيلُ
أنا في لجّهِ أطوف ولكن زورقي مجهدٌ وعبئي ثقيلُ
لم يزل في يديَّ يرتعد المجذاف، والموج هائجٌ مخبولُ
وشراعي مرنّحٌ، تلعب الريح بأطرافه، وطرفي كليلُ
أتملّى الضفاف، في حيرة الفكر، وقد لاح لي شعاع ضئيلُ
أتملَّى بها مداي كأنّي تائهٌ شاقه المدى المجهولُ
أستحث الفجر الطليق يغني بسناه الضحى ويزهو الأصيلُ
والدجى يصرع الحياة ويهوي من ذراها فيه كيان قتيلُ
ربّ هبني إشعاعةً تبعث الوحي بروحي فقد دهاه المحولُ

***

وأنا هائمٌ وروحي تلتاعُ، ودنياي في سمَاك ـ تجولُ
أستحثّ الخطى إليك، كأنَّ الشوق في جانحيّ نارٌ أكولُ
حملتني روحي إليك فبارِكْهَا، وروحي ـ كما علمت ـ بتولُ
سئمت أفقها المكبل بالأغلال فاقتادها إليك الدليلُ
وتخلَّت عن عالم يمرح الإثم عليه، ويسرح التدجيلُ
لا ترى فيه غير مذأبة تعوي وكونٍ على الضعيفِ يصولُ

***

إعترافٌ وابتهال

(الخفيف)

أنا يا ربِّ في طريقي أحثُّ الخطوَ نحو العلا وأنت العلاءُ
فاهدني الدربَ، إن خطويَ حيرانٌ ودنياي حيرةٌ وشقاءُ
أنا إمّا جلست في الليل ألقاك بقلبٍ يموج فيه الصفاءُ
كصباحٍ تنوّر الشمس جفنيه وتزهو بجانحيه السماءُ
وإذا لفّني النهار مع الناس، وحنَّت لرجسها الأهواءُ
فأنا تائهٌ فقد يجمح الخطو، وقد يحجب الضياء بلاءُ
سرعةٌ في اللسان قد يحجب التفكير فيها ـ مع الضجيج هراءُ
واضطرابٌ في فكرةٍ لست أدري كيف غشّى نجوى هداها الغشاءُ
وإذا بي وقد حملت ذنوبي فوق ظهري ـ يقودني الإعياءُ
ويعودُ المساءُ فالقلبُ في نجواكَ حرٌّ وفي الشفاهِ نداءُ
وإذا بالحياءِ يُلجم نجواي فهل شافعٌ لديْكَ الحياء؟

* * *

أنا راجٍ غفران ذنبي، وإن ضجّ ـ بنتن الذنوب مني ـ الفضاءُ

وأنا من أنا.. سوى الفقر للرحمة والعفو حسب قلبي الرجاءُ
أنت ربي وقد صنعت بنعماك كياني.. وفاضَتِ النَّعماءُ
واستمر الجحود مني ولم أشكر، فهل لي إليك دربٌ مضاءُ
أنتَ يا رب عالمٌ بجراحاتي، خبيرٌ بما يجنُّ الخفاءُ
وأَنا راجعٌ إليك بقلبي، إن قلبي صحيفةٌ بيضاءُ
فإذا شئت أن تعذب جسمي بغواياته، فحسبي الدعاءُ
دع لساني يدعوك ـ يا ربّ ـ وافعل بي ما شئت فالدُّعَاءُ هنَاءُ

* * *

١٣٧٦/٦/٥

الأضواء س ٦ عدد ٣

صلاة.[١]

(السريع)

في لحظات صوفية رائعة

أنا هنا يا ربِّ.. في زورق الحيرة.. أجري في المدى الضيّقِ

كأنني روح صباحٍ غفا ... على التفاتاتِ السنا الريّقِ
يحلم بالفرحةِ تكسو الربى ... ببسمةٍ من حلمِها الشيّقِ
فلم يفق إلا على غيمةٍ ... سوداء تطوي روعَةَ المشرقِ
ساخرةٍ بالنور.. ما همّها ... إن رفرف الفجرُ.. ولم يشرقِ

* * *

أنا هنا - يا ربّ - في ليلةٍ ... قمراءَ.. أحسو خمرةَ المطلقِ
وفي جفوني دعوةٌ حرّةٌ ... للنور - عبرَ الشاطىءِ الأزرقِ
ألمحهُ كالموجِ إن تنطلقْ . دنياهُ في أنشودة الزورقِ
فتارةً يحنو على ظله ... سكران في إغفاءة المرهقِ
وتارةً - يطغى - كمجنونةٍ ... مزَّقت الحلم - ولم تشفقِ

* * *

(١) محمد حسين فضل الله، قصائد للإسلام والحياة، ص ١٥.

وفـي كيـانـي لهفـةٌ. . للمـدى المجهـولِ. . للغيـبِ. . فهـل نلتقـي
حسبـي غمـوض السـر أحيـى بـه فلـم أزل مـن نبعـه أستقـي
أحسّـه بخـاطـري ـ عـالمـاً يمـوج بـالأشبـاح إن يخفـقِ
مبهمـة اللـون ضبـابيـة. . الأحـلام والأشـواق والـرونـقِ
أحسّـه فينتشـي خـاطـري وتـركـض الأضـواء فـي مفـرقـي

❊ ❊ ❊

أنـا هنـا ـ يـا رب ـ خلَّفتنـي وحـديَ ـ فـي الأرض. . فلـم أتّـقِ
خلقتنـي مـن طينـةٍ ـ مـا وعـت دنيـاي: فـي أيّ مـدىً تـرتقـي
وقلـت لـي سـر فـي الثَّـرى جـاهـداً وابحـث عـن السـرّ. . ولا تخفـقِ
وحـدّثْ الأرض ففـي روحِهـا سـرُّ معـانيـك فـلا تُطـرقِ

❊ ❊ ❊

وسـرتُ. . حتـى مـلَّ منّـي السُّـرى أبحـثُ عـن هـذا الكيـانِ الشقـي
والتقـي بـالكـونِ يـرنـو إلـى خطـويَ فـي سخـريـةِ المشفـقِ
أيـن أنـا ـ يـا أرضُ ـ أيـنَ النَّـدى هـل مـرَّ بـالحُلْـمِ. . ولـم يـورقِ
أيـنَ المـدى ـ يـا أرض ـ مَـن ذا تـرى عـاشَ مـع السـرِّ ولـم يغـرَقِ

❊ ❊ ❊

فلـم أفـقْ إلّا علـى همسـةٍ مـن خـاطـرِ الغيـب: ومـاذا بقـي؟
أنـت هنـا خُلقـتَ مـن طينـةٍ أرضيّـةٍ تفنـى. . فـلا تَصْعَـقِ
والسـرُّ فـي الـروح فحلِّـقْ بهـا وامـرحْ علـى أضـوائِهـا ـ واخلـقِ

❊ ❊ ❊

وهـــا أنـــا يـــا ربِّ فـــي روحـــيَ الحيـرَى . . أنـاجيْـكَ فهـل أرتقِـي
حسبـي إذا الأثـمُ طغـى فـي دمـي إشعـاعـةٌ مـن طهـرِكَ المشِـرقِ
ينهـلُّ فـي قلبـي حنـانـاً ـ كمـا . . ينهـلّ بـالطهـرِ شـذى الـزَّنْبَـقِ

❊ ❊ ❊

بنت جبيل ١٧/ ٧/ ١٩٥٦
نشرت في مجلة الأضواء، السنة الثالثة

أحبكَ يَا رب(١)

(المتقارب)

من أجواء السفر في الطائرة بين طهران ومشهد في ١٣٩٨هـ

أحبُّك، يا رب، حب الحياةِ يفيض على جانبيها السناءُ
وينساب ـ في وحيها ـ وحيك الذي سبحت حوله الأنبياءُ
يحرّك في جانحيّ الطموح فتدفع خطوي إليك السماءُ
ويلهبني الشوق أن أَقطع الطريقَ إلى حيث يزهو الرجاءُ
إلى حيثُ ألقاكَ في كلِّ روح تفايض في مقلتيها الصّفاءُ
تعيش لتزهو غراسُ الرَّبيع فيضحك في الحقل ورد وماءُ
ويهمي الجمال، كما انهلّ فجر يرفرف في شفتيه الرواءُ
فأنت ـ إلهي ـ مع السائرين إلى الشمس حيث يطوف الضياءُ
ولستَ مع الخانعين الكسالى وإن بُحّ منهم إليك النداءُ
ولست لمن يغزلون الهوى لذاتك فيما يجن الخفاءُ
تهمهم أصواتهم بالخشوع ويشهق ـ بالحسرات ـ الدعاءُ
وتحضن أحلامهم جنة الخلود إلى حيث يسمو العلاءُ
ولكنهم يقتلون الحياة بأفكارهم.. وتسيل الدماءُ
دماء الغد الحر، في وحشة الطريق، إذا ما ادلهمّ المساءُ

(١) قصائد للإسلام والحياة، ص ٢٢.

كــأنــك أوحيــت لــلأنبيــاءِ بــأن يتــرك الســاحــة الأصفيــاءُ
ويحيــون دنيــاهــم عــزلــةً يهــدهــد وجــدانهــا الكبــريــاءُ
ويبقــى لنــا الــدرب مهمــا استطــال ليكتــب تــاريخــه الأشقيــاءُ

❊ ❊ ❊

خلقــت الحيــاة لنــا دعــوةً إلــى النــور يحملهــا الأوليــاءُ
تُلملِــم كــل نجــاوى الهــدى فيعبــق بــالحــب منــه الفضــاءُ
وقلـت: استجيبـوا لـوحي الحياة إذا مــا دعــاكــم لــه الأنبيــاءُ
كلــوا الطيبــات فــإن الــربيــع لكــم زينــةٌ وشــذى وانتشــاءُ
أحِبــوا الجمــال فــإن حمحمــت بــأحــداقــه لــذة واشتهــاءُ
ومــدَّت رؤى الشــر أوهــامهــا لتعبــث بــالقــدس أنّــى تشــاءُ
فـلا تـركضوا في صحـارى السراب فمـن أكـؤس الطهـر يـروى الظمـاءُ
فقــد تظمــأ الــروح فــي ملتقــى الينــابيــع، أو يحتــويهــا العيــاءُ
وقــد تــرتــوي فــي هجيـر اللهيـب مــع الحــق إن رشفتــه الــدمــاءُ
هــو الله ســر الجمــال الطهــور فمنــه الــربيــع ومنــه الــرواءُ
ومــن وحيــه: أن نعيــش الجمــال كمــا عــاش فــي الجنــة الأتقيــاءُ

❊ ❊ ❊

أحبــك يــا ربّ حــب الحيــاة تفجّــر ـ فــي راحتيهــا ـ العطــاءُ
فمنــك الــوجــود بكــل رؤاه بكــل ذراه ومنــك الــرّخــاءُ
وأنــت نثــرت اخضــرار الــربيــعِ علــى الأرضِ فــاهتــزَّ فيــه النَّمــاءُ
ومنــك الشعــاع الــذي يستحــمُّ علــى ضفَّتيــهِ الهــدى والهنــاءُ
يــرفــرف فــي الفجــر نــوراً تثيــر لنــا الــدفء منــه المعــاني الــوضــاءُ

وينساب في لفتاتِ المساءِ فيعذب كالحلمِ فيه الهواءُ
ونعماك كلُّ انطلاقِ الحياة يطوف بأقداسِها الأصفياءُ
وأنت الذي تمنح المتعبين نداك فيذهب فيه العناءُ
وماذا أقولُ: أأحصي نداك .. ويلهث في مقلتيَّ الحياءُ

* * *

أحبّك يا رب، رباً غفوراً غفوراً كما النور يطوي الظلامْ
كشلاَّل حُبٍّ كينبوعِ وحيٍ ترقرق فيه الرضا والسلامْ
كما النعميات تفيض ترقُّ وتغفو على هدهدات الغمامْ
كما أنت يا رب أنت الذي تعاليت عما يفيض الكلامْ
أحبك حب السماح الضحوك يضيء كبسمة طفل ينامْ
فأنت ـ إلهيَ ـ للمذنبين بلطفك تغسل رجس الأثامْ
تهدهدهم بغدٍ مشرقٍ يسير بوحي الهدى للأمامْ
وتوحي لهم أن روح الجنان لكل ضمير يحبُّ الأنامْ
لكل الخُطاة وإن هوّمت خطاياهم في جنون الحرامْ
لكل الجُناة الذين استثارت غرائزهم شهوات الرغامْ
لكل الذين تطوف عليهمْ شياطينهم في غوىً واضطرامْ
إذا ذكروا الله في وعيهمْ كشعلة نورٍ تؤجُّ الضرامْ
إذا انفتحوا لنجاوى الشروقُ لتوقظ بالدعوات النيامْ
لك اللطف يا رب إنّا جياع ومنك الشراب ومنك الطعامْ

أحبك يا رب لستُ الذي يغيب بذكرك خلف الضبابِ
ويهمس باسمك همس الذهولُ كما الأُفق يرعش عند الغيابِ

يغنـــي ويـــرتـــاع للعـــاشقيـــن يغنـــون للشمـــس خلـــف السحـــابِ
يعيشـــون بـــاسمـــك لهـــو الصـــلاة ابتهـــالاً يضيـــع بسكـــر الشـــرابِ
ولكننـــي ألتقـــي بـــالضحـــى مـــع اسمـــك فـــي خطـــرات الشبـــابِ
بكـــل المعـــانـــي التـــي تبعـــث الحيـــاة اخضـــراراً بقلـــب التـــرابِ
بكـــل الهـــدى السمـــح يمتـــد فـــي القلـــوب ضيـــاءً كلمـــح الشهـــابِ
بكـــل الينـــابيـــع تـــروي الصحـــارى وتخنـــق فـــي الـــدرب وحـــي السـرابِ
بكـــلٍّ العطـــورِ التـــي تنفـــح الحقـــول عبيـــراً. . . بكـــل الـــرّغـــابِ

* * *

الله أكبر(١)

(الكامل)

الله أكبـــر واحتضنـــت مشـــاعـــرِي ورفعـــت ـ فـــي سبحـــاتِهـــا الـــواحـــي
مـــاذا . . أتبهـــرنـــي الحيـــاة وتنحنـــي نجـــواي ـ عبـــر مـــواكـــب الأفـــراح
وتشـــدّنـــي ـ للمعجـــزات ـ خـــوارقُ تغـــري العيـــون بضـــوئِهـــا اللّمـــاحِ
ويثيـــرنـــي فِكْـــرٌ تـــراكضـــت الـــذرى فيـــه، وعـــاشـــت يقظـــة الاصبـــاحِ
مـــاذا . . أتـــزهـــو الكبـــريـــاء بخـــاطـــر سكـــرت رؤاه بخمـــرة الأقـــداحِ
فيعيـــش يحســـب أن مجـــد حيـــاتـــه يـــزهـــو علـــى أمجـــاد كـــلّ صبـــاحِ
وأنـــا هنـــا . . الله أكبـــر ـ فـــي دمـــي يـــا رب هبنـــي نعمـــة الإفصـــاح
حسبـــي سمّـــواً أن أعيـــش ضـــراعـــةَ الأبـــرارِ فـــي درب الحيـــاةِ الضّـــاحـــي
أن ألتقـــي بهـــداكَ وحيـــاً ســـابحـــاً بـــالنـــورِ فـــي وعـــي الضميـــرِ الصّـــاحـــي
أن أستـــريـــح إلـــى نعيـــم حقيقـــة أحيـــا بهـــا فـــي مـــوكـــب الأرواحِ
إنـــي أودّع فـ ي هـــداك متـــاعبِـــي وأذيـــبُ فـــي أحـــداقِـــهِ أتْـــرَاحِـــي

❊ ❊ ❊

(١) قصائد للإسلام والحياة، ص ٢٧ .

ربّـــاه..

(السَّريع)

رَبَّـاهُ . . مـاذا خلـفَ عسفِ الـدُّجى   مـن صـورٍ مجنـونـةٍ قـاتِمَـهْ
أسلمْـتُ جفنـيَّ لأشبـاحِـهِ   فـاستسلمَـتْ خـواطِـري الغـائِمَـهْ
وطفـتُ، أرعـى الأمـسَ، فـي لـوعـةٍ   مجـروحـةٍ ويقظـةٍ واجِمَـهْ
تشـدُّنـي الـذكـرى، إلـى أفقـه   فـي رعشـاتِ المتـعِ الحـالِمَـهْ
ويسـرحُ الخيـالُ فـي زورقٍ   شـراعُـهُ، أهـدابـي الهـائِمَـهْ
فـي حيـرةٍ تستـلُّ ذوبَ السنـا،   مـن روحـيَ الـوادعَـةِ السـاهِمَـهْ

* * *

وطـافـت الأوهـامُ . . فـي عـالمـي   وزمجـرَتْ أشبـاحُهَـا الظَّـالِمَـهْ
واستيقـظ الحـسُّ . . فثـارت علـى   جـراحـه، أهـوائـي الجـاحِمَـهْ
وانـدفـع الكيـانُ . . فـي لهفـةٍ   علـى بقـايـا الشهـوةِ العـارِمـهْ
يمـزِّق الستـار فـي روعـةٍ   يحسبهـا الفـريسـة النـاعِمـهْ
فـانتبـه «الحيـوان» فـي حسِّـه   فـي ثـورةٍ عـاويـة صـارمـه

* * *

حتـى إذا نـامَـتْ عيـون الـورى   وانطلقَـتْ أحـلامـي السـاميـة
أشفقـتُ: أن أفقـدَ روحيَّـة   الضيـاءِ، فـي آفـاقـي الصَّـاحِيَـهْ

فيستحيل النور في خاطري ـ عبرَ الهوى ـ أسطورةً باليَهْ
فجئت في صوفيةٍ حرة تمدني بالشعلة الهاديهْ
أدعوك في شعرٍ: يرشُّ النَّدى على رؤاهُ الخضر.. أحلاميَهْ
وفي فمي.. من توبتي.. بسمةُ الطُّهْرِ.. إلى آفاقِكَ الصّافيهْ
ربّاه.. هذي الكأس في راحتي مُتْرَعَةٌ.. بالشِّعْرِ.. والأدْمُعِ
أنتَ بعثت السحر في خمرها أنشودةً.. سكرى.. على مسمعي
فرنَّحت دنياي.. في رعشةٍ من رعشات الحلمِ المُمْتِعِ
ونضّرت عيني بتهويمةٍ في سكَرَاتِ الشَّاعِرِ المبدِعِ
فلم أُفق إلاّ على فتنةٍ تصرُخ بالأعماقِ.. هيّا معي
وروعةٍ: لمحتُ في روحها أشواق حبٍ بالسَّنَا مترع
تضمني.. فيرتوي خافقي وتلهث النيران في أضلعي
لكنني مددت نحو السّما كفيَّ.. في ضراعَةِ الركَّعِ
أرجو التفاتَ الوحي.. في خاطِري ويقظة الحياةِ.. في مَضْجِعي(١)

بنت جبيل ٩/ ٩/ ١٩٥٥م
٢١/ ١/ ١٣٧٥هـ

(١) قصائد للإسلام والحياة، ص: ٢٨ و٢٩.

أنا أهواك

(الخفيف)

ربِّ: مـالـي أبكـي ومـالـي أغنـي وحيـاتـي تصـدُّ نجـواكَ عنِّـي
أنـا أهـواك، لا لنعمَـاكَ تستهـو ي كيـانـي، ولا لجنّـة عـدن
أنـا أهـواك للهـوى تـرعـشُ الـروح ، بـأفيـائِـهِ، ويهتـزُّ لحنـي
للسمـاء الـزرقـاءِ، تنسـابُ منهـا شعلـةُ النُّـور فـي جـلالٍ وفـنّ
للهوى يوقِظُ الصبابةَ في الأعماقِ ، والحـبُّ مـائـجٌ بـالتغنِّـي
للـربيـعِ الممـراحِ يبتسـم العشـبُ بـواديـهِ، للنَّـدَى المطمئِـنّ

***

أنـا أهـواكَ: إن آثـامـيَ السـودَ .. ستنـداحُ فـي شعـاعِـكَ عنِّـي
أنـا أدري: بـأن خلـف ظـلالِ المـوتِ: إن ثـارت الغـريـزة سجني
وبـأنـي: إذا اقتحمـتُ لـذاذاتـي.. وأتـرعـتُ بـالغـوايـات.. دنّـي
سـوف أهـوي إلـى الجحيـم ولكـنْ أنـا أرجـو فـي ظـل عفـوِكَ أمنـي
ربِّ هـذي حقيبتـي ليـس فيهـا لـي مـن قـربـةٍ سـوى حسـنِ ظنِّـي

النجف الأشرف

١٩٥٤/٧/٦م

حائر أمامَ الله

(الخفيف)

حــائــرٌ. . والخيــال يمــرح فــي عينيــهِ رخــواً. . كخفقــةِ الأشْبَــاحِ
أيـن يجـري. . وفـي الطـريـق بقـايا أُغنيــات. . تعثّــرت بــالجــراحِ
فعلــى كــل خطــوةٍ جــرح حــب ذبلــت فيــه شعلــة المصبــاحِ
ودم الــذكـريـات ينسـاب فـي الـد رب حـزينـاً. . مـع الأغـانـي المـلاحِ
حسبــه أن يهــزّه النســم الــرخــو. . ليشكــو بلــوعــة ونــواحِ
كلمــا أومــأ الشــروق إليــه بــالسنــا. . راعــه انطفـاءُ الصَّبَـاحِ

❊ ❊ ❊

حــائـرٌ. . والشعــاع يلهــو بــدنيــا هُ. . وفــي روحِــهِ بقــايَــا ضبــابِ
يقطعُ الـدرب مطـرقـاً. . لاهـث الخطـو. . وحيـداً. . فـي وحشـة واغتـراب
هــو مــن طينــة التــراب. . ولكــن مــداه. . انطــلاقــةٌ فــي السحــاب
مــلَّ مــن عســف أرضــه فتهــاوى مثقــل الــروح بيــن فكّــي عــذاب
فهـو والليـلُ. . فـي صـراع عنيـفٍ يخنـق النـور فـي جفـون الشَّبَـابِ
كلمــا شــاقــه شعــاع الأمــانــي لفّــه الــدَّرْبُ فــي متــاهِ الســرابِ

❊ ❊ ❊

حــائــرٌ. . والحيــاة تلهـب نجـوا هُ ولطــف الــربيــع يهفــو إليــه

وأغـــانيــه تلتقــي فــي ينــابيــع ضحــاه، وتــرتمــي فــي يــديــه
وهـو نهـب الهـواجس السـود ملقـىً حــول لحـن يشـدو ويحنـو عليـه
يتلــوّى مــا بيــن حلـمٍ يـنـاغيـه . . ويــأسٍ يضـج فــي جـانبيـه
وإذا أشفقــت عليــه دمــوع اليـأ س . . فــي روحــه وفــي مقلتيـه
راعــه الـدمـع فـانثنـى فـي التيـاعٍ يــزرع الابتســام فــي شفتيـهِ

* * *

حــائـرٌ . . والضحـى يلـوّن دنيـا ه . . بــأطيــافِ لهـوه ومـراحِـهِ
ويثيــرُ الضحــى لينســاب فــي عينيــه . . حلمــاً منــوّراً بصبــاحــه
لــو تنـاسـى أحــزانـه . . لارتمـى الفجـرُ يـرشُّ الشعـاعَ فـي أفـراحِـهِ
فهــو إن لــوّن الأمــانـي وغنّـى واستثـار الشعــاع فــي مصبـاحـه
لــم يجِـدْ حـولَـهُ سـوى خفقـاتٍ تنثـرُ اليـأسَ فـي عميـق جـراحِـهِ

* * *

إنــه شــاعــرٌ . . فهــب روحَــهُ الحيـرى سـلامـاً يمـوجُ فـي أفـقِ نفسِـهِ
واحتضــنْ قلبــه فمَــا هــو إلا خفقـةٌ تنثـر الأسَـى فـوقَ بـؤسِـهِ
حســب دنيــاهُ منــك لفتــةُ حــبٍّ تبعـث الخِصْـبَ فـي قـرارة حسّـه
إنــه شــاعــرٌ . . يمــدّ إلــى المجهـول كفّــاً . . لا تستــريــحُ لجنسِـهِ
شــاقَــهُ أن يــرَاكَ فــانطلقــتْ دنيــاهُ بحثــاً عــن الخلــودِ وقــدسِـهِ
فتلمّــس جــراحَــهُ ـ ربِّ ـ وابْعَــثْ روعـةَ النُّـورِ فـي ديـاجيـرِ يـأسِـهِ

* * *

إنــه حــائِــرٌ . . تمــرّدَتِ الحيــرةُ فــي روحِــهِ . . وفــي آلامِـهِ
عــاش فــي الأَرضِ . . والشَّبــابُ بعينيــهِ يصــبُّ الــربيـعَ فـي أحـلامـه

فتمنى - لو يستطيع انطلاقاً في أناشيدِهِ.. وفي أنغامِهِ
ليوشّي الحياة بالطهر يسمو هادئاً.. في شعاعه وظلامه
غير أن التراب غلّ أمانيه وبثّ الشقاء في أيّامه
فاستحثَّ الخطى إليك ليلقى في حنايا نعماكَ: نبع سلامِهِ

***

بنت جبيل ٢٣/ ٩/ ١٩٥٦

في رحاب رسولِ اللهِ (ص)

من وحي الميلاد النبوي

(الخفيف)

يا نبيَّ الأحرارِ. . حرّر ندائي من حياةٍ. . مخنوقَة الأصداءِ
وازرع النُّورَ في دمي. . إن نجوايَ. . حروفٌ مغموسةٌ بدمائي
وتعهّد روحي. . لأبصر ذكراك. . بفكرٍ. . منوّرٍ. . بالسناءِ
فأحس الجمال. . والحقَّ. . والخيرَ. . ينابيع رحمةٍ واخاءِ
حول ترنيمةٍ. . تطلّع من فجرك. . رمزاً ليقظة الصحراءِ
مدّني بالحياةِ. . تقتحمُ الفنَّ. . فتستلُّ شعلةَ الأضواءِ
فلقد يعثرُ البيانُ ويجترُّ حديث الرواةِ والشعراءِ
إن تناءى عن الحياة. . ولم يحضن بكفيه. . رائعات السماءِ

* * *

مدّني. . بالحياة. . تبدع ميلادك. . فجراً معطّر الأجواءِ
يستحث الضباب. . في وهج الشمس. . ليذروه في دروب الفناءِ
ويثير الرمال. . في لهفة الصحراء. . نحو انتفاضةٍ هوجاءِ

ويحيل الأرض الجديبة حقلاً.. من طيوف.. وموجةً من رخاءِ
ويشدّ القوى.. فيلتهب الدرب.. وتضرى قوافل البؤساءِ
خطوةً خطوةً.. وأنت تقود الركب للنور.. للأماني الوِضاءِ
وعلى مفرق الطريق.. عوى البغي.. بأعراق أمّة عمياءِ
يستثير الظلام والحقد.. والشرَّ.. ليطوي بها لهيب النداءِ
غير.. أن النِّداء.. ما زال رعّاداً.. وما زال صارخاً بالدعاءِ
«أيها الجاهلون.. عودوا إلى النور.. فهذي طلائع الأضواءِ
حرِّروا رأيكم.. يحرِّرْكُم الإسلامُ.. من جاهليةٍ جوفاءِ»
يا نبيَّ الأحرار.. وانتحر الصمت.. ومرّت مواكبُ الأغواءِ
وتمطّى الظلامُ.. من رقدة الحلمِ.. وجُنَّت نوازعُ الآباءِ
فإذا أنتَ في شفاه (قريش) (خطرٌ) ينذر الورى بـ (الوباء)
ساحرٌ يدهش العقولَ بنجواه ويغوي حثالةَ البسطاءِ
ورفاق الطريق حولك.. وافترّت عن القوم بسمة استهزاءِ
إنهم من عبيدنا.. أفيمشون غدا.. في مواكب الكبراءِ
من تُرى عرَّف العبيدَ قضاياها وروّى حياتها بالرجاءِ

❊ ❊ ❊

وسجا الليل.. فانتبهت.. وعيناك.. التفاتٌ إلى جلال المساءِ
حاملاً في يديك قرآنك البكرَ.. وفي روحِكَ انتفاضُ الحداءِ
ثم مرّ النسيمُ.. وانسابت الآياتُ. في صوتِكَ الحبيبِ النائي
أيُّها الناسُ كلكم... لو عقلتم.. مبدأ الخلقِ من ترابٍ وماءِ
إن هذي الفروق أضعف من أن تتجنّى على طريق السواءِ
فاخنقوها.. ونضِّروا الروحَ بالتّقوى فإن الصباح للأتقياءِ

وتهاديت في الضحى.. وأبو جهل.. يعدّ السياط للضعفاءِ
حاملاً في يديه.. أغلال ماضيه وأثقال فترةٍ سوداءِ
يحسب السوط قوّةً.. تصرع الفجر.. وتودي بالدعوة السمحاءِ
ليس يدري أن العقيدة «بركانٌ» يثير الحياة.. في الأعضاءِ
ونذيرٌ.. بثورةٍ ترهق الطغيان ـ إن جنّ ـ في يد الأقوياءِ
كيف يهدا؟ وهذه الأمَة السوداء تضرى في ثورة الكبرياءِ
وعلى ثغرها.. ابتسامة هزءٍ بلهيب الجراح والبأساءِ
ثم ماذا.. وياسرٌ يتحداه بوحي الهدى ولحن السماءِ
ومضت لحظة.. وكان سنا الفجر يشق الطريقَ للشهداءِ
وإذا (بالنبي) يفتَتحُ النصرَ.. بزهوِ الشهادةِ الحمراءِ

***

واستفاق التاريخُ.. للثورةِ الكبرى بروحٍ جيّاشة الأصداءِ
ومضى يرقب الخطى في انطلاق الركب.. نحو الحقيقة البيضاءِ
ويُحسُّ اللحن الذي يحضن النصر.. ويحنو على ربيع الدِّماءِ
حذِراً.. يلمس الرمالَ التي مرّت عليها مواكبُ الأنبياءِ
ليرى كيف تبدعُ الخطوةُ الأولى.. جمالَ الحياةِ في البيداءِ
كيف يطوي الربيع.. في فجرِه البكرِ.. جنونَ الدجى وعسفَ الشتاءِ
ويرشُّ الثرى.. بأحلامه البيض.. فتزهو بخفقة الأشذاءِ
وهنا.. وانجلى الضبابُ عن الأفقِ.. وثار الشعاعُ في الأرجاءِ
.. راح يزجي الحديث خلواً من الزَّيْفِ بعيداً عن نزعةِ الإغرَاءِ
ويخط الخلودَ.. في سِفْرِهِ الخالِدِ.. رمزاً للدَّعْوَةِ الغرَّاءِ
مستمدّاً من وحي روحِكَ نجواهُ.. وعزمَ الصحابةِ الأصفيَاءِ

يـا نبـيَّ الأحـرار. مـرّت نجـاواك. . مـع الأمـس فـي دروب الضيـاءِ
تبعــثُ اليقظــةَ الحبيســة مــن أعمــاقِنَــا. . مــن مخــالــب الظلمــاءِ
وتصـب الحنـانَ فـي الأعيـن الحيـرى. . وتحنُـو علـى صـريـع الشقـاءِ
وتضمُ الحياة. . في وحدة الحبِّ. . لتطويَ نوازع البغضاءِ
وتثير الدنيا. . لتقتسمَ الحقدَ. . فتجني الثمارَ لَلأشقياءِ
حيـث لا مُتْـرَفٌ. . يعيـشُ علـى القِمَّـة فـي مشـرِقِ الضُّحـى الـلألاءِ
وضعيفٌ يعيش في السَّفْح عبداً لميولِ الطغاةِ والأغنياءِ
وإذا ما ارتمى على وهدةِ الجوعِ. . وناءَتْ حياتَه بالعناءِ
لـم يجـدْ غيـرَ كسـرةٍ وإنـاءٍ. . مـلأتـه الأقـذارُ بـالأقـذاءِ
كل ما ترتجيه. . أن تتلاقى في قلوب الورَى مجاري الهناءِ
ويثير الحياة في كلِّ عرقٍ من عروقِ الصحراءِ نبعَ سناءِ
في اشتراكيةٍ. . تقرِّر حق الفردِ. . في نزعةِ الغنى والثَّراءِ
وترى. . أنَّ في الثَّرَاءِ نصيباً ـ من صفايا الأرباحِ للفقراءِ
وحقـوقـاً. . لـو أنصـفَ النـاسُ. . لاهتـزَّت بـآفـاقنـا طيـوفُ الـرخـاءِ
ولعشنا معاً على الشاطئِ الحرِّ. . نشاوى. . في موكِبِ السُّعداءِ

***

يا نبيَّ الأحرار. . هذي سراياك. . أسارى في قبضَةِ الأعداءِ
خدعُوها باسم (الحماية) وامتدَّت يدٌ بالسلاسل الصَّماءِ
ترهق الشعبَ بالقَيودِ وتهوي بسياط اللَّظَى على الأبريَاءِ
ثم عادت. . باسم التحرُّرِ. . تدعُوْنا. . لأحضانِها. . وراءَ غطاءِ
وربحنا استقلاَلَنَا. . وملأنا الأفق بالشعر والهوى والغناءِ

وتوارى الدخيلُ خلفَ ستارٍ من نفاقِ الحكّام والزعماءِ. . .

ورآنا. . ونحن نرشفُ من وحيك. . كأسَ الحريَّةِ الحمرَاءِ

وبأصدائنا. . يُحَمْحِمْ تاريخٌ. . يمدُّ الصدَى بألفِ نداءِ

ويغذِّي الأرواحَ ـ من عبقِ الثَّورَةِ في روحِهِ ـ بخيرِ غِذَاءِ

فمضَى يحصدُ العقيدَة من أعماقِنَا البيضِ ـ باليدِ السوداءِ

ويميتُ الفكرَ. . الذي صنعَ التاريخ. . واقتاد ثورةَ العلياءِ

وتحدّى الأهوالَ. . فاْقتحمَ القِمّة. . حراً على نشيدِ الفداءِ

وجرى يهدمُ العبوديةَ العمياءَ فينا. . بمعولٍ بنّاءِ

ويرينا أن الحياة إذا لم. . تتبعِ الهدمَ في سبيلِ البِنَاءِ

سوف تهتزُّ في الطريق وتنهارُ. . أمام الرِّياح والأنواءِ

❊❊❊

هكذا يرتجي الدَّخيلُ. . حياةً في ظلامٍ ويقظةً في غبَاءِ

وشُعَوباً. . لا ترشُفُ الكأسَ إن لم تكُ في الكأسِ خمرة الحلفاءِ

وحدوداً في أمةٍ لم يفرّقها اختلاف الأشكال والأسماءِ

ودروساً تُملى. . فتحسبُ أنّا. . لم نزوّدْ من أمسِنا بعطاءِ

وتشلّ التاريخ. . في خطوِهِ الحرِّ. . فيهوي موزَّعَ الأشلاءِ

❊❊❊

هكذا يرتجي. . وما زال يقتاد فلولَ الأنصارِ والأصدِقَاءِ

. . غير أنّا هنا. . وقد ألهَبَ الفجرُ أناشيدَنا. . بوحيٍ مضاءِ

ورأيناكَ. . في الذُّرى. . تصرعُ الظلمَ. . بسوطِ العقيدةِ الشمَّاءِ

ولمسناكَ. . والفتوحاتُ في كفَّيْكَ. . تأبى طبيعةَ الخيَلاءِ

في سماحٍ . . لا يبتغي النَّصْرَ إلا لتبيدَ الحياةُ . . ركبَ الفناءِ
. . سوف نجري على خُطَاكَ بروحٍ تتلظَّى على نشيدِ الإِباءِ
ونعيدُ التاريخَ . . يستصرِخُ الأنصارَ في روعةِ الضُّحَى الوضَّاءِ

* * *

أنتَ تاريخُنا وأنت هدانا . . فتعهّد جراحَنَا . . بالشِّفَاءِ
واسكبِ الوحي في دمانا . . فقد حنّت أناشيدُنا لوحي السَّمَاءِ
وترفَّق بنا . . وجدِّد خطانا لحياةٍ علويَّةِ الإيحاءِ
لترانا غداً . . ونحن نقودُ الرَّكْبَ . . حُرّاً . . في ساحةِ الهيجاءِ
وأنا حسبيَ العبيرُ من الزهرِ . . ومن روحِكَ التفاتُ الرِّضَاءِ

* * *

بنت جبيل بتاريخ ٢٢/ ١٠/ ١٩٥٥م
نشر في العدد الثالث من مجلة العرفان،
في المجلد الثالث والأربعين ك١ ١٩٥٥/ج١ ١٣٧٥ .

يا رسول الله

(الخفيف)

يـا رَسُـولَ السَّـلامِ يَنْبُـضُ بـالـرُّوحِ حَيـاةً ورَحْـمَـةً وَجمـالا
أنْـتَ أطْلَقْتَـهُ لِينْعَـمَ فيـهِ الكَـوْنُ لُطفـاً ونِعْمـةً وظِـلالا
مِنْ جَلالِ الوحْيِ العَظيم، مِنَ الوحْيِ السماوِيِّ دَعوةً وابتهالا
مِنْ هُداكَ السَّمْحِ الطَّهُورِ يَضُمُّ الحُبَّ والخيْرَ روعةً وجَلالا

❊ ❊ ❊

أنْتَ رُوحُ السَّلامِ.. أيُّ سَلامٍ لَمْ يَفِضْ وحيُهُ مِنَ اليَنْبُوعِ
مِـنْ رَبيـعِ المشـاعِـرِ البيـضِ، فـي رُوحِ النُبـوّاتِ، مـن جَمـالِ الـرَّبيـعِ
مِنْ صَفاءِ الأَعْماقِ في هَدْهَداتِ الحُبِّ، من يقظةِ الضميرِ المَريعِ
مِنْ نَجاوى الرُّوحِ الَّتي تَتَلاقى في تَسابيحِها نَجاوى الجُموعِ

❊ ❊ ❊

أنْتَ رُوحُ السّلامِ أَطْلَقْتَ مِنْهُ شِرْعَةَ الحقِّ مَنْهجاً أريحَيّاً
بَعْضُ ما فِيهِ أنّهُ يُرهِفُ الحسَّ ضَميراً حَيّاً ورُوحاً نديّا
أُفْقُهُ الرَّحبُ يَحْمِلُ الرَّحْمَةَ الكُبرى لأَعدائِهِ شعوراً رَضِيّا
رَحمَةُ العَدْلِ حِينَ يَحْتَضِنُ الحَقَّ، فَقيراً ـ في دَربه ـ وغَنِيّا

❊ ❊ ❊

أنْتَ روحُ السّلامِ.. لَمْ يَتَفَتَّحْ لِلضُّحى عِندك السلامُ الكذوبُ
لمْ يَشُقْكَ الشعارُ يَحْمِلُ ألوانَ الأَماني تُغْري المدى وَتَخِيبُ
إنّما كنتَ ثَورَةَ الأَرْيَحِيّاتِ إذا امْتَدَّ مِنْ سَناها اللَّهيبُ
مَوْعِدُ السِّلمِ عِنْدَها مَشْرِقُ الفَجْرِ إذا أرْهَقَ الحياةَ الغُروبُ

* * *

مَوْعِدُ السِّلمِ: أن تُشَقَّ على هَدْيِ الرِّسالاتِ في الحياةِ الدُّرُوبُ
وَتُمَدَّ الجُسُورُ عِبْرَ الضِّفافِ الخُضْرِ، والبحرُ هائِجٌ مَرْهُوبُ
وَتُزَكِّي النُّفوسَ بالحقِّ والحكمةِ تَهدي وتَهتدي وتَطيبُ
.. أنْ تُناجِيكَ كُلُّ آياتِهِ البَيْضاءِ تَصْفو بِطُهرِهِنَّ القُلوبُ

* * *

يا رسولَ الأَخلاقِ.. تَمتَدُّ في الرُّوحِ كَما امْتَدَّ بالشُّعاعِ النَّهارُ
يَتمنّى أنْ يَغْمُرَ الكَونَ، كلَّ الكَونِ، لُطْفٌ مِنَ الضّحى مَوّارُ
وَرَخاءٌ تَرتاحُ في ظِلِّهِ الدُّنْيا وَتَجري عَلى اسْمِهِ الأنْهارُ
وَسماحٌ يَفِيضُ بالحُبِّ والنّعْمى وَتَهْفُو ـ لِصَفْوِهِ ـ الأسحارُ

* * *

وَحْيُكَ: الرَّحْمَةُ الّتي تُنْبِتُ القلبَ حَناناً وتملأُ الأَرضَ بِرّا
وتَهُزُّ الأَعْماقَ بالأَرْيَحِيّاتِ العَذارى تَفوحُ ـ كالزَّهْرِ ـ عِطرا
فَهيَ في السِّلْمِ دَمْعَةٌ لِليَتامى تَتَلَظّى حُزْناً لِتَدْفَعَ ضُرّا
وَهْيَ في الحَربِ روعةُ العَدْلِ في الإنسانِ تَسْتَنْزِفُ المشاعِرَ طُهرا

خُلُقٌ تُومِضُ الوَداعَةُ في عَيْنَيْهِ كالفَجرِ في عُيُونِ الشُّروقِ
قَلْبُهُ الرَّحبُ . . في رَحابَتِهِ الدُّنيا، بما امْتَدَّ مِنْ سَماحٍ رَفيقِ
حَسْبُهُ : أنّهُ يَمُدُّ إلى كُلِّ يَدٍ للسَّلامِ، كَفَّ الصَّدِيقِ
وَيُنيرُ القُلوبَ، بالكَلِمِ الطيِّبِ، إنْ أظْلَمَتْ نجاوى الطّريقِ

***

فَبِما رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ . . كُنتَ اللَّيِّنَ السَّهْلَ في الشُّعورِ الرَّحِيمِ
كَلِماتٌ تَرْتاحُ في الجَنَّةِ الخَضْراءِ، في أُفْقِها الودِيعِ الحَليمِ
لَستَ فَظَّ اللِّسانِ، لَستَ غَليظَ القلبِ، بل كنتَ رحمةً للخُصومِ
. . والتَقى المُسْلمونَ حَوْلَكَ في رُوحٍ وَدِيعٍ في كُلِّ خُلقٍ كريمِ

***

أيُّ خُلْقٍ . . هذا الذي تُولَدُ الرَّحْمَةُ فِيهِ على شِفاهِ الدُّعاءِ
في خُشوعِ الرِّسالةِ الحيَّةِ البَيْضاءِ في الفَجْرِ في هدى الأَنْبياءِ
رَبِّ : يا باعِثَ الحَقيقَةِ تَزْهُو الأرضُ في رُوحِها بوَحْيِ السَّماءِ
إهْدِ قَوْمي، واغْفِر لَهُمْ وافْتَحِ الأَعْيُنَ مِنهم على هُدى الإسراءِ

***

أيُّ خُلْقٍ هَذا . . وَيُمْعِنُ بالعَسْفِ طُغاةُ الضَّلالِ كفراً وحِقْدا
وَيُنادُونَ : إنَّهُ السِّحْرُ، فَلْنَخنُقْ تعاوِيذَهُ، لِنَبلُغَ رُشْدا
ويَقُولونَ : إنَّهُ الشِّعْرُ، يا لِلشِّعْرِ يَنسابُ في المشاعِرِ شَهْدا
إنَّه حامِلُ الأَساطِيرِ، فَلْنُبْطِلْ أساطِيرَه انْتِقاماً ورَدّا

***

.. وتمرّ السُّنونُ خَلْفَكَ في الصَّحْراءِ تَخْطُو على حَكايا العَبيرِ
في رَبيع الخُلْقِ الرَّضِيِّ الذي يَغْسِلُ بالحُبِّ هَمْهماتِ الصُّدورِ
وَيَرُشُّ الأرض الجَديبَة بالألْطافِ خِصْباً يَرِفُّ فَوقَ الصُّخورِ
وتَعيشُ الدُّنيا لِتَحلُمَ بالخُلْقِ الإلهِيِّ.. مِنْ رَسولٍ كبيرِ

***

وَتَمُرُّ السُّنونُ ـ بَعْدَكَ ـ والإسلامُ يَخْطُو على هُداكَ الحَبيبِ
يتهادى تأريخُكَ الحُرُّ في عُمْقِ السَّرايا... وفي شِغافِ القُلوبِ
كل لُمْحٍ مِن سِيرَةِ الحَقِّ نَفْحُ العِطْرِ في خُطْوَةِ الرَّبيعِ الخَصيبِ
وشُعاعٌ يَهدي السَّبيلَ إلى كلِّ انْطِلاقٍ عَلى امْتِدادِ المَغيبِ

***

وَهُنا نَحنُ في خُطاكَ النَّدِيَّاتِ.. إلى دَعْوَةِ الشروقِ نُشِيرُ
دَرْبُنا دَرْبُكَ الطَّهُورُ إلى الله.. وخُلْقٌ مُنَضَّرٌ وشُعورُ
وحَياةٌ كلُّ الهُدى، في هُداها السَّمْحِ.. أنّى تَلَفَّتَتْ فَهيَ نُورُ
وَغَدٌ واعِدٌ بِكُلِّ مَواعِيدِ الجِنانِ الخَضْراءِ.. حَيْثُ يَسِيرُ

***

يا رَسولَ الخُلقِ العَظيمِ.. هُنا نَحنُ نُعاني مِنْ وَسْوَساتِ الضَّلالِ
مِنْ نجاوى لا يستَريحُ لها الشَّوْطُ.. ففي وَحْيِها جُنونُ اللَّيالي
وَحَديثٌ فَظٌّ.. وَقَلْبٌ حَقُودٌ يَسْتَثيرُ البَغْضاءَ في كلِّ حالِ
فيخالُ الإيمانَ عَسْفاً.. ويَنْسى خُلقَكَ السَّمْحَ في ضميرِ الرِّجالِ

***

يا رَسولَ الخُلْقِ العَظيمِ.. متى يَصْحُو السُّكارى مِن خمرَةِ الغافِلينا
هــؤلاءِ الــذيــنَ يَحْيَــونَ لِلــذّاتِ خُشُــوعــاً وَرَغْبَــةً وَحنِينــا
هَمُّهُمْ: أنْ يَعِيشَ فِيهِم هُدى اللهِ بَعيداً عَنْ خُطْوَةِ العامِلينا
وَرؤاهُم: أن يَدْخُلوا جَنَّةَ اللهِ.. وإن أُغْلِقَتْ عن العالَمينا

❊ ❊ ❊

يا رسولَ الخُلقِ العَظيمِ.. هُنا نَحْنُ الْتِفاتٌ إلى الذُّرى وانْفِتاحُ
أنتَ كُلُّ الذُّرَى التي تَحمِلُ الشَّمْسَ فَيَزْهُو في جانِحَيْها الصبَّاحُ
وَهُنــا نَحْــنُ فــي السُّفــوحِ بَقــايــا مِــنْ فُلــولٍ تَلْهُــو بِهــا الأَشبــاحُ
مِنْ ظلامِ العُصورِ حَيثُ استراحَ الجَهْلُ للحُكمِ وَهْوَ ظلمٌ صُراحُ

❊ ❊ ❊

يوميّات إسلاميّة

(الخفيف)

ربّ.. هـذا المسـاءُ وحـيٌ حـريـريٌّ وإبـداع فتنـةٍ سـوداءِ
قد يعيش الظلامَ قومي على خوفٍ شديدٍ من هجمة الظَّلماءِ
غير أنّي عشتُ الظلام صفاءً في حياتي في يقظةٍ وانتشاءِ
في هدوءٍ أكادُ أسبحُ في أمواجِهِ السُّودِ في رؤى الأنبياءِ
وبروحي إغفاءةُ الحلمِ الناعمِ يمتدُّ في الرّبى الخضرَاءِ
وبقلبـي نجـوَاك يـا للنقـاء الأبيِضِ الأريحـيِّ فـي الأصـداءِ
أنا حسبي أنّي أراك شُرُوْقاً يتجلّى في خاطري وندائي

* * *

ربِّ صليتُ.. كُلُّ قلبي هتافاتُ صلاةٍ لقدسِكَ الربَّاني
حَمَلَتْنِـي إليـك أجنحـة النُّـورِ ابتهـالًا يفيـضُ بـالإيمـانِ
ودعتنـي إلـى مـواسـمِ نعمـاك عطـايَـاك فـي نعيـمِ الجنـانِ
ليسـت الجنـةُ التـي تعـدُ التقـوى بهـا المتقيـن عبـر الحنـان
هي مهوى قلوبنا، بل هي الجنّة في عفوك الحبيب الحاني
حيث نلقاكَ في ذرى القدس، في اللُّطفِ، بروحٍ تفيضُ بالرِّضْوَانِ

حسبنا ـ يا رفاقُ ـ أَن نرصد الغايةَ نحيا في وحيها ونطوفُ

في حديث السُّمَّار في ندوةِ الفكرِ.. إذ استلهمَتْ هداهَا الحروفُ

في الهتافاتِ ترفع الصوتَ هدّاراً قويّاً تهتزُّ منه الظروفُ

في حكايا الأطفالِ، في ملتقى النشيءِ إذا امتد فيه وحيٌ خفيفُ

في الربيعِ الريّانِ في ملعبِ الصيفِ، وإن عانقَ الشتاءَ الخريفُ

حسبُنَا ـ يا رِفَاقُ ـ أن نلتقيَ الغايةَ تزهو على مدَاها الطُّيُوفُ

* * *

يا ظلال الإسلام.. لن يقف الركب

يا ظلالَ الإسلامِ . . يا فَرْحَةَ الفَجْرِ . . بِتاريخِ مَجْدِنا وَهُدانا
نَحْنُ في الدَّرْبِ . . في هَجيرِ الصَّحارى . . في لَهيبٍ يَجْتاحُ كُلَّ مُنانا
يَقْتُلُ الحُلْمَ بُرْعُماً . . مِثْلَما يَزْرَعُ أَحقادَ يَأسِهِ في دِمانا
وَمدانا تِيهٌ . . أَضاعَ هُدى اللهِ . . فَعاشَتْ مَعَ الضَّلالِ خُطانا

* * *

يا ظلالَ الإسلامِ نَحْنُ ـ بِرَغْم اللَّيْلِ ـ شَوقٌ إلى نَذيرِ الكِفاحِ
وَجِهادٌ، مَعَ العَقيدَةِ . . حَتَّى النَّصْرِ، حَتَّى انْطِلاقَةِ الإصباحِ
وانْفِتاحٌ على الحَياةِ . . لِيَجْري الحَقُّ . . في مَوكِبِ السَّنا الوَضَّاحِ
ويَعُودُ المَدى إلَيْنا حَياةً تَحْمِلُ الفَتْحَ في جَبينِ الصَّباحِ

* * *

يا ظلالَ الإسلامِ . . ما زالَ للتّاريخِ . . في دَرْبِنا . . عَطاءٌ كَبيرُ
يُلهِمُ السَّائِرينَ . . في الدَّرْبِ نَحْوَ اللهِ . . أَنَّ الخُطى إليهِ تَسِيرُ
أَنَّ أَهْدافَنا الكِبارَ . . إذا امْتَدَّتْ . . سَيَمْتَدُّ ـ مِنْ هُداها ـ النُّورُ
وَيَعُودُ القُرْآنُ . . يَبْتَدِعُ الفِكْرَةَ . . في كُلِّ خطوةٍ . . وَيُنيرُ

يا ظلالَ الإسلام: قَدْ ظَمِأَ الدَّرْبُ، لِوَحْيِ العَقِيدَةِ السَّمْحاءِ
وَتَلَظَّتْ رِمالُهُ، وَتَلَوَّتْ، بالنَّجَاوى، حَناجِرُ الصَّحْراءِ
نَحْنُ جُوعُ الحَياةِ لِلحقِّ، يَنْسابُ بأرْواحِنا انْسِيابَ الضِّياءِ
وَيُرَوِّي الإيمانَ، بالأَرِيجِيّاتِ العَذارى، في مُلْتَقى الأنْبِياءِ

***

يا ظلال الإسلام: رُبَّ طَرِيقٍ قد سَلَكْناهُ في دَياجِي الضَّلالِ
وَعشِقْنا رُؤاهُ، حَتَّى تَهاوَتْ ـ عَبْرَ أجفانِهِ ـ طُيُوفُ الظِّلالِ
وأَفَقْنا.. كُلٌّ يُغَنِّي لِلَيْلاه.. يُناجِي بَوارِقَ الآمالِ
لَيْس لِلحقِّ في مَدانا انْطِلاقٌ تَزْدَهِيهِ قَوافِلُ الأجْيالِ
يا ظِلالَ الإسلام: لن يَقِفَ الرَّكْبُ.. وإنْ بَعثَرَتْ خُطانا الرِّياحُ
لَنْ نَمَلَّ المَدى، وإن تَعِبَ الحادِي.. وجُنَّت بِجانَحينا الجِراحُ
الدُّجى خَلْفَنا، وَحوْلَ خُطانا لِلسَّنا مَلْعَبُ الضُّحى والمِراحُ
وبأعْماقِنا مِنْ الآي، وَحْيُ الحَقِّ، يُغدى بِنَهْجِهِ وَيُراحُ

***

يا ظِلالَ الإسلام: هلْ لَمَحَتْ دُنْياكَ في الفَجْرِ فَجْرَنا الذَّهَبِيّا
هَلْ تَلَمَّسْتَ زَهْوَ أحلامِنا البِيْضِ، وَلَوَّنتَ وَحْيَه العَبْقَرِيّا
نَحْنُ في دَرْبِنا هُنا.. نَحْنُ حُلْمُ الدَّعْوَةِ البِكْرِ في جُفونِ الثريّا
وَغداً يَطْلَعُ الصَّباحُ وَنَلْقاك، شُمُوخاً وَمَنْهَجاً أحمَدِيّا

***

يا ظِلالَ الإسلام: ما زالَ في السَّاحةِ وَحْيٌ لِخائِنٍ أوْ جَبانِ
يَحْشُدُ الأُفقَ بالتَّهاوِيلِ والأهْوالِ واليَأْسِ والأَسى والدُّخانِ

ويُثِيرُ الشُّكوكَ حَوْلَ سَرايانا بِروحٍ مَشْلولَةِ الإيمانِ
هَمُّهُ أن يَمُوتَ وَحْيُ الضُّحَى السَمْحِ لِيَبْقى وَحْيُ الدّجى بأمانِ
يا ظِلالَ الإسلامِ.. قَدْ يَبْلُغُ القِمَّةَ جِيْلُ السُّرى، وَيَغْزو المحالا
إنَّها عَزْمَةُ الحَياةِ، فَمَنْ يَهوى الأعالي، لا يَعْشَقُ الأوحالا
قَدْ يُثيرُ الظَّلامُ، خَطْوَ الأعاصيرِ، فَتَجْري لِتَصْنَعَ الأهْوالا
غَيْرَ أنّا هُنا سَنَبْقى نَرُشُّ الدَّرْبَ، حُبّاً، وَيقْظَةً وَجمالا
قَدْ يَقُولُ المُعَوِّقُونَ، إذا سِرنا، رُوَيْداً فَدَرْبُكُم أخْطارُ
فَعَلى كُلِّ خَطْوةٍ يَكمُنُ المَوْتُ.. وَيَضْرى ـ على الطَّريقِ ـ الدَّمارُ
لا تُثيروا الغُبارَ في زحمَةِ الرّكْبِ، فَقَدْ يُثْقِلُ العيونَ الغُبارُ
أتُرانا نُصْغي؟ أنَتْرُكُ مَسْرانا لِقَولٍ يُثيرُه الأشْرارُ؟

***

لَنْ تُخِيفَ الإيمانَ، جَلْجَلَةُ المَوْتِ، إذا عَرْبَدَتْ رياحُ الشِّتاءِ
لَنْ تُعِيقَ الأخطارُ، خَطْوَ الرِّسالاتِ، وَشَوْطَ الحقيقةِ البيضاءِ
إنَّما النَّصرُ لِلعَقيدَةِ مَهْما امْتَدَّ في الدَّرْبِ مَوْكِبُ الشُّهَداءِ
إنَّه وَعْدُنا المُقَدَّسُ، وَعْدُ اللهِ، بالنّصرِ في غَدِ الأمَناءِ

***

يا ظِلالَ الإسلامِ.. وانْطَلَقَ (الفِكرُ) يرينا ـ في كلِّ يومٍ ـ قَرارا
يَحمِلُ الزَّيْفَ والخِداعَ لِيُوحي أنَّ لِلْحَقِّ ـ في مداهُ ـ انْتِصارا
وإذا بالإسلام مَعْنىً يَضُمُّ الخَيْرَ والشَرَّ والدُّجى والنَّهارا
وإذا الدِّينُ (غايَةٌ) تتبَنّى كُلَّ يَومٍ وَسيلَةً وَشِعارا

***

يزْعُمونَ الإسلامَ، رُوحاً يَعِيشُ (الخُلدَ) إيحاؤها ويَرْمِي القُشورا
تَحضُنُ الخَيْرَ والمَحبّةَ والنُّورَ، وتَبْني لِكُلِّ حَيٍ ضَمِيرا
وإذا عاشَتِ الشُّعوبُ بِروحِ الدّينِ وَعْيًا وَفِكرةً وَشُعُورا
فَلْتَكُنْ لِلحياةِ، حُرِّيَةُ الدّربِ لِتَبْني ـ باسْم الرُّقيِّ ـ العُصورا

❊ ❊ ❊

يا ظلالَ الإسلام.. كَيْفَ يَكُونُ الدّينُ رُوحاً تَعيشُ منْ غيرِ جسمِ
كَيْفَ يَحيا العَبيرُ، في خاطِرِ الحَقْلِ، إذا لَمْ يَفُحْ بزهرةِ حُلمِ
إنَّها (الصورة) التي شاءَها الكُفْرُ، لِيُوحي كما يُريدُ، ويُعْمِي
وَيعُودُ الإسلامُ قِصَّةَ تاريخٍ.. تَرامَتْ ما بَيْنَ حَرْبٍ وسِلْمِ

❊ ❊ ❊

غَيْرَ أنّا لَنْ نَتْرُكَ الحَقَّ لِلتِّيهِ، ولنْ نُسلِمَ الهُدى لِلضَّلالِ
فِكْرُنا في الذُّرى ونَجْوى هُدانا يَقْظَةُ النُّورِ في مدى الأجيْالِ
نَحمِلُ الدّينَ شِرْعةً تَرْسِمُ الدّربَ وَوَحياً يُنيرُ دَرْبَ الليالي
وَكياناً يَعلُو، لِيَحْكُمَ ـ باسمِ اللهِ ـ دُنْيا الشُّرورِ والأهْوالِ

❊ ❊ ❊

وهُنا نَحْنُ لا تَزالُ لنا (بَدْرٌ) وَوَحْيُ انْطِلاقةِ (الأحزابِ)
مِنْ هُداها نَسْتَلْهِمُ الوَحْيَ رَيّانا وَنحْياه في حَنايا الكِتابِ
وَعلى دَرْبِها تَخُطُّ الدِّماءُ الحُمْرُ، للتّائِهينَ دَرْبَ الشّبابِ
وبأيمانها افْتَتَحْنا خُطى النَّصْرِ.. وسِرنا في مَوْكِبِ الأطيابِ

❊ ❊ ❊

أينَ تَمضي؟

يا ظلالَ الإسلامِ: وأمْتَدَّتِ الأصداءُ وامتدَّ حولَها الإيمانُ
فإذا بِالْمَآذنِ البيضِ، في كل مَكانٍ، يُظِلُّهُنَّ الأذانُ
في دُعاءٍ يَدْعُو، ويَحْنُو، خُشُوعاً، حَسْبُكَ اللهُ، أيُّها الإنسانُ
أَيْنَ تَمْضي عَنْهُ بعِيداً بَعيداً نَحْوَ دُنْيا يَحُوطها الشَّيطانُ

***

أَينَ تَمْضي وهاهُنا في حَمى اللهِ يَعِيشُ الفَلاحُ والرُّضْوانُ
وَيطُوفُ الهُدوءُ بالنَّفْسِ في جوٍّ رحيمٍ يَحُوطهُ الغُفْرانُ
هاهُنا. حَيْثُ لا الظَّمأ يُلهبُ الرُّوحَ، فَبالله يَرْتَوي الظَمْآنُ
هاهُنا الحَقُّ، والتُّقى، وانطلاقُ الفِكْرِ، وَالخيرُ والهُدى والحَنانُ

***

أَيْنَ نَمْضى ماذا إذا انْتَحَرَ العَقْلُ وَماتَتْ آفاقُهُ في مُدانا
وحَطَمْنا التَّاريخَ والوَحْيَ والإيمانَ والرُّوحَ في انطلاقِ خُطانا
وَمَضَيْنا نَلْهو... نُثيرُ حَياةَ الخَدَرِ الحُلْوِ في الطَّريقِ دُخانا
نَتَساقى في العُمْرِ ـ كَأسَ اللّذاذاتِ العَذارى ـ مَعاً لُنروي ظَمآنا

***

أينَ نَمضي.. ويُمعنُ الليلُ زَحْفاً ـ كالأفَاعي ـ في وَعينا وَرُؤانا
هِـيْ غَيبـوبَـةٌ.. وَتَشـرُدُ دُنيـانـا وتَفتـنُّ تَحشـدُ الألـوانـا
وَتُثيرُ اللظـى فَنَحـنُ أحـاسِيـسٌ تَلظـى فَـأرْهَفَـتْ نَجـوانـا
ثـمَّ نَصَحُـو علـى الحقيقـةِ لا نَسمـعُ إلا الصُّـراخَ والهـذيـانـا

***

لَـوْ هَـرَبنـا مِـنَ الـدُّرُوبِ التـي تُـوقِـظُ فِينـا الحيـاةَ والإيمـانـا
وَحَمَلْنـا أشـواقَنـا وَأمـانِينـا إلـى حَيـثُ نَستثيـرُ الـزّمـانـا
وَحَطمْنا الماضي وَعِشنا بِروحٍ وُلدت في الضحى وَغَنّتْ مُنانا
وَبَدأنا إرادَةَ العمـرِ حَتّـى نَستعيـدَ الشبابَ والعنفوانا
لوْ هَرَبْنا فَهَلْ تُعانِقُنا الأضْواءُ، هَلْ تَحْضِنُ الحَياةُ سُرَانا؟
أيُّ أُفْـقٍ نُـريـدُ؟ والكَـوْنُ مـا زالَ يُقِيـمُ السّـدُودَ والجُـدْرانـا
أيُّ حُلْمٍ نَرْجُو فما الحُلْمُ إلا لَمَحاتُ السّرابِ في دُنْيانا
لَوْ هَرَبْنا مِنْ كُلِّ شَيءٍ فَهَلْ نَهْرُبُ مِنْ عَتْمةِ الأسى في دُجانا

***

أيْـنَ تَمْضـي مـاذا لَـدَيْـكَ سِـوى الحِسِّ، تُغَـذّيـهِ واشْتِهـاءا
أيْنَ تُرْوي ظَماكَ والحِسُّ نارٌ تَتَلَظّى، لا تَعْرِفُ الإنْطِفاءا
كُلُّ أحْلامِكَ العِذابِ تُرابٌ فَرؤى الأرْضِ لَنْ تَنالَ السّماءا
ثُمَّ ماذا؟ لا شَيْءَ عِنْدَكَ إلّا وَحْشةٌ تَغْمُرُ الرُّؤى الظّلْماءا

***

أيْنَ نَمْضِي وَلا حُدُودَ هُنا، لا مَوْتَ، إنَّ الحياةَ جِسْرُ الخُلودِ
يَتَسامى فِيه الشُّعورُ إلى الذُّرْوَةِ، حَيْثُ الإلهُ سِرُّ الوُجودِ

يَستَمِدُّ الإنسانُ مِنْ نُورِهِ الرَّحْبِ، شُعاعاً لِقَلْبِه المَنْكودِ
فتَمُوتُ الآلامُ في فَرْحَةِ اللُّقْيا، وَتَحْيا لِفَجْرِها الْمَوْعُودِ

***

أين تَمَضِي عَنْه؟ إلى أين؟ هَلْ تَمْلِكُ دُنْياكَ رَوعةُ الأحْلام؟
كَيْفَ تَحْيا، إنْ لَوَّنَ اليَأسُ وَجْهَ الأمَلِ الحُلْوِ، بالأسى والظلامِ
أيــن تَمْضــي؟ وكُــلُّ دَرْبِــكَ أشــواكٌ، تُغَنِّيــكَ غِنــوةَ الآلامِ
إتّق الله، فالتُّقى يَخْنُقُ اليَأسَ، يُزيلُ الأسى عن الأنغامِ

***

إتّــقِ الله، فــالتُّقــى يَفْتَــحُ الأبــوابَ، لِليــائِسيــنَ عِبْــرَ الــرّجــاءِ
لا تَرى عِنْدَهُ سِوى الرّحْمَةِ الكُبرى، تُريكَ التِفاتَةَ النَّعْماءِ
وَحِّدِ الدَّرْبَ نَحْوَهْ، فَهُوَ يَكْفِيكَ ـ إذا ما اهتديت ـ كلَّ عَناءِ
إنّه واهبُ الحَياةِ، وَحَسْبي أنَّني ـ في حِماهُ ـ ألقى عَزائِي

***

يا ظلالَ الإسلامِ: هذا أنا، في كُلِّ دَرْبٍ، مشى عليه الجِهادُ
لَمْ يَزَلْ لِلمآذِنِ البِيْضِ، مَجْدُ الذِكْرِ تَحيا بزَهْوِهِ الأمجادُ
خَلَّدَتْ دَعْوَةَ الرِّسالاتِ، فاهْتَزّ لأنْغامِها العِذابِ الجَمادُ
واستَمَدَّ الإنسانُ مِنْها حَياةً يَلْتَقي عِنْدَها، الهُدى والرَّشادُ
غَيرَ أنّي لَمْ ألْمَحِ الرّكْبَ في الدرّبِ مُجِدّاً.. في رحلةِ التضحياتِ
ثَقُــلَ الخَطْــوُ، وانْحَنــى الــدَّرْبُ وارتــاعَــت، بــدنيــاهُ، رَوعــةُ الأغنيــاتِ
واستَثارَتْ، تُوهِي عَزائِمَهُ الكُبرى، مَعَ الليلِ، موجةُ المُغرياتِ

فَمَضى تَزْدَهيهِ شَهْوةُ دُنْياهُ ـ بَعِيداً عَنِ الهُدى والعِظاتِ

***

أنا في الدّرْبِ، وَالمَساجِدُ ألوانٌ، مِنَ الفَنِّ والرِّياشِ البَديعِ
تَزْدَهي بالضّياءِ، مِنْ كُلِّ لَوْنٍ في إطارٍ مِنَ الجَمالِ الوَدِيْعِ
نتبارى، في رَوْعَةِ الفَنِّ، فِيها طَمَعَاً في ابتِداعِ فَنٍّ رَفِيعِ
غيرَ أنّي لَمْ ألمحِ الوَحيَ في المَسْجِد، يَنهلُّ في جَلالِ الخُشوعِ

***

لمْ أجِدْ في الصَّلاةِ إيقاظَةَ الرّوحِ، وَتَرْنيمَةَ الهُدى والفَلاحِ
وَسُمُوّاً بالفِكرِ حَتّى لَتَحيا كُلُّ دُنْياهُ، في دُرُوبِ الصَّلاحِ
وابْتِهالاً، يَهْفو إلى رَحْمَةِ الله، إلى وَحْي لُطْفِه النَفّاحِ
وَحَنِيناً إلى الحَقيقَةِ في اللّيلِ اشْتِياقاً إلى طُلوعِ الصّباحِ

***

يا ظِلالَ الإسلامِ: هذا أنا في الدَّرْبِ.. لكِنْ أيْنَ انطلاقُ الدُّعاةِ
أيْنَ صَوْتُ الإسلامِ، تَحْتَضِنُ الكَونَ نَجاواهُ.. في نَشيدِ الهُداةِ
أيْنَ تِلْكِ الرُّوحُ الّتي تَتَلَظّى أمَلاً، في انتِصارِ مَجْدِ الصَّلاةِ
أيْنَ ذلكَ الوَعيُ الذي فَجّرَ الفِكْرَةَ، بالطُّهْرِ في ضَميرِ الحَياةِ

***

أنا في الدَّرْبِ والدُّعاةُ كثيرُونَ ولكِن.. ماذا وَراءَ العَدِيدِ
أتُرانا نَسْمو.. ونَحْنُ نَعيشُ العُمرَ لِلمَجدِ، في الطريقِ البعيدِ
هِيَ أمْجادنَا، نشِيدُ ذُراها بالرِّسالاتِ في انْطِلاقِ الخُلودِ

ذَاتُنَا، هَمُّنا، الذي يُتعِبُ الوَحيَ، وَيَطويهِ في غِمارِ الجُمودِ

* * *

خَمَدَتْ شُعلةُ الرِّسالاتِ في الرُّوحِ، فَلَمْ تَنْطَلِقْ مَعَ الأبرارِ
لَم تُلوِّنْ حياتَنا الأريحياتُ العَذَارَى، في هَدْأَةِ الأسْحَارِ
لَمْ تُؤَرِّقْ أَجْفانَنا، لَوْعَةُ الآلامِ، في خاطِرِ الضُّحى المَوّارِ
نَحْنُ، مَنْ نَحْنُ؟.. نَحْنُ أشباحُ ماضِينا، بَقاياهُ في الخَيالِ السّاري (١)

* * *

(١) يا ظلال الإسلام، ص ٢٧.

أيها الملحدون

يا ظِلالَ الإسلامِ: دَرْبُ الأعاصيرِ طَويلٌ في رِحْلَةِ الإنْسان
لَنْ تكِفَّ الزوابَعُ السُّودُ، لن تهدأ في الأُفْقِ ثورَةُ البُرْكان
لَنْ يَمَلَّ المقامِرونَ فما زال على الدَّرْبِ مَوْعِدٌ لِلرّهان
غَيرَ أنَّ الحياةَ لا تَتْرُكُ الشَّوطَ كَئيباً في مُلتَقى الإيمان

❊ ❊ ❊

يا ظِلالَ الإسلامِ: رُبَّ غُيومٍ في سَمانا، تَلَبَّدَتْ، كالدُّخان
واستَراحتْ في مُلتَقى الفِكرِ، في أعمَاقِنا البيضِ، في نِداءِ الكَيان
أطْبَقتْ فَوْقَنا، ومَدَّت عَلَيْنا ظُلَلَ الشكِّ في المَدى الحَيْران
وإذا بالسُّؤالِ يَلْهَثُ مَذْهولاً على كُلِّ خاطِرٍ ولِسان

❊ ❊ ❊

نحْنُ عِشْنَا ضَبابَها في أغانينا العَذارى، قَبلَ انطلاقِ المَسيرِ
وحَمَلنا أثقالَها في مَدَانا عَبْرَ فِكْرٍ يَعيشُ ثِقْلَ المَصيرِ
ومَشَيْنا تَجْتاحُنا العاصِفاتُ الهُوجُ في مَوكِبِ الحياةِ الكبيرِ
تُرْهِقُ الحِسَّ، كُلَّما ارتاحَ وَحيٌ في الرُّؤى استسلَمت لِعِبءِ الأمورِ

❊ ❊ ❊

رِحْلةُ الفِكْرِ، لا تَزالُ كما كانتْ مَعَ الأمسِ، بينَ مَدٍّ وَجَزْرِ
تَتَوالى أَمامَهُ، كُلُّ أهوالِ الدّياجيرِ في انْفِعالٍ وذُعْرِ
كلَّما أظْلَمَتْ بِدُنْياهُ أوهامٌ أَطلَّتْ عليهِ رَوْعَةُ فَجْرِ
دَرْبُهُ الشَّكُّ والتَّساؤُلُ لكنْ قَدْ تُضيءُ الطَّريقَ يَقْظةُ فِكْرِ

❊ ❊ ❊

وَحْيُهُ، كانَ، فَلْسَفاتِ حَياةٍ أَسْلَمَتْ خَطْوَها لِدَرْبٍ طَويلِ
يَلتَقي بالْفَراغِ، يُومي إلى المجهولِ في وَحْيِ رِحْلَةِ المَعْقُولِ
لا يَمُوتُ الخَيالُ فِيهِ فَفي كُلِّ مَجالٍ مَنابِعٌ للذّهُولِ
يَتَمَنّى أنْ يُدرِكَ الكُلَّ جُزءٌ في غِياباتِ عالَمٍ مَجْهولِ

❊ ❊ ❊

الذُّرى لَنْ تَمُدَّ للشَّمْسِ عَيْنَيها فَدَرْبُ الشُّموسِ لَا يَتَناهى
حَسْبُهُ، أنّه إذا شاءتِ الأعْيُنُ قُرْباً تَمَزَّقتْ مُقلَتاها
يَظْمَأُ الْعَقْلُ في مَسيرَته الكُبرى إلَيْها وَيَنْحَني لِسَماها
كَيفَ يَسْمو التُّرابُ نَحْوَ يَنابيعِ السَّنا الحُرِّ، كيْفَ يَلقى اللهَ

❊ ❊ ❊

هُوَ وِجْدانُنا الَّذي يَحْمِلُ الشُّعلَةَ طِفْلاً على الطَّريقِ وَكَهْلا
عاشَ، مُذْ كانَتِ الرّسالاتُ في الغَيْبِ طريقاً إلى الأُلوهَةِ سَهْلا
ورَبيعاً يَخْضَرُّ في وَحيِهِ وَحْيُ النُّبُوّاتِ مِنهُ روحاً وعَقْلا
هو لا الفلسفاتُ، مَورِدُنا الأصفى، إذا أسرَعَتْ خُطى الفكرِ عَجْلى

❊ ❊ ❊

هوَ وِجْدانُنا الَّذي أبْدَعَتْهُ في حَياةِ الإنسانِ رُوحُ السّماءِ

وَحْيُهُ الطُّهْرُ والمَعاني التي توقِدُ في النَّفسِ جَذْوَةَ العَلياءِ
وَمَـداهُ الإيمـانُ والحُـبُّ والخيـرُ وَوَحْـيُ الـرَّبيـعِ لـلأَنْـداءِ
وَنَجاوى الضميرِ، إذْ تَهمِسُ الأعماقُ تَهْمي بِنَفْحَةِ الأَشْذاءِ

***

هُـوَ وِجْـدَانُنَـا الَّـذي تَحْلُـمُ الأَفْكـارُ فيـهِ، بِهَـدْأَةِ الأَسْحـارِ
بانطِلاقٍ، لا يَمْنَعُ الرُّوحَ أن تَسْبَحَ كالحلْمِ في مَدى الأَنْوارِ
بِحَياةٍ، لا تحْجُبُ العَقلَ أن يُبْصِرَ وَحْيَ الهُدى بقلبِ النّارِ
بِسَمـاءٍ تَشُـعُّ مَهْمـا تـرامَـتْ فـي دُجـاهـا مَـواكِـبُ الأَسْـرارِ

***

أَيُّها السّادِرونَ في ظُلْمَةِ الشَّكِّ، رُوَيداً فَعُذْرُكُمْ مَكْذُوبُ
أيُّ سِرٍّ يَخْفى إذا امْتَدَّتْ الأَضْواءُ وارْتاحَ للشُّروقِ الغُروبُ
حَدِّقوا في الصَّباحِ، يُبْهِرْكُمْ النُّورُ، يُعانِقْكُم الفضاءُ الرَّحيبُ
يَمسحِ اللَّيلَ عَنْ عُيونِ الحَيارى إنْ تَغَشَّى الحياةَ فَجرٌ كَذُوبُ

***

أَيُّها المُلحِدُونَ، هَلْ يَجْهَلُ الدَّرْبَ سوى الخابِطينَ في الأَوحالِ
تُنْكِرونَ الضُّحَى، وماذا عَنِ الحقِّ، إذا استَسلَمَ الهُدى للضَّلالِ
هَلْ عَرَفْتُمْ مَعنى الجُحودِ الَّذي يَرتَعُ في وَحْشَةِ السَّرابِ الخالي
كيفَ تَحيَونَ في السَّرابِ، وَفَيْضُ النَّبعِ يَنهَلُّ في عُرُوقِ الرِّمالِ

***

أَيُّها المُلْحِدونَ: هَلْ يَمْخُرُ اليَمَّ سَفينٌ أضاعَهُ الرُّبانُ
هَـلْ يَقـومُ البِنـاءُ مِـنْ غيـرِ بـانٍ يَتَسـامـى ـ بعَـزْمِـهِ ـ البُنْيـانُ

أوْ تكونُ الحَياةُ كالصُّدْفَةِ العَمْياءِ ـ يَحْيا بِلَهْوِها ـ الإمْكانُ
وجِدَتْ دُوْنَ حِكْمَةٍ ثُمَّ عاشَتْ يَزْدَهيها النِّظامُ والإتْقانُ

* * *

إن تكونوا أضْمَرتُمُ الشَّكَّ أو قُلْتُمْ جَرَيْنا فَلَمْ نَجِدْ بُرْهانا
فَقِفُوا في الطَّريقِ وَقفَةَ حَيْرانٍ يُناجي ـ برُوحِهِ ـ الأكْوَانا
وانظُروا في الفضاءِ، في لَمَحاتِ النُّورِ، في الغَيبِ، إن وَجدتُم مَكانا
واسْألوا كُلّ لَمْحَةٍ، أينَ يَخْفى السِرُّ، إمَّا سَألْتُمُ الوجِدَانا

* * *

أجُحُوداً وَأنْتُم في الطَّريقِ الوَعْرِ لا تَمْلِكُونَ طُهْرَ الدَّليلِ
لا تَعيشونَ يَقْظَةَ النُّعمَياتِ الخُضْرِ في رَوْعَةِ الصَّباح البَليلِ
إرْجَعُوا هَاهُنا اليَنابيعُ لا تَنْفَكُّ تُرْوي الظِّماءَ في كُلِّ جِيلِ
مَنْهَلُ الحُبِّ والمَعاني النَدِيّاتِ بِأعماقِهِ رِيُّ الغَلِيلِ

* * *

أيها المدلجون

أيُّها المُدْلِجُونَ في رِحْلةِ العُمْرِ، رُوَيْداً فَقَدْ تُضاءُ الشُّموعُ
نَحْنُ في قَبضَةِ العَواصِفِ نَحْيا في لَهِيبِ الإعْصارِ ثُمَّ نَضيعُ
غَيْرَ أنّا يُريحُنا الأمَلُ الحُلْوُ بأنْ يَعْقِبَ الشِّتاءَ الرَّبِيعُ
وتُغَنِّي الشُّموسُ للأعيُنِ الحَيْرى، ويُفْضي - بِسِرِّهِ اليُنبوعُ

❊ ❊ ❊

أيُّها المُدْلِجونَ هَلْ تَسْتَريحُ الرُّوح، إمَّا هَتَكْتُمُ الأسْتارا
أوْ حَطَمْتُمْ كُؤوسَكُم وَجَرَيْتُمْ، في لَظى اليَأسِ تَهْدِمونَ الجِدارا
وتَثُورُونَ، لا لِيَهدأَ بالثَّورةِ قَلْبٌ، ولا لِيُطْفِىءَ نارا
بَلْ لِتَحْيَونَ في الأعَاصيرِ بُركاناً رَهيباً يُفجِّرُ الإعْصارا

❊ ❊ ❊

رُبَّما تَعْبَثُونَ بالْقِيَمِ المُثْلى، تَكفُرونَ بالأدْيانِ
وتَعيشُونَ لِلتَمَرُّدِ، في كُلِّ طَريقٍ، لا يَلْتَقي بالأماني
رُبَّما تَعْشَقونَ فَلْسَفَةَ الفَوْضَى وَروحَ الدَّمارِ في الإنسانِ
وتَغيبُونَ في غَيابات فِكْرٍ ضَائِعِ الحِسِّ مُتعَبٍ سَكْرانِ

❊ ❊ ❊

رُبَّما تَرْقُصونَ رَقْصَةَ مَجْنُونٍ يَرى في الجُنُونِ فِكْراً وَفَنّا
وَتطُوفُونَ بالمَباذِلِ في وَحْيٍ غَريبٍ يَرى التَمَدُّنَ سِجْنا
وتُثيرونَ، بالضَّجيج أَغانيكُم على كُلِّ سامِرٍ يَتَغَنَّى
وتَعُودُونَ لِلدُّجى، في لُهاثِ الرُّوحِ خَلْفَ الحياةِ يَأساً وحُزْنا

***

رُبَّما يَستَريحُ للأمنياتِ الجُوفِ قَلبٌ وخاطِرٌ مَذْهولُ
يَتَمَنَّى أنْ يَطْمَئِنَّ على كَتفيهِ نَجْمٌ مُلَوَّنٌ مأهولُ
ويُغنّي ـ للأُمْسياتِ الّتي تَغْفو بِعَينَيْهِ ـ حُلْمُهُ المَعسولُ
هَمُّهُ أنَّهُ يَعيشُ لِيَجْتَرَّ أغانيهِ وَهْوَ لاهٍ كَسُولُ(١)

***

(١) يا ظلال الإسلام، ص: ٣٨.

خطأ العمر

يا ظِلالَ الإسلام[١] : هَلْ يَملِكُ المَرءُ ـ لأحْلامِهِ العِذابِ ـ خُلودا
خَطَأُ العُمْرِ: أنَّنا لا نَرى في الدَّربِ مَهْما اسْتَطَالَ إلّا وُرُودا
فَنَعيشُ الحَياةَ غَفْوَةَ حُلْمٍ يَتَهادى مُرَنَّحاً عِربِيدا
ونُعانِي، إذا تَهاوَتْ أمانِينا على الشَّوكِ واسْتَحالَتْ جَلِيدا

* * *

سُنَّةُ اللهِ في الحَياةِ، رَبيعٌ وَخريفٌ، وَفَرْحَةٌ وَعزاءُ
وَصَباحٌ تَحْيا بِمَولِدِهِ الدُّنْيا، وَتَشْدُو، لِفَجْرِهِ الأنْداءُ
وَمساءٌ تُخَيِّمُ الظُّلُماتُ السُّودُ في أُفْقِهِ، وَيَضْرى العَناءُ
وانْطِلاقٌ مَعَ المُنى، وَقُيُودٌ، تَخْنُقُ الأمنياتِ أنّى تَشاءُ

* * *

تِلْكَ دُنْياكَ مَوْعِدٌ لِلَّذاذاتِ، وَدَرْبٌ للطَّيِّباتِ الغَوالي
غَيْرَ أنّا، قَدْ نَسْتَفيقُ على الآلامِ تَجتاحُ لَذَّةَ الآمالِ
في دُرُوبٍ لا تَسْتَريحُ لها الغايَةُ عَبْرَ الأخْطارِ والأهْوالِ
وتُرينا في كُلِّ خُطْوَةِ فِكْرٍ شَبَحَ اليَأسِ في جَحِيمِ الخَيالِ

---

(١) من وحي الآية الكريمة ﴿لكي لا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم﴾.

تِلْكَ دُنْياكَ فانْطَلِقْ في رِحابِ العُمْرِ لا تَأسَ إنْ خَسِرْتَ الرِّهانا
لا تَـدَعْ لِلظَّـلامِ كُـلَّ لُبـانـاتِـكَ إنْ خَيَّـمَ الضَّبـابُ وَرَانـا
خُذْ مِنَ الدَّربِ عِبْرَةَ العُمْرِ، لا تَبْقَ لِتَشْكو معَ الحياةِ الزَّمانا
إنّ مَـنْ يَقْطَـعُ الطَّـريـقَ شِكـاةً سَـوْفَ يُغْـري بِخَطْـوِهِ الحَـدَثـانـا

❊ ❊ ❊

تِلْـكَ دُنْيـاكَ تَمْنَـحُ الفَـرَحَ الـرُّوحِـيَّ، تُعْطيـكَ أُمْنيـاتِ الفـؤادِ
فَاحْفَظِ الخَطْوَ، لا تُخَدِّرْكَ أشْواقُ الغَدِ الحُلوِ عَن طَريقِ الرشادِ
لا تَـدَعْ فَـرْحَـةَ الحَيـاةِ تُغْشيـكَ، فَتَعْمـى عَـنِ الشُّعـاعِ الهـادي
إنَّهـا سُنَّـةُ الـوُجـودِ مُنـىً تَـزْهـو وأُخْـرى تَمُـوتُ فـي الأصْفـادِ

❊ ❊ ❊

هِـيَ دُنْيـاكَ: ضَـلَّ مَـنْ يَعْشَـقُ التِّيـه، بـأفـاقِهـا وَيَهـوى الضَّيَـاعـا
حـالِمـاً يَمْضَـغُ الفَـرَاغَ، وَيَجْتَـرُّ، الأمَـانـي تَفـاهَـةً واتِّضـاعـا
يُوقِدُ الضوءَ في الضُّحى، ويُغَنّي لِلدَياجي، لِيُطْرِبَ الأسْماعا
وإذا امْتَـدَّ بـالصِّـراعِ وُجـودٌ تَـرَكَ الـوَحْـيَ خَلْفَـهُ والصِّـراعـا

❊ ❊ ❊

هيَ دُنْياكَ ضَلَّ مِنْ يَحْمِلُ العُمْرَ على راحَتَيْهِ، يأساً وحُزْنا
تَشْهَقُ الأمْنِياتُ في قَلْبِهِ الخافِقِ، إنْ حَنَّ للضُّحى وتَغَنّى
خائِفاً لا يَحُسُّ مَهْما اطْمأنَّتْ حَوْلَهُ الأمِنياتُ في الدَّربِ أمْنا
كُـلُّ دُنْيـاهُ دَمْعَـةٌ وأنيـنٌ وَحَنيـنٌ لـلأمْـسِ مَهْمـا تَجَنّـى

❊ ❊ ❊

إننا مسلمون..

يا ظِلالَ الإسْلامِ: لَمْ يَعُدِ الدَّرْبُ ـ كَما كانَ ـ وَاسِعاً مَمْدُودا
ضَيَّقَتْ أُفْقَهُ الحُدُودُ، فلا تَلْمَحُ ـ عَبْرَ المسير ـ إلّا الحدودا
لَمْ يَعُدْ يَرْتَضِي السُّراةُ هُدى اللهِ، شِعاراً يُخَلِّدُ التّوحِيدا
يَتَبارَوْن، أيُّهم يَسْبِقُ الآخر، كَيْ يَمْلأَ الطَريقَ سُدُودا

❊ ❊ ❊

وَبَدَأْنا نَجْري، تُلوِّنُنا الأَلْوانُ... سُودٌ، على الصَّعيدِ ـ وبيضُ
فَلِكُلٍّ حَضارَةٌ، ولِكُلٍّ غايَةٌ ـ في الهُدى ـ وَدَرْبٌ عَريضُ
وَطَوَانا السُّرى.. وَسِرْنا.. فَهذا عَرَبِيٌّ وأَعْجَمِيٌّ بَغِيضُ
لَمْ تُلوِّنْ رُوحُ العُرُوبةِ دُنْياه، ولم يَسْتَقِمْ لَدَيْهِ القَريضُ

❊ ❊ ❊

يا ظِلالَ الإسلامِ: نَحْنُ مَعَ الفَجْرِ كَيانٌ، يُظِلُّهُ الإسْلامُ
قَدْ تَلاقَتْ آمالُنا، عِنْدَ وَحْيِ اللهِ.. فالْكَوْنُ رَحمةٌ وَسَلامُ
وَتمادَتْ آلامُنا في شُعُورٍ وَحَّدَتْهُ الآمالُ والآلامُ
لَمْ تُحَدِّدْ شُعُورَنا العَصَبِيّاتُ، وَلَمْ يَخْتَلِسْ هُدَانَا الظّلامُ

إنّنا مُسْلِمُونَ.. كُلُّ تَحايَانا سلامٌ وَدَعْوَةٌ لِلِّقاءِ
لِحياةٍ تَهْفُو، لِقَلْبٍ يَرِفُّ الحُبُّ فِيهِ، في أُغْنَياتِ الإخَاءِ
وكَيانٍ يَشُدُّه الحَقُّ بالْقُوّةِ والْعَزْمِ في طَرِيقِ السَّماءِ
إنّنا مُسْلِمونَ، وَلْتَشْهَدِ الدُّنْيا بأنّا في مَوْكِبِ الأَنْبِياءِ

* * *

إنّنا مُسْلِمُونَ، نُؤْمِنُ بالإنسانِ.. نَحْياهُ فِكْرَةً وَشُعُورا
نَلْتَقي في مَدَاهُ بالخَيْرِ يَبْني لِحَياةِ الهُدى كَياناً كَبِيرا
نَحْمِلُ الحُبَّ، نَزْرَعُ الأَرْضَ بالأَلْطافِ خَيْراً ورحمةً وَسُرورا
وَيَعِيشُ السّلامُ أحْلامهُ الخُضْرَ بأعْماقِنا حَياةً وَنُورا

* * *

مع الأخطاء الذهبيّة...

إنَّنا طَيِّبُونَ. . نَحْمِلُ كُلَّ القِيَمِ البِيْضِ في القُلُوبِ النقِيَّهْ
غَيْرَ أنّا نَسيء فَهْمَ مَعانِيها وَنَحمِي أَخْطاءَنا الذَّهَبِيَّهْ
فَتَعُودُ الأخْطاءُ قُدْساً مَصُوناً نَفْتَدِيهِ بِكُلِّ رُوحٍ سَخِيَّهْ
. . وَعَلى اسْمِ الأخْلاقِ والمُثُلِ العُليا. . تَعيْشُ الأخْطاءُ في حُرِيَّهْ

❋ ❋ ❋

التوكل ـ المفهوم الخاطىء

إنّنـا نَفْهَـمُ التَـوَكُّـلَ فـي الإيمـانِ . . رُوْحـاً تُخَـدِّرُ الأيمـانـا
تَقْتُلُ العَزْمَ، تَنْحَرُ القُوَّة البِكْرَ، تُغَذِّي بالأُمنياتِ الجَبانا
إنّه يُوقِظُ التَّواكُلَ في العَيشِ، ويُغْري ـ بِضَعْفنا ـ الأكْوَانا
هكَـذا يَسْتَحِيـلُ إيمـانُنـا الحَـيَّ سِتـاراً يُضَلِّـلُ الإيمـانـا

* * *

التوكل ـ المفهوم الصحيح

إنَّهُ ـ في انْطِلاقِهِ في ضَمِيرِ الحَقِّ ـ رُوْحٌ تُثِيرُ رُوْحَ الكِفاحِ
يَحْرُسُ العَامِلِينَ، مِن وَحْشَةِ المجهولِ، مِن خَوفِ يقظةِ الأشْباحِ
مِنْ بَقايا الضَّعْفِ الَّذي يَأْكلُ القُوَّةَ.. يَقْتاتُ مِنْ نَزيفِ الجِراحِ
مِنْ تَهاوِيلِ لَيْلِنا المُوْحِشِ المجْهُولِ، في غَمْرَةِ الأسى والنُّواحِ

***

إنَّـه سِـرُّ قُـوَّةِ الـرُّوحِ فـي الإنْسـانِ، سِـرُّ الحيَـاةِ فـي إيمـانِـهْ
وَحْيُهُ في الضَّميرِ، كالواحَةِ الخَضْراءِ في التِّيهِ، في مَدى أشْجَانِهْ
سِرْ مَعَ الدَّرْبِ في طَريقِكَ للذُّرْوَةِ، وأحرُسْ سُراكَ مِنَ سجَّانِهْ
وَتَـوَكَّـلْ عَلـى الإلَـهِ، وَلا تَخْشَ فَقَـدْ صِـرْتَ فـي رِحَـابِ أمـانِـهْ

***

في موكب الحج

في الدُّجى هائِمُونَ ـ يا ربِّ ـ والصَّحْراءُ نُورٌ على المَدى مَشْرورُ
والخُطى في الرِّمالِ يُغْرِقُها المَسْرى. وَدَرْبُ الحَياةِ سَمْحٌ يَسيرُ
والصَّدى ـ ضائِعٌ يُفَتِّشُ عَنْ آذانِ قَوْمِي ـ بِلَهْفَةٍ ـ وَيغُورُ
وبَقايا التَّاريخِ تَلْهَثُ في الذِّكْرى ـ كَما يَلْهَثُ الغَدُ المَذْعورُ

* * *

في الدُّجى هائِمُونَ ـ يا رَبِّ ـ والأَعينُ يَلْهُو بِها الفَراغُ الكَبير
ورِفاقُ الطَّريقِ يَحْتَضِنونَ الوَهْمَ ـ يَقْتاتُ مِنْ رؤُاهُ الشُّعورُ
والخَيالُ اللَّعوبُ يَمْرَحُ في الرُّوحِ فَيَجْرِي عَلى خُطاهُ المَصِيرُ
والشِّفاهُ الَّتي تُغَنِّي لَنا في الفَجْرِ ـ أَلوى بِشَدْوِها التَّزْمِيرُ

* * *

إنَّنا خائِفُونَ ـ يا رَبِّ ـ يَمْتَدُّ بِنا الخَوفُ ـ في المَدى ـ ويَمُورُ
يُولَدُ الخَوفُ في حَكايا السَّعالى السُّودِ في الجيلِ وَهُوَ غِرٌّ صَغيرُ
وَتَعودُ الغِيلانُ تَمْرَحُ كالأَشباحِ ـ في وَعْيِنا ـ ونَحْنُ نَسيرُ

وتَظَـلُّ الكُهـوفُ تُلْهِـبُ أَوْهـامَ الـدَّيـاجـي فـي دَرْبِنـا وتُثِيـرُ

* * *

إنَّنا خائِفونَ ـ يَهْزِمنا الخَوْفُ إذا حَمْحَمَ الصِّراعُ المَريرُ
تَلْتَقِينــا إشــاعَــةٌ فَتهُــزُّ الــرُّعــبَ فِينــا فَيَغْتَلــي ويَفــورُ
وتَشِـلُّ الخُطـى ـ فَتَجْمَـدُ أفكـارُ السَّـرايـا ويُطْبِـقُ الـزمْهَـريـرُ
ثُـمَّ يَمْضـي الـزَّمـانُ ـ يَرْوي حَكـايـانـا ـ وتُـرخَـى مِـنْ بعـدِ ذاك السُّتـورُ

* * *

قَدْ يَخافُ السُّرى مِن اللَّيلِ ـ تَجْتاحُ هُدوءَ الحَياةِ فيهِ ـ النُّمورُ
غَيرَ أنَّ الخُطى تَظَلُّ عَلى الدَّربِ خِفافاً ـ تَرْعاهُ كَيْفَ يَسير
خُطْوَةٌ ـ تَدْفَعُ القَوافِلَ لِلْفَجْرِ ـ وأُخرى ـ يُثيرُها التَفكيرُ
لَنْ تَموتَ الحَياةُ ـ ما دامَ في الأعْماقِ فِكْرٌ حُرٌّ وَقَلْبٌ جَسُورُ

* * *

نَحْنُ جِيلُ البُكاءِ ـ يُغْرِقُنا الدَّمعُ إذا لَوَّنَ العُيُونَ السرُورُ
وتُثِيرُ الدُّمُوعُ أعماقَنا الظَّمأى ـ إذا الْتاعَ بالأسى المَأسُورُ
نَسْتَعيدُ الماضِي فَنَبْكي ضَحاياهُ ـ وإنْ أزْهَرَتْ بِهِنَّ القُبُورُ
وتُثيـرُ الغَـدَ المُـؤَمـل بـالأدمُـع تَشْتَـاقُ خَطْـوَهْ وَتُثِيـرُ

* * *

يا ظِلالَ الإسلامِ ـ في تَلَعاتِ الوَحْيِ في مُلْتَقى رُؤى الإيمانِ
هاهُنا نَحْنُ ـ نَحْنُ مَنْ يَحمِلُونَ الحقَّ رَمْزاً لِوَحدَةِ الأديانِ
هاهُنا نَحْنُ في الرِّمالِ الَّتي عاشَتْ عَلَيْها طَلائِعُ الإحْسانِ

في سُهومٍ يَجْتازُ في خَطَراتِ الرُّوحِ ـ كلَّ المَكانِ ـ كُلَّ الزَّمانِ

***

هـا هُنـا نَحْـنُ ـ والحَجِيـجُ نِـداءٌ يَتعـالـى لِلْـواحِـدِ الـدَّيَّـانِ
ربِّ.. لَبَّيْـكَ ـ أنْـتَ نـادَيْتَنـا ـ والغَيْـبُ طِفْـلٌ مُجَنَّـحُ الألْـوانِ
فأَجبْنا مِنْ كُلِّ أعماقِنا البِيضِ ـ وَعِشْناكَ في الأيادي الحِسانِ
وَخَشَعْنـا... إنَّـا نَحُـسُّ بـألْطـافِـكَ فـي وَعْيِنـا بِكُـلِّ حَنـانِ

***

رَبِّ.. لَبَّيْكَ لا شَرِيكَ لَكَ ـ اللَّهُم ـ لَبَّيْكَ ـ في دَمِي وَعِظَامي
لكَ حَمْدِي ـ في كُلِّ حالٍ ـ وَمِنْكَ النِّعمَةُ البكرُ في مدى الأيَّامِ
وَلَـكَ المُلْـكُ ـ لا شَـريـكَ لـكَ ـ اللَّهُـمَّ ـ يـا ذا الجَـلالِ والاكْـرامِ
ربِّ.. لَبَّيْك ـ مِلءُ قَلْبِي وَرُوحي ونجاوايَ في اللَّيالي العِظامِ

***

رَبِّ لَبَّيْكَ ـ كُلُّ حَرْفٍ نِداءٌ في عُرُوقي لِلنُّور والإسْلامِ..
مَنْ أنا مَنْ أكونُ حتَّى أُناجِيكَ ـ وأدْعُوكَ ـ مسْرِفاً في مُقامِي
أنْـتَ ألْهَمْتَنِـي النَّجـاوى ـ وأفْضَلْـتَ ـ وَزَيَّنْـتَ ـ بـالهـدى ـ أحـلامـي
وبَعَثْــتَ الإيمــان فــي قَلْبِــي الــدَّامــي ـ فَغَنَّــتْ لِــزَهْــوِهِ ـ آلامــي

***

رَبِّ لَبَّيْكَ ـ هَلْ أنا أُوقِظُ النَّجْوى ـ هَلِ اللَّفظُ يَلتقي بالمَعاني
كُلُّ ما أرْتَجِيهِ ـ أنْ تَبْعَثَ الرُّوحَ المُنَدَّى في خاطِري ولِساني
لأعِيشَ الصَّلاةَ نَبْعاً طَهُوراً يَغْسِلُ الحِقْدَ مِنْ دَمي وَجِناني

وأُنادِيكَ ـ يا إلهي ـ مِنَ الأعْماقِ حُرَّ الضَّميرِ ـ حُرَّ البَيانِ
هـا أنـا طـائِـفٌ بِبَيْتِـكَ ـ والأعيـنُ غَـرْقـى بِـأدْمُـعِ الإيمـانِ
والشِّفاهُ الظِّماءُ ـ تَهْمِسُ بالذِّكْرِ حُرُوفاً مُعطِّراتِ المَعانِي
لَكَـأنـي أُحِـسُّ ـ والصَّـوتُ يَنْسـابُ لَـذيـذاً كَغَفْـوَةِ الـوَسْنـانِ
بِـرَبيعِ الألطـافِ يَخْضَـرُّ فـي رُوحـي فَتهتَـزُّ لِلْشَّـذى الـرَيّـانِ

***

ها أنا طائِفٌ ـ وما زالَتِ الأصْواتُ تَنْسابُ في جَلالِ المَكانِ
ألمُحِبُّونَ. . يُنْشِدونَ لَكَ الحُبَّ بَعِيداً عَنْ رَغْبَةِ الإنْسانِ
هَمُّهُم. . أَنْ يُسَبِّحوكَ وَيَحْيَونَ خُشوعاً في نُورِكَ السُّبْحاني
ويَظَلُّونَ يَسْبَحونَ مَعَ الأَمواجِ ـ في بَحْرِ وَحْيِكَ الرُّوْحاني

***

هـا أَنـا طـائِـفٌ بِبَيْتِـكَ ـ وامْتَـدَّتْ يَـدٌ تَسْتَعِيـدُ مِنِّـي كَيـانـي
وتَسامَيتُ فَوْقَ مَجْرى أَمانِيَّ ـ فَهذي رُؤايَ فَوْقَ الأماني
مَنْ أَنا لَسْتُ ذَلِكَ الجَسَدَ المُرْهَقَ بِالمُثْقَلاتِ مِنْ أَدْرانِي
لَسْتُ ذاكَ الظِلَّ الَّذي يَتْرُكُ الذِّرْوَةَ ـ خَوْفاً ـ لِوَهْدَةِ الودِيْانِ

***

أنا رُوحٌ ـ تَسْمو وتَهْفو وتَحْيا الحُبَّ وَالخَيرَ والضّحى بِأفْتِتَانِ
حَـرَّرَتْنـي نَجْـواكَ مِـنْ كُـلِّ قَيْـدٍ قَيَّـدَتْنـي بِـهِ يَـدُ السَجَّـانِ
وأفـاضَـتْ عَلَـيَّ كُـلَّ شُعـاعٍ شَـعَّ كـالنَّيِّـراتِ فـي وِجْـدانِـي
فَتَجَرَّدْتُ ـ كالنَّسيمِ ـ كَلَمْحِ الفَجْرِ كالعِطْرِ في رُبى لبنانِ

***

لَحْظَةً عِشْتُها مَعَ الطُّهْرِ ـ يا رَبِّ ـ ومِنْكَ الطُّهْرُ الّذي يَغْشَاني
فَكأَنِّي في جَنَّةِ الخُلْدِ أَحْيَا ـ عَبْيرَ نَجْواكَ في رَبيعِ الجِنانِ
جَنَّةُ الحُبِّ . . أَن أُناجي ـ وتَلْقاني بِقَلْبٍ يَفِيضُ بالإحسانِ
أَنا أَدْعوكَ بالرَّجاءِ ـ وتُوحِي . . لَكَ كُلَّ الرَّجاءِ يا مَنْ دَعانِي

❊ ❊ ❊

ها أنا طائِفٌ بِبَيتِكَ ـ رَمْزِ الطُّهْرِ في لَهْفَةٍ وَفي إِذْعانِ
وذُنوبي خَلْفي تُبَعْثِرُ خَطْوي وتُثِيرُ الخَفِيَّ مِنْ أَشْجاني
ونِداءُ الخُطاةِ يَقْرَعُ سَمْعي ويَهزُّ الدُّموعَ في أَجْفاني
رَبَّنا . . إنَّنا عَبِيدُكَ في بَيْتِكَ ـ في شَاطِىء الهُدى والأمانِ

❊ ❊ ❊

هَل لنا أن نَعِيشَ في حلمِ العَفوِ وننسى مَرارة العِصيانِ
إنْ تُعَذِّبْ ـ فَنَحْنُ أَهْلٌ لأنَّا قَدْ غَرِقْنا في لُجَّةِ الكُفرانِ
غَيْرَ أَنَّا نَراكَ في سُبُحاتِ العَفْوِ أهلَ الإحْسانِ والغُفْرانِ
كُلُّ مَا عِندَنا اعْتِرافُ الخَطايا وَرَجاءٌ لِلَفْتَةِ الرِّضْوانِ

❊ ❊ ❊

يا امتداد الصحراء

وَنَسِينا أنّ الوُعُودَ الَّتي تَخْطُو على دَرْبِه الطّويلِ ـ سَرابُ
كُـلُّ آفـاقِـهِ . . إذا حَـدَّقَ الـوَعـيُ بـآفـاقِـهِ . . دُجـىً وَضَبـابُ
أيُّ مَعنىً لِلنُّورِ . . أن يَحْجُبَ الرُّؤيةَ في رِحلةِ الحياةِ حِجابُ
إنّما النُّورُ أن يَطوفَ الهُدى بالرّوحِ وَعْياً . . وتُفْتَح الأبْوابُ

***

ويَهِلُّ القرآنُ بالنُّورِ والحِكْمَة، في وَحْيِهِ الهُدى والجمَالُ
أيُّها الخابِطونَ في اللّيْلِ: إنَّ اللّيْلَ كَونٌ تَحُوطُهُ الأهْوالُ
ظُلُمـاتٌ تَطـوفُ فـي ظُلُمـاتٍ وضَـلالٌ يمـوجُ فيـهِ ضَـلالُ
غَيرَ أنَّ الإلَهَ يُشرِقُ في الرُّوحِ، فَيَسْمُو على ذُراهُ الجَلالُ

***

وَعْدُه الحَقُّ، دَربُهُ كِلْمَةُ الصِّدْقِ، نجاواه حِكْمَةٌ وَصفاءُ
جَنَّةُ الرُّوحِ في الحياةِ، إذ انْهَلَّ على أرْضِها الطَّهورِ الماءُ
وعلى الشّاطىء الأمِينِ وَراءَ الموتِ تَزْهُو الجَنائِنُ الغَنّاءُ
هِـيَ لِلمتّقِيـنَ، لِلْـواهِبيـنَ العُمْـرَ لله . . . إنَّهـا النّعْمـاءُ
وَعْـدُه الحَـقُّ . . كُـلُّ آيـةِ حـقٍّ خُطْـوَةٌ حُـرّةٌ، وَوَحْـيٌ فَـريـدُ
والْتِفـاتٌ لـلأرْيَحيّـاتِ، فـالـدرْبُ علـى هَـدْيِهـا بيـعٌ جَـدِيـدُ
إنّهـا خُطّـةُ الحيَـاةِ، علـى اسْـمِ الله تَجـري . . وهـو الـرَّقيـبُ الشَّهيـدُ
فَلِمـاذا تُـديـرُ وَجْهَـكَ لِلشَّيْطـان . . وَهُـوَ المضَلّـلُ المَنكـودُ

لَحْظَةً عِشْتُها مَعَ الطُّهْرِ ـ يا رَبِّ ـ ومِنْكَ الطُّهْرُ الَّذي يَغْشَاني
فَكأَنِّي في جَنَّةِ الخُلْدِ أَحْيَا ـ عَبْيرَ نَجْواكَ في رَبيعِ الجِنانِ
جَنَّةُ الحُبِّ. . أَن أُناجي ـ وتَلْقاني بِقَلْبٍ يَفِيضُ بالإحسانِ
أَنا أَدْعوكَ بالرَّجاءِ ـ وتُوحِي. . لَكَ كُلَّ الرَّجاءِ يا مَنْ دَعانِي

***

ها أنا طائِفٌ بِبَيتِكَ ـ رَمْزِ الطُّهْرِ في لَهْفَةٍ وَفي إذْعانِ
وذُنوبي خَلْفي تُبَعْثِرُ خَطْوي وتُثِيرُ الخَفِيَّ مِنْ أَشْجانِي
ونِداءُ الخُطاةِ يَقْرَعُ سَمْعي ويَهزُّ الدُّموعَ في أَجْفاني
رَبَّنا. . إنَّنا عَبِيدُكَ في بَيْتِكَ ـ في شَاطِىء الهُدى والأمانِ

***

هَل لنا أن نَعِيشَ في حلمِ العَفوِ ونَنسى مَرارة العِصيانِ
إنْ تُعَذِّبْ ـ فَنَحْنُ أَهْلٌ لأنَّا قَدْ غَرِقْنا في لُجَّةِ الكُفرانِ
غَيْرَ أَنَّا نَراكَ في سُبُحاتِ العَفْوِ أهلَ الإحْسانِ والغُفْرانِ
كُلُّ مَا عِندَنا اعْتِرافُ الخَطايا وَرَجاءٌ لِلَفْتَةِ الرِّضْوانِ

***

يا آمتداد الصحراء

وَنَسِينا أنّ الوُعُودَ الّتي تَخْطُو على دَرْبِه الطّويلِ ـ سَرابُ
كُلُّ آفاقِهِ . . إذا حَدَّقَ الوَعيُ بآفاقِهِ . . دُجىً وَضَبابُ
أيُّ مَعنىً لِلنُّورِ . . أن يَحْجُبَ الرُّؤيةَ في رِحلةِ الحياةِ حِجابُ
إنّما النُّورُ أن يَطوفَ الهُدى بالرّوحِ وَعْياً . . وتُفْتَح الأبْوابُ

❊ ❊ ❊

ويَهِلُّ القرآنُ بالنُّورِ والحِكْمَة، في وَحْيِهِ الهُدى والجمَالُ
أيُّها الخابِطونَ في اللّيْلِ: إنَّ اللّيْلَ كَونٌ تَحُوطُهُ الأهْوالُ
ظُلُماتٌ تَطوفُ في ظُلُماتٍ وضَلالٌ يموجُ فيهِ ضَلالُ
غَيرَ أنَّ الإلَهَ يُشرِقُ في الرُّوح، فَيَسْمُو على ذُراهُ الجَلالُ

❊ ❊ ❊

وَعْدُه الحَقُّ، دَربُهُ كِلْمَةُ الصِّدْقِ، نجاواه حِكْمَةٌ وَصفاءُ
جَنَّةُ الرُّوحِ في الحياةِ، إذ آنْهَلَّ على أرْضِها الطَّهورِ الماءُ
وعلى الشّاطىء الأمِينِ وَراءَ الموتِ تَزْهُو الجَنائِنُ الغَنّاءُ
هِيَ لِلمتّقِينَ، لِلْواهِبينَ العُمْرَ لله . . . إنَّها النّعْماءُ
وَعْدُه الحَقُّ . . كُلُّ آيةِ حقٍّ خُطْوَةٌ حُرّةٌ، وَوَحْيٌ فَريدُ
والْتِفاتٌ للأرْيَحيّاتِ، فالدرْبُ على هَدْيِها بيعٌ جَدِيدُ
إنّها خُطّةُ الحيَاةِ، على اسْمِ اللهِ تَجري . . وهو الرَّقيبُ الشَّهيدُ
فَلِماذا تُديرُ وَجْهَكَ لِلشَّيْطانِ . . وَهُوَ المضَلِّلُ المَنكودُ

وَيَهِلُّ القرآنُ بالنُّورِ يُوحِي أنَّ إبْليسَ فِتْنَةٌ وجحودُ
عاشَ رُوحَ الطُّغْيانِ في قِصَّةِ الخَلْقِ، وَلَمْ يَستَقِمْ لدَيهِ السُّجودُ
واسْتراحَتْ حَياتُه، لِضَلالِ الكونِ.. يَمْتَدُّ في خطاهُ الخُلودُ
هُوَ حِقْدُ الدُّنيا على الحَقِّ والخَيْرِ، فَهَلْ يحضِنُ الحياةَ الحَقُوْدُ

* * *

إنَّهُ عُقْدةُ الحياةِ الَّتي عاشَتْ لِتُغْري حَياتَنا بالصِّراعِ
لِتَعِيشَ التَمَرُّدَ الشامخ الهادِرَ لِلحَقِّ.. في صُمُودِ القِلاعِ
بَيْنَ وَحْيٍ يَشُدُّنا للسَّماواتِ.. وَوَحْيٍ يَجُرُّنا لِلقاعِ
وشُعُورٍ يَشْتَدُّ، عَبْرَ الجِهادِ المُرِّ.. في قِصَّةِ الهُدى والضَّياعِ

* * *

.. ويَظَلُّ الإنْسانُ.. في رَوْعَةِ القرآنِ يَسْمُو.. ويَلتَقي بالسَّماءِ
فَهْوَ صُنْعُ اللهِ الّذي أبْدَعَ العَقْلَ بِوَحْيِ الإرادَةِ البَيْضاءِ
وَرَعتْهُ كرامَةُ اللهِ حَتى أكْرَمَتْ رُوحَهُ عَنِ الأهْواءِ
وأثارَتْ في عَقْلِه فِطْرَةَ اللهِ.. فَعاشَتْ مع الذُّرى الشمَّاءِ

* * *

.. ويَظَلُّ القُرآنُ يَسْمُو مَعَ الإنسانِ.. إنَّ الحياةَ للإنسانِ
إنَّ سِرَّ الحَياةِ طَوعُ يَدَيْهِ في نِداءِ الأكْوانِ للأكْوانِ
وَقِواها مُسَخّراتٌ لِدُنْياهُ.. إذا امْتَدَّ خَطْوُها في الزَّمانِ
وسُراها في خَطْوِهِ بَعْضُ ألطافٍ كبارٍ في رِحْلَةِ الإيمانِ

* * *

.. ويَظَلُّ الإنْسان.. يَسْمُو مَعَ القرآنِ يوحِي بلُعبة الشيطانِ

إنَّـهُ لا يَشِـلُّ قُـدْراتِـهِ الكُبـرى بِـوَحْـيِ الإغْـراءِ والإفْتِنـانِ
كُـلُّ مـا عنْـدَهُ تَهـاويـلُ أجْـواءٍ ضَبـابيّـةِ الـرؤى والمَكـانِ
وأحاديثُ تَسْتَثيرُ المُنى الحَمْراءَ في النَّفْسِ في سَعِيرِ الأماني

***

يا امْتِدادَ الصّحْراءِ.. هذا الفَضاءُ الرَّحْبُ غَيبٌ في قبضةِ الآزالِ
خَيَّمَتْ حَوْلَهُ السُّنونُ.. وما زالَتْ تَهاويلُها حديث الرِّجالِ
وأقـامَـتْ فـي عُمْـقِ عَيْنَيْـهِ أسْـرارُ الفَيـافـي، وهَمْهَمـاتُ اللَّيـالـي
والمـدى واجِـمٌ يُحَـدِّثُ صَمْـتُ اللَّيْـلِ فِيـهِ عَـن وَحْشَـةِ الآجـالِ

***

.. ويَمُرُّ الإنسانُ بالمَوْكِبِ الصَّامِتِ كالحُلْمِ.. كالخيالِ الشّرودِ
يَقْطَـعُ العُمْـرَ فـي ابْتِهـالِ اللَّـذاذاتِ وَتَهْـويمـةِ الشَّبـابِ السَّعيـدِ
وَيُغَنِّـي لِلْفَجْـرِ.. ثُـمَّ يَنُـوحُ اللَّيْـلُ فِيـهِ عَبْـرَ السَّـرابِ البَعيـدِ
كُـلُّ مـا عِنْـدَهُ خَيـالٌ وأشْبـاحٌ ونَجْـوى شَـريـدَةٍ لِشَـريـدِ

***

.. وَيَمُرُّ الإنسانُ في العُمْقِ.. في عَينيهِ لَمْحٌ مِن هَدْهَدات الطُفولَهْ
يَطْفُـرُ اللّهْـوُ فـي أغـانِيـهِ طِفْلِيّـاً لـذيـذاً عَبْـرَ الـرُّؤى المَغْسـولَـهْ
ثُـمَّ يَحيـا الشَّبـابُ فـي قَلْبِـهِ حُبّـاً جَميـلاً فـي أُمْنَيـاتٍ جَميلَـهْ
ثُمَّ يَخْبُو البَريقُ في الأعْينِ الحَيرى، ويُلْقي على الشَّباب سُدولَهْ

***

.. ويَمُرُّ الإنسانُ بالموتِ شيخاً يُرْهِقُ العُمرَ في دَبيبِ الكُهولَهْ
واهِنَ العزمِ.. في عَصاهُ ثقالاتُ المنايا على خُطاه الثَّقيلَهْ
ويَظَلُّ الشَّبابُ يَعبَثُ في عُمْق أمانيه في الذرى المُسْتَحِيلَهْ
وتَظَلُّ الدُّنيا تُؤرِّقُ جَفْنَيهِ فيُغرِي، على مَداها، خُيُولَهْ

عُمُرٌ تَسْأَمُ الحياةُ لَدَيْهِ وَهْيَ تَطْوي جِبالَهُ وسُهُولَهْ
يَلْتَقي بالصّباحِ عَبْرَ انْتِظارِ اللّيلِ حُبّاً، في لَهْفَةٍ مذهولَهْ
ويَرُشُّ الظّلام أحْداقَهُ السّكرى.. فَتعلْو طُيوفُهُ المخْبولَهْ
.. ويَمُرُّ الإنسانُ كالحُلْمِ.. حتّى يَطَأ الموتُ أرْضَهُ المجْهولَهْ

* * *

أيُّهذا الإنسانُ.. هَلْ تُومِضُ الأعْيُنُ فِينا بِلَهْفَةِ الأحْداقِ
حَيْثُ تَجْري قوافِلُ الرّكْبِ نحْوَ الله، إن تستقِمْ خُطى الإشراقِ
وَتَهِلُّ الدُّنْيا سَلاماً على الرُّوحِ فَتَزْهو مَواسِمُ الأشْواقِ
فإذا بالحَياةِ عَيْنٌ على النّبْعِ وَعَيْنٌ عَلى خَريرِ السّواقي

* * *

إنّه اللهُ.. مِنْ إرادتِهِ البَيْضاءِ.. أنْ تَحْضِنَ الحياةُ هُداهُ
أنْ يَعيشَ الإنسانُ آفاقَهُ الخضراءَ، إنْ هَوّمَتْ لديْهِ رُؤاهُ
في ابْتِهالٍ يُحَرِّكُ الطّاقَةَ الكُبْرى بأعماقِهِ ويَهدي سُراهُ
هَمُّهُ اللهُ.. في نَجاواهُ.. في أشْواقِ دُنياهُ، في امْتِدادِ خُطاهُ

* * *

إنّهُ اللهُ.. يَحْمِلُ الموْعِدُ الأخْضَرُ ألْطافَهُ، إلى كُلِّ قَلْبِ
يَسْتَريحُ الرِّضوانُ في وَعْينا مِنْهُ فَتَهْفو إليهِ مِنْ كُلِّ دَرْبِ
وَحْيُهُ: أنْ نحِبَّ.. أن نَبْذُلَ الحُبَّ رَسُولاً حَيّاً إلى كلِّ شَعْبِ
لِيَعيشَ الإنسانُ رِحْلَةَ تاريخٍ جَدِيدٍ يَحْيا بأرْوعِ خِصْبِ

* * *

إنّـهُ الله يـورِق الغَـدُ والحـاضِـرُ مِنـه، بِلُطْفِـهِ وَرِضـاهُ
كُـلُّ آيٍ رِسـالـةٌ تَفْتَـحُ الأعْيُـنَ نَحْـوَ الـذُّرى بِـوَحْـيٍ سَمـاهُ
كُـلُّ فِكـرٍ نُبُـوَّةٌ تُبـدِعُ الفِكْـرِ لِجيـلٍ يَحيـا الضُّحى فـي مَداهُ
وعلى كُلِّ مَفْرِقٍ لِلدُّروبِ الخُضْرِ فَيْضٌ مِنْ رُوحِهِ وَسناهُ

※※※

إنّهُ العُمرُ.. يسْتريحُ على اسْم اللهِ في جانِبَيْهِ غَرْباً وشَرْقاً
فَهْوَ مَعْناهُ.. إنْ أضاعَتْ مَعانِيهِ التّفاهاتُ فاستَكانَ لِيَشْقى
وَهْوَ رُوحُ الحُرِّيَةِ الطّهر، إن أهوى على مَصْرَعِ الغِوايةِ رِقّا
وَهْوَ سِرُّ الحَقِّ الذي يَحْضُنُ الإشراقَ في وَعيِهِ، لِيُشرقِ حَقّا

※※※

أيُّهذا الإنسانُ.. قد يلْتَقي البَلْسَمُ بالجُرحِ في أماني الطَّبيبِ
غَيـرَ أنَّ الجِـراحَ تهـدأ.. تـرتـاحُ لآلامِهـا، بِـوَحْـيٍ كـذوبِ
في شُعُورٍ كأنَّهُ الخَدَرُ النّشوانُ يَنسابُ في شَغافِ القُلوبِ
ثُمَّ تَضْرى إنْ حَشْرَجَ الدّاءُ في الأعْماقِ، أو أثقلَتْهُ روح الخُطوبِ

※※※

أيُّهـذا الإنسـانُ.. مـا أنـت لَـوْلا اللهُ إلّا بَقِيَّـةٌ مِـن رَمـادِ
مَـلَّ مِنهـا الغُبار يـأسـاً فـألقـاهـا لِتَخْبُـو على شَفيرِ الـوادِي
فـرَعَتْهـا إرادةُ اللهِ، فـاهْتَـزَّ لهـا المـاءُ فـي الـرُّبـى والـوِهـادِ
فـإذا بـالـرّمـادِ فـي رَفَّـةِ الـرُّوحِ جِنـانٌ مُخْضَـرَّةُ الأورادِ

※※※

وإذا بالإنسان، فَيْضٌ مِن الرُّوحِ الإلهيِّ، كالسَّنا، كالعَبيرِ
حَسْبُـهُ: أنَّـهُ يَشُـدُّ بِكَفَّيْـهِ علـى الكـونِ فـي انْطِـلاقِ الأمُـورِ

فَهْوَ ـ في مَوْعِدِ الرِّسالاتِ ـ وَحْيٌ مُطمئِنٌّ على جَناحِ النسورِ
وَهْوَ ـ في مُلْتَقى الحَياةِ ـ إراداتٌ كِبارٌ على خُطى التَّفْكيرِ

❊ ❊ ❊

إنَّها قِصَّةُ الخِلافَةِ في الأرضِ عَنِ الخالِقِ العَلِيِّ القَديرِ
رَوْعَةُ الخَلْقِ في هِياجِ الأعاصيرِ لَدَيْها، وحِكْمَةُ التَّدْبيرِ
وَهِيَ الدَّعْوَةُ التي تَسْتَثيرُ الأَرْيَحِيَّاتِ في حَنايا الصُّدورِ
وتَشُدُّ الحَياة، عَبْرَ خُطى الإنسانِ، نَحْوَ المدى الرحيبِ الكبيرِ

❊ ❊ ❊

إنَّها قِصَّةُ الخِلافةِ: أنْ تَنْمُوَ بالفِكرِ في عُروجِ الرَّسولِ
أنْ تَعيشَ الغَيْبَ المقَدَّسَ في أُفْقٍ يناجي بالْعِلْم كُلَّ العُقولِ
وتَضُمَّ الإيمانَ في كُلِّ فِكْرٍ يُطْلِقُ العَقْلُ فِيهِ هَدْيَ السَّبيلِ
في عُبُوديّةٍ تُشير إلى حُرِّيَّة الرُّوحِ، في الطَّريقِ الطَّويلِ

❊ ❊ ❊

يا امْتِدادَ الصَّحْراءِ: إنِّي هُنا أحياكَ في لَهْفَةِ الغَدِ الموعُودِ
عالَماً للصَّفاء والنُّورِ واليَقْظَةِ والحُبِّ في جَلالِ الوُجودِ
يَلْتَقي الحقُّ فيه بالخيرِ والرَّحْمَةِ، في كُلِّ مَوْسِمٍ للوُرودِ
وتشيرُ الدُّنيا إلى الكونِ. . أنْ يَفْتَحَ آفاقَهُ لِفَجْرٍ جَديدِ

❊ ❊ ❊

قَدْ مَلَلْنا الصِّراعَ في وَهْدَة الأوْحالِ حيثُ الصِّراعُ عِبءٌ ثَقِيلُ
وَبَدأْنا شَوْقَ الهُروبِ إلى الأُفْقِ الَّذي يَسْتَثيرُه المُسْتَحِيلُ
إنَّها قِصَّةُ الوُجودِ الَّذي يَعْبَثُ فِيهِ مُخاتِلٌ وَجَهُولُ
إنَّها شَوْقُنا الكَبيرُ إلى المجْهولِ، إنْ شدَّ حُلْمنا المَجْهُولُ

واللهُ مِنْ وراء القصد وبهِ نستعين

علي رفعت مهدي
علي النَّهري، أيّار ٢٠٠٤

فهرس الآيات

الآيـــة	رقم الآية	السورة	رقم السورة
﴿ويسألونك عن الروح . . . إلا قليلا﴾	٨٥	الإسراء	١٧
﴿تتجافى جنوبهم . . . ينفقون﴾	١٦	السجدة	٣٢
﴿قل ما يعبأ بكم ربي لولا . . . دعاؤكم﴾	٧٧	الفرقان	٢٥
﴿الذين امنوا وتطمئن . . القلوب﴾	٢٨	الرعد	١٣
﴿قل إن كنتم تحبون . . . يحببْكُم الله﴾	٣١	آل عمران	٣
﴿وجعلنا فيها جنات . . من العيون﴾	٣٤	يس	٣٦
﴿أمن خلق السموات . . . شجرها﴾	٦٠	النمل	٢٧
﴿أفحسبتم أنما . . . لا ترجعون﴾	١١٥	المؤمنون	٢٣
﴿وهو الذي يتوفاكم بالليل . . النهار﴾	٦٠	الأنعام	٦
﴿والله أنزل . . بعد موتها﴾	١٦	النمل	٢٧
﴿أمن يبدأ الخلق . . والأرض﴾	٦٤	النمل	٢٧
﴿وإن الدَّار الآخرة . . . يعلمون﴾	٦٤	العنكبوت	٢٩
﴿وقل ربّي . . وأنت خير المنزلين﴾	٢٩	المؤمنون	٢٣
﴿قل لا أتبع أهواءَكم . . . من المهتدين﴾	٥٠	سبأ	٣٤
﴿والله يهدي من . . . صراط مستقيم﴾	٤٦	النور	٢٤
﴿أفمن يمشي . . . مستقيم﴾	٢٢	الملك	٦٧
﴿يا مريم . . . فريا﴾	٢٧	مريم	١٩
﴿الذي لا تدركه الأبصار﴾	١٠٣	الأنعام	٦
﴿أدعوني أستجِبْ . . . وآخرين﴾	٦٠	غافر	٤٠
﴿قل أدعوا الله . . . الحسنى﴾	١١٠	الإسراء	١٧
﴿فأذكروني أذكركم﴾	١٥٢	البقرة	٢
﴿لقد كان لكم . . . كثيراً﴾	٢١	الأحزاب	٣٣
﴿محمد رسول الله . . السجود﴾	٢٩	الفتح	٤٨

﴿هو الذي أرسل . . السجود﴾	٢٨	محمد	٤٨
﴿لقد جاءكم . . رؤوف رحيم﴾	١١٨	التوبة	٩
﴿يهدي به الله . . صراط مستقيم﴾	١٦	المائدة	٥
﴿يا أيها الذين . . . السلم كافة﴾	٢٠٨	البقرة	٢
﴿وانك لعلى خلق عظيم﴾	٤	القلم	٦٨
﴿ولو كنت فظاً . . حولك﴾	١٥٩	آل عمران	٣
﴿كتب على نفسه الرحمة﴾	١٢	الأنعام	٦
﴿وهو الذي ينزل . . . ينشر رحمته﴾	٢٨	الشورى	٤٢
﴿وشاورهم في الأمر﴾	١٥٩	آل عمران	٣
﴿ربنا آمنا بما أنزلت . . مع الشاهدين﴾	٥٣	آل عمران	٣
﴿ومن أطاع الرسول فقد أطاع الله﴾	٨٠	النساء	٤
﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا . . يحييكم﴾	٢٤	الأنفال	٨
﴿يوم يسحبون في النار . . مسّ سقر﴾	٤٨	القمر	٥٤
﴿الذين يتبعون الرسول . . المفلحون﴾	١٥٧	الأعراف	٧
﴿ما ينطق عن الهوى . . يوحى﴾	٣، ٤	النجم	٥٣
﴿وما ارسلناك . . بشيراً ونذيراً﴾	٢٨	سبأ	٣٤
﴿ما كان محمد . . خاتم النبيين﴾	٤٤	الأحزاب	٣٣
﴿ألا يعلم من خلق . . الخبير﴾	١٢	الملك	٦٧
﴿يريدون . . ولو كره الكافرون﴾	٣٢	التوبة	٩
﴿قيل ارجعوا وراءكم . . . نوراً﴾	٥٧	الحديد	١٣
﴿والشعراء . . ما لا يفعلون﴾	٢٢٥، ٢٢٦	الشعراء	٢٦
﴿فقاتلوا . . كيد الشيطان كان ضعيفا﴾	٧٦	النساء	٤
﴿وله الكبرياءُ في السماوات والأرض﴾	٣٧	الجاثية	٤٥
﴿ولقد نصركم الله . . لعلكم تشكرون﴾	١٢٣	آل عمران	٣
﴿وإذ قال عيسى . . إسمه أحمد﴾	٦	الصف	٦١
﴿قل يا أهل الكتاب . . . الله﴾	٦٤	آل عمران	٣
﴿قل إني هداني . . إبراهيم حنيفاً﴾	١٦١	الأنعام	٦
﴿سنة من قد أرسلنا . . تحويلا﴾	٧٧	الإسراء	١٧
﴿قل هذه سبيلي . . . المشركين﴾	١٠٨	يوسف	١٢

فهرس الأعلام

إسم العلم	الصفحة
ابن منظور	١٦، ١٨
إبن الأثير	١٧
أبو الهيثم	١٧
الزجّاج	١٧، ١٨
أبو العبّاس	١٨
إبن عبّاس	١٦، ١٨
الأزهري	١٨
الفرّاء	١٧
الباقلاني	٦٢
الجاحظ	٦٢
أنس بن مالك	١٨٥
الخليل بن أحمد	٣٨
المتنبي	٥٣، ٦٤، ٦٥
البحتري	٥٣
الياس أبو شبكة	٥٩
أحمد شوقي	٣٧، ٥٩
بشارة الخوري (الأخطل الصغير)	٨، ٣٧، ٥٩
بدر شاكر السيّاب	٧، ٨، ٥٠، ٥١، ٥٨
جبران خليل جبران	٥٩

إسم العلم	الصفحة
حليم دمّوس	٢٣
حسن الزيّات	٣٣
خليل مطران	٣٩
صلاح عبد الصّبور	٨، ٥٠، ٥١، ٥٨
علي الشّرقي	٣٦، ٣٧، ٥٩
عبد الوهّاب البياتي	٥٠
عمر أبو ريشة	٨
محمد مهدي الجواهري	٨، ٣٧، ٥٩.
محمد رضا الشبيبي	٣٧
مصطفى جمال الدين	٤٣، ٤٥
محمد علي ياسين	٤٣
محمد الفيتوري	٨، ٥٠، ٥١، ٥٨
محمد سعيد الحبُوبي	٥٩
محسن الأمين	٣٤، ٤٢
نازك الملائكة	٧، ٥٥
نزار قبّاني	٥٦
كمال أبو ديب	٦٣

فهرس الأماكن

المكان	الصفحة
النَّجف الأشرف	٧، ٢٦، ٢٨، ٣١، ٣٢، ٣٣، ٣٥، ٣٦، ٣٧، ٣٨، ٣٩، ٤٠، ٤١، ٤٣، ٤٤، ٤٦، ٥٩، ٧٩
العراق	٧، ٣٣، ٣٦، ٣٩، ٤٦، ٥٩، ٧١
لبنان	٣٤، ٣٩، ٥٩
بيروت	١١، ١٢، ٣٤
فلسطين	٤١
مصر	٤٣، ٥٩
الأَزهر	٤٣
قصقص	٣٣
صيدا	٣٩
جبل عامل	٣٩

قائمةُ المَصادرِ والمراجع[1]

ـ د. علي مهدي زيتون، **إعجاز القرآن وأثره في تطوُّر النّقد الأدبي**، دار المشرق، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى ١٩٩٢.

ـ د. عبد القادر القطّ **الإتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر**، دار النهضة العربية، بيروت، الطبعة الثانية ١٩٨١م.

ـ محمد حسين فضل الله، **تفسير من وحي القرآن**، دار الملاك، الطبعة الثانية، ١٩٩٨، ٢٤ مجلّداً.

ـ محمد حسين فضل الله، **النّدوة**، دار الملاك، الطبعة الأُولى، ١٠ مجلّدات.

ـ محمد حسين فضل الله، **آفاق الروح**، دار الملاك، بيروت ـ حارة حريك ـ الطبعة الأولى، ٢٠٠٠، مجلّدان.

ـ محمد حسين فضل الله، **من عرفان القرآن**، دار الملاك، بيروت، ط١.

ـ علي سرور، **العلامة فضل الله وتحدّي الممنوع**، دار الملاك، الطبعة الأولى ١٩٩٢.

ـ محمد حسين فضل الله، **في رحاب أهل البيت (ع)**، دار الملاك، الطبعة الثانية، مجلّدان.

ـ محمد جواد مغنيّة **التفسير الكاشف**، دار العلم للملايين بيروت ـ لبنان، الطبعة الثالثة، ٧ مجلّدات.

ـ **مختصر تفسير ابن كثير**، دار المعرفة، بيروت ـ لبنان، الطبعة الثالثة، ١٩٨٧م.

(١) لم يُراعَ الترتيب الألفبائي في فهرس المصادر والمراجع.

ـ محمود البستاني، **تاريخ الأدب العربي، في ضوء المنهج الإسلامي**، مجمع البحوث الإسلاميّة، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٩٠.

ـ الشهيد الشيخ حسين معن، **نظرات في الإعداد الروحي**، مؤسّسة العارف للمطبوعات، الطبعة الثانية، ١٩٩٢.

ـ عِزّ الدين بحر العلوم، **أضواء على دُعاء كميل**، دار الزهراء، بيروت، لبنان الطبعة الأولى، ١٩٨٣.

ـ علي أحمد سعيد، **الثابت والمتحوّل (الأصول ـ تأصيل الأصول،ـ صدمة الحداثة)**، دار العودة، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٩٨٣.

ـ يوسف عزّالدين، **في الأدب العربي الحديث**، المكتبة العربيّة، القاهرة، ١٩٧٣.

ـ إنعام قدوح، **التشيُّع والتصُّوف**، الطبعة الأولى ١٩٩٣.

ـ **العقاد وقضية الشّعر**، مجموعة من الباحثين، المكتبة العربيّة، القاهرة، ١٩٧٩.

ـ رئيف خوري، **الدِّراسة الأدبيّة**، دار المكشوف، بيروت، لبنان ١٩٦٩.

ـ عبّاس محمود العقّاد، **مراجعات في الأداب والفنون**، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٦٦.

ـ شلتاغ عبُّود، **حدائق الشعر الإسلامي المعاصر**، دار الملاك، ط١، ٢٠٠٢.

ـ علي مهدي زيتون، لغة محمد علي شمس الدين الشعرية، سلسلة الأدب الحديث III، حركة الريف الثقافية، ط١، ١٩٩٦.

ـ عبد الكريم حسن، الموضوعية البنيوية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط١، ١٩٨٣.

ـ غالي شكري، شعرنا الحديث إلى أين؟ دار الآفاق الجديدة، بيروت لبنان، ط١، و٢، ١٩٦٨، ١٩٧٨.

ـ كمال أبو ديب، جدلية الخفاء والتجلي، دار العلم للملايين، بيروت لبنان، ط٣، ١٩٨٤.

ـ كمال أبو ديب، في الشعرية، مؤسسة الأبحاث العربية، ط١، ١٩٨٧.

ـ محمد حسين فضل الله، يا ظلال الإسلام، دار التعارف، بيروت لبنان، ط٢، ١٩٨٥.

ـ محمد حسين فضل الله، **قصائد للإسلام والحياة**، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت لبنان، ط١، ١٩٨٤.

ـ يونس أحمد السامرائي، **دراسات في الشِّعر والشُّعراء**، جامعة بغداد، ١٩٩٠.

ـ شوقي ضيف **الفنّ ومذاهبه في الشعر العربي**، دار المعارف، الطبعة العاشرة.

ـ **أسرار البلاغة** الجرجاني، دار الكتب العلميّة بيروت، لبنان، ط١، ١٩٨٨.

ـ **الايضاح في علوم البلاغة المعاني والبيان والبديع**، الخطيب القزويني، دار الكتب العلميّة، بيروت ـ لبنان لاط، لات.

ـ محمد هادي الأميني، **معجم** رجال الفكر والأدب في **النجف** خلال ألف عام (٣مج)، الطبعة الثانية ١٤١٣/ ١٩٩٢.

ـ **إعراب القرآن**، المنسوب إلى الزجاج، مؤسّسة مطبوعات إسماعيليان، إيران، قم دار الكتاب اللبناني، بيروت ـ لبنان ط٢، ١٩٨٢، ٣ أجزاء.

ـ فؤاد حيدر، **الشخصية في الإسلام وفي الفكر الغربي**، دار الفكر العربي، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٠.

ـ الفخر الرازي، **التفسير الكبير**، مكتب الإعلام الإسلامي، الطبعة الثالثة، جمادي الثاني ١٤١١هـ. ق (إيران).

ـ الطوسي، **البيان في تفسير القرآن**، مكتب الإعلام الإسلامي، الطبعة الأولى، دار إحياء التراث العربي ١٤٠٩هـ.

ـ عز الدين إسماعيل، **الشعر في إطار العصر الثوري**، دار القلم بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى، ايلول ١٩٧٤.

ـ محمد عبد العزيز الكفراوي، **الشعر العربي بين الجمود والتطور**، دار نهضة مصر، لاط، لات.

ـ عادل الفريجات، **إضاءات في النقد الأدبي**، دار أسامة، دمشق ١٩٨٥.

ـ عفّت الشرقاوي، **بلاغة العطف في القرآن الكريم**، دراسة اسلوبيّة دار النهضة العربيه بيروت ـ لبنان ١٩٨١.

المجلات

ـ مجلّة الفكر العربي، تجليّات المنهج ٨٧، شتاء ١٩٩٧، السنة الثامنة عشرة. معهد الإنماء العربي (اللغة العربيّة والأمّة).

ـ مجلة الفكر العربي، العدد الخامس والسّبعون، شتاء ١٩٩٤، السنة الخامسة عشرة.

ـ شؤون أدبيّة، السنة السادسة، العددان ١٩ ـ ٢٠، شتاء ـ ربيع ١٩٩١ ـ ١٩٩٢ إتحاد كتاب وأُدباء الإمارات.

ـ باحثات، العدد الثالث، ١٩٩٦ ـ ١٩٩٧، تجمُّع الباحثات اللبنانيات.

ـ الفكر العربي العددان ٨٥ و٨٦، صيف وخريف ١٩٩٦، السنة السادسة عشرة، مسائل في السياسة واللُّغة والعنف.

ـ المنطلق، العدد الثامن والسبعون والتاسع والسبعون، أيار/ حزيران ١٩٩١، محور اللغة العربية وتحدّيات العصر. السنة الثالثة والرابعة

ـ القصب العددان الثالث عشر ١٩٩٨ والثامن عشر ١٩٩٩، صيف ١٤٢٠، ربيع ١٤١٩. والعدد السابع عشر، السنة الرابعة، ربيع ١٩٩٩/ ١٤٢٠هـ.

ـ العرفان، العدد السابع المجلّد السادس والسبعون، ايلول ١٩٩٢ ـ ربيع الأوّل ١٤١٣هـ والعددان السابع والثامن المجلَّد الثمانون أيلول وتشرين الأول ١٩٩٦م.

ـ المعارج، المجلد الأوّل (العددان السادس والسابع) ذو القعدة وذو الحجة ١٤١١هـ، حزيرن/ تموز ١٩٩١م.

الجرائد:

ـ النداء، عدد ١٧، ٦، ١٩٩٠.

ـ اصدارات، عدد ٢٥، ٨، ١٩٩١.

ـ النهار، عدد ٣٠٨، ١٩٩١ و٧٠٨، ١٩٩٢.

ـ الأنوار، عدد ٦٠٢٣، ١٩٩٠.

ـ الديار، عدد ٢٥/ ٢، ١٩٩١.

ـ القدس العربي، عدد ٤، ١٢، ١٩٩٠.

ـ كيهان العربي، ٦ نيسان، ١٩٨٧، وعدد ١٤ نيسان ١٩٨٦.

الفهرس

الموضوع	الصفحة
الإهداء	٥
تقديم	٧
مقدِّمة	٩
مدخل	١٧
الروح لغةً	١٩
الروح دينياً	٢٠
الروح أدبياً وشعرياً	٢٤
الفصل الأول: السيد فضل الله والشعر المرحلة الشاعرية	
الطفولة الشاعرة	٣٣
البيئة الشعرية	٣٩
نظمه للشعر	٤٣
التجربة الشعرية	٤٦
مفهوم السيِّد فضل الله للشعر	٤٨
الثابت والمتحرِّك في شعر السيد فضل الله	٥٣
الشكل والمضمون عند السيد فضل الله	٦٣
الالتزام الشعري في رأي السيد	٦٧
الرؤية الشعرية ودورها	٧٠
اللغة النثرية واللغة الشعرية	٧٣
الغموض والوضوح في الشعر	٧٥

مشاكل الشعر العربي ٧٨

(الفصل الثاني) علاقة السيد فضل الله الشعرية بالله تعالى

المبحث الأول (منهج السيّد فضل الله الروحي في معرفة الله تعالى)

الخطوط العامة في منهج السيد فضل الله في معرفة الله ٨٥

المبحث الثاني (القضايا الروحية في شعر السيد) ٩١

الله تعالى في نظر الشاعر ١٠١

محبة الله ١٠٣

الله تعالى سر الكون وعلته الأولى ١١٧

شوق الشاعر إلى لقاء المحبوب ١٢٦

القلق والحيرة ١٣٧

الخالق أنيس الوحدة ١٤٦

الدعاء سلاح الشاعر في طلب المغفرة والرضوان من الله تعالى ١٥٩

الباب الثالث (شخصية الرسول الأعظم محمد (ص) في شعر السيد)

أ ـ شخصيّة الرسول الأعظم في القرآن الكريم ١٧٥

(صورة الرسول القرآنية والشعرية) شخصيّة الرسول الأعظم في شعر السيّد فضل الله ١٨٠

رسول السلام ١٨١

رسول الأخلاق ١٨٧

الرسول الرحمة ١٩٢

الرسول القدوة ١٩٦

الرسول الإنسان ٢٠٤

خلاصة عامة ٢١٤

الفصل الرابع (بين ماضي الرسالة وحاضر الأمة)

أ ـ الرسول وواقع العصر ٢١٧

النبي رمز الحرية ٢١٨

حرية الاسلام ٢٢٠
الأمة الأسيرة ٢٢٠
نظرة الأمة لرسولها ٢٢٦
معارك الرسول وأثرها في واقع الأمة ٢٣٠
أخوة الأنبياء ٢٣٤
خلاصة عامة ٢٤٥
الفصل الخامس (لغة السيد فضل الله الشعرية ونموذج عن الايقاع الموسيقي)
المبحث الأول: لغة السيد فضل الله الشعرية ٢٥١
المبحث الثاني: نموذج ايقاعي موسيقي من شعر السيد فضل الله ٢٦٠
تحديد الرؤيا من خلال الوزن وجوازاته ٢٦١
خاتمة الدراسة ٢٦٣
نماذج من قصائد سماحة السيّد تمثل اتجاهه الروحي في الشعر ٢٦٩
في رحاب الروح ٢٧١
ربِّ رحماك» ٢٨٥
صوفية شاعر ٢٨٧
اعتراف وابتهال ٢٨٩
صلاة (في لحظات صوفية رائعة) ٢٩١
أحبك يا رب ٢٩٤
الله أكبر ٢٩٨
ربّاه ٢٩٩
أنا أهواك ٣٠١
حائر أمام الله ٣٠٢
في رحاب رسول الله ٣٠٥
من وحي الميلاد النبوي يا رسول الله ٣١١
يوميات إسلامية ٣١٦
يا ظلال الإسلام لن يقف الركب ٣١٨
أين تمضي ٣٢٢

أيها الملحدون ٣٢٧
أيها المدلجون ٣٣١
خطأ العمر ٣٣٣
إننا مسلمون ٣٣٥
مع الأخطاء الذهبيّة ٣٣٧
التوكل ـ المفهوم الخاطىء ٣٣٨
التوكل ـ المفهوم الصحيح ٣٣٩
في موكب الحج ٣٤٠
فهرس الآيات ٣٥١
فهرس الاعلام ٣٥٣
فهرس الاماكن ٣٥٥
قائمة المصادر والمراجع ٣٥٧
الفهرس ٣٦١

عزيزي الأستاذ علي رفعت مهدي حفظه الله

إنني أقدر لك هذه الذهنية الروحية الإسلامية الثقافية التحليلية الناقدة التي تجلت في رسالتك الجيدة في الانفتاح الأدبي على الجانب الشعري في تجربتي الشعرية في اكتشافها الكثير من الإيحاءات الفكرية والانسانية والروحية.

إنني إذ اقدر لك هذا الجهد الأدبي الرفيع وأشكره لك أمل أن تظل سائراً في الخط التصاعدي المنفتح دوماً على أفق جديد وعطاء جديد مع المحبة والدعاء.

الثلاثاء
٢٦ ربيع
١٤٢٥هـ

محمد حسين
فضل الله

ISBN 9953-60-026-0

9 789953 600260 >